أعلام الحديث

الإمـــام البخـــاري

الإمام مسلم

الإمام الحافظ الليث بن سعد

الإمام الحافظ الذهبي

الإمام أبو داود

الإمـــام الترمـــذي

الحافـــظ البيهـــقـــي

إعــداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب :	**أعلام الحديث**
إعداد :	**دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت**
الطبعة :	**طبعة أولى / 1432هـ - 2011 م**
الناشر :	**مكتبة جزيرة الورد**
رقم الإيداع :	

مكتبـة جزيرة الورد ـ القاهـرة / ميدان حليـم
خلف بنك فيصل شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا
012/9961635 - 02/27877574
010/0004046 - 010/0104115

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه، ودنا في علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا، فأحسن كل شيء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

وأشهد شهادة حق، وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق، فبلغ مألكته، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين، فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه: {أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤] اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "**قوموا، فانحروا ثم احلقوا**"، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد

دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة ♥ : يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسانِ - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية

والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة، { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ } [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقْرِ دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكلَه الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

أيها الأحبة.. في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ }

[الأنبياء: ٩٠]. وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أيها المسلمون.. إذا كان الحبيب ﷴ مأمورًا بأخذ الأسوة والقدوة من سلفه رسل الله، فنحن أحرى أن نأخذها منه، كما وجهنا إلى ذلك ربّ العزة. وفي هذا التوجيه الرباني دعوة إلى كل ذي عقل رشيد أن يضع نصب عينه أخذ الأسوة والقدوة من سيد الخلق أجمعين، في أقواله وأفعاله، وفي مناهجه وشمائله وأخلاقه وسلوكيّاته، فهو المثل الكامل للإنسانية.

وقد سار أصحابه رضوان الله عليهم على نهجه، فلم يحجموا عن مكرمة أو يقصروا عن شيء من فعل الخير، ويأتي بعد ذلك أخذ الأسوة والقدوة الحسنة من خيار الأمة، وفي طليعتهم أهل القرون المفضّلة المشهود لهم بالهداية من التابعين وتابعي التابعين، قال:"**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**".

وهكذا في كل زمان يجب أخذ الأسوة الحسنة من أهل الفضل، ومن العلماء العاملين بعلمهم، المخلصين لدينهم، الذين يتقون الله في سرهم وعلانيتهم، الذين يقولون كلمة الحق بدون خوف أو وجل، لا تأخذهم في الله لومة لائم، الذين لا يلحدون في آيات الله، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، الذين لا ينافقون ولا يجاملون. فهؤلاء العلماء ممن هدى الله وشرح صدورهم للإيمان، ففي السير على هدايتهم والاقتداء بأفعالهم فلاح وفوز في الدنيا والآخرة.

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: يا أستاذ قال الله تعالى{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيدهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء ” .

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي، وهذا بالتالي يساعد علي خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون.. أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر، وفي كل مجالات الحياة، فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها
مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

ورد في الأثر الذي رواه أحمد بسند حسن من حديث ابن مسعود . موقوفاً عليه قال: (من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله

عزَّ وجلَّ: {وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل، إنهم{ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ } [هود: ١١٦] مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وهكذا جيل الصحابة ومن بعدهم والتابعين والفقهاء والعلماء المحدثين . كانوا روحا نابضة، وقوة متجددة، وصفحة مشرقة لم تزدها الأيام إلا قوة ومضاء، ولا الأحداث إلا نصوعا وإشراقا، فكانوا يبادرون إلى كل خير ويتنافسون في الاستباق إليه، ويكفيهم فخرا وعزا أنهم - على رغم ما مروا به من ظروف قاسية - سطروا أروع الأمثلة وأنصعها في بلوغ الكمال الإنساني، إذ من السابقين المضحين منهم تكون نواة لمجتمع رباني نما واتسع فيما بعد بسرعة فائقة حتى

عم خيره بقاع الدنيا بأسرها، ولا تزال آثاره باقية بفضل الله تعالى.

فهذا الذي فعلوه وحققوه ليس ضربا من ضروب الأحلام، أو الخيال، أو المحال، لا بل هو مثال واقع محسوس في دنيا الناس وعلى أرضهم، وسنة سنوها وحازوا سبقها فنالوا أجرها وأجر من تبعهم فيها.

وأخيرا فلئن كانت حياة الصالحين المحدثين . كلها مليئة بالصور المضيئة المشرقة فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من هذه الجوانب المشرقة من حياتهم، وذلك تذكيرا بجهادهم وسبقهم وتنويها بمنزلتهم وفضلهم.

سائلا الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ∴ إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

أهمية علم الحديث وفضل المحدثين

جاءت أحاديث كثيرة تدل على فضل العناية بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام والاشتغال بها وتلقيها وتعلمها وتعليمها، ومن أوضح ما جاء فيها الحديث المتواتر أن النبي ﷺ قال: "**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها، فرب مُبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**"، وجاء في بعض رواياته: "**رحم الله من سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه**".

فهذا الحديث المتواتر مشتمل على دعاء من النبي عليه الصلاة السلام لمن اشتغل بسنته عليه الصلاة والسلام وبلغها وعمل بها - أن يجعله ذا نضرة وبهجة، بحيث يكون وجهه مشرقاً مضيئاً في الدنيا والآخرة، فتكون عليه البهجة في الدنيا، ويكون ذا نضرة وبهجة في الآخرة.

وقد جاء في القرآن الكريم: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾} [القيامة: ٢٢ - ٢٣] فالأولى بالضاد أخت الصاد، وهي من النضرة التي معناها الإضاءة والإشراق، والثانية بالظاء أخت الطاء من النظر بالعين، وهي الرؤية. وهي من أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية الله في الدار الآخرة. والدعاء المذكور في الحديث سببه أن هذا المرء يقوم بهذه المهمة العظيمة، فيتلقى حديث رسول الله ﷺ ويحفظه ويبلغه إلى غيره؛ لأنه إذا حفظه وبلغه إلى غيره قد يستنبط غيره منه ما يخفى على ذلك الذي تحمل، ولهذا قال: "**ورب حامل فقه إلى من**

هو أفقه منه - لأنه بذلك حفظ السنن، ومكن غيره من استنباط أحكامها.

وهيأ الله لسنة رسوله ﷺ علماء وقفوا نفوسهم، وشغلوا أعمارهم في العناية بها حفظاً وفهماً وتعلماً وتعليماً، فعنوا بجمعها وحفظها وترتيبها وتنظيمها، وكان ذلك من الله عز وجل حفظاً لهذه السنة المطهرة التي هي وحي من الله عز وجل أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

وخير الهمم العالية ما جانفت الرمم البالية وإنما تعلو الهمة بعلوّ ما تهتم به، ولا أجل من علوم الشريعة عقلاً ونقلاً، ولا غرو فكتاب الله وسنّة رسوله هما قطبا رحى الإسلام وطنباً فسطاطه، فحبذا الاشتغال بهما وبئس التشاغل عنهما. قال ابن القيم في نونيته:

والعلم قال الله قال رسوله ::: قال الصحابة هم أولو العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ::: بين الرسول وبين رأي فلان

وعلم الحديث هو العلم الأصيل الذاخر، وهو تاج العلوم الفاخر حسبك أنه كلام النبي بوحي من ربه العلي: { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ } [النجم: ٣ - ٤] وقد ابتعث الله محمداً فأنقذ به الورى، وأنفذهم به إلى الإمام من الورا وأهل الحديث هم عصابة الرحمن، فبهم تصان الشريعة، وتعلم الأوامر والنواهي وهم أعلام الهدى ومنارات الدّجى، وهم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله:"**ستفترق أمتي من بعدي إلى ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة...**- الحديث.

قال الإمام أحمد: هم أهل الحديث.

وقد صدق فيما نطق وباء بالحق وما اختلق، إذ أهل الحديث هم نقلة الشريعة وحفظتها والقائمون عليها وسدنتها، فبهم يستبين الصحيح من الفاسد والرابح من الكاسد من حديث رسول الله ﷺ وخاصة بعدما التبس الحق بالباطل ورتع في وضع الحديث كل عاطل.

وهيهات فإن حفظ الله قائم لشرعه ويدُ الله تحمل في الخفاء لحفظه{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: ٣١].

وصدق الله إذ يقول: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ } [الحجر: ٩] والسنّة شقيقة كتاب الله وصنوه، وبنت قوله وهي محفوظة بالله على يد أجناد الله، جهابذ النقدة السفرة البررة من أهل الحديث . ورحمهم وتوجهم بكل فضل وذخر:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ⁝ إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وهاك نبذاً نيرة ومواقف متآزرة خيرة من سيرة علمائنا الأكابر من أهل الحديث، تكشف لك جهدهم وتنير دربك لتلحق بهم وتستقي من غيثهم:

خذها إليك مسلمة ⁝ موسومة ومعلمة
من جازها نال العلى ⁝ حاز الفخار على الملا

* * *

الإمام البخاري

أعـلام الحديـث

الإمام البخاري

الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد بن إسماعيل البخاري أمير أهل الحديث وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، يقول البخاري: صنفت الصحيح في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين
الله تعالى.

ولم يشهد تاريخ الإسلام مثله في قوة الحفظ ودقة الرواية والصبر على البحث مع قلة الإمكانات، حتى أصبح منارة في الحديث وفاق تلامذته وشيوخه على السواء.

ويقول عنه أحد العلماء: لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث.

فهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري وكلمة بردزبه تعني بلغة بخارى " الزراع ".

أسلم جده " المغيرة " على يدي اليمان الجعفي والي بخارى وكان مجوسيا، وطلب والده إسماعيل بن إبراهيم العلم والتقى بعدد من كبار العلماء، وروى إسحاق بن أحمد بن خلف أنه سمع البخاري يقول: سمع أبي من مالك بن أنس، ورأى حماد بن زيد، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه.

ولد أبو عبد الله في يوم الجمعة الرابع من شوال سنة أربع وتسعين.

ويروى أن محمد بن إسماعيل عمي في صغره، فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك أو كثرة دعائك.. شك البلخي فأصبحت وقد رد الله عليه بصره.

ووهب الله للبخاري منذ طفولته قوة في الذكاء والحفظ من خلال ذاكرة قوية تحدى بها أقوى الاختبارات التي تعرض لها في عدة مواقف.

يقول محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب، فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرني فقلت له ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم.

فأخذ القلم مني وأحكم (أصلح) كتابه وقال: صدقت.

فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة.

ولما بلغ البخاري ست عشرة سنة كان قد حفظ كتب ابن المبارك ووكيع.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل، وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فكنا نقول له: إنك تختلف

معنا ولا تكتب فما تصنع؟ فقال لنا يوما بعد ستة عشر يوما: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما فاعرضا على ما كتبتما فأخرجنا إليه ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه ثم قال أترون أني أختلف هدرا وأضيع أيامي فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

وقال ابن عدي: حدثني محمد بن أحمد القومسي سمعت محمد بن خميرويه سمعت محمد بن إسماعيل يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح

قال: وسمعت أبا بكر الكلوذاني يقول: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل كان يأخذ الكتاب من العلماء فيطلع عليه اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة.

ورحل البخاري بين عدة بلدان طلبا للحديث الشريف ولينهل من كبار علماء وشيوخ عصره في بخارى وغيرها.

وروي عن البخاري أنه كان يقول قبل موته: كتبت عن ألف وثمانين رجلا ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

ونعود إلى البخاري في رحلته في طلب العلم ونبدؤها من مسقط رأسه بخارى، فقد سمع بها من الجعفي المسندي ومحمد بن سلام البيكندي وجماعة ليسوا من كبار شيوخه، ثم رحل إلى بلخ وسمع هناك من مكي بن إبراهيم وهو من كبار شيوخه وسمع بمرو من عبدان بن عثمان وعلي بن الحسن بن شقيق وصدقة بن الفضل. وسمع بنيسابور من يحيى بن يحيى وجماعة من العلماء وبالري من

إبراهيم بن موسى.

وفي أواخر سنة 210هـ قدم البخاري العراق وتنقل بين مدنها ليسمع من شيوخها وعلمائها. وقال البخاري: دخلت بغداد آخر ثمان مرات في كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل فقال لي في آخر ما ودعته يا أبا عبد الله تدع العلم والناس وتصير إلى خراسان قال فأنا الآن أذكر قوله.

ثم رحل إلى مكة وسمع هناك من أبي عبد الرحمن المقرئ، وخلاد بن يحيى، وحسان بن حسان البصري، وأبي الوليد أحمد بن محمد الأزرقي والحميدي.

وسمع بالمدينة من عبد العزيز الأويسي وأيوب بن سليمان بن بلال وإسماعيل بن أبي أويس.

وأكمل رحلته في العالم الإسلامي آنذاك فذهب إلى مصر ثم ذهب إلى الشام وسمع من أبي اليمان وآدم بن أبي إياس وعلي بن عياش وبشر بن شعيب، وقد سمع من أبي المغيرة عبد القدوس وأحمد بن خالد الوهبي ومحمد بن يوسف الفريابي وأبي مسهر وآخرين.

مؤلفات البخاري:

عد العلماء كتاب الجامع الصحيح المعروف بـ " صحيح البخاري " أصح كتاب بعد كتاب الله، ويقول عنه علماء الحديث " هو أعلى الكتب الستة سندا إلى النبي ﷺ في شيء كثير من الأحاديث وذلك لأن أبا عبد الله أسن الجماعة وأقدمهم لقيا للكبار أخذ عن جماعة يروي الآئمة الخمسة عنهم ".

ويقول في قصة تأليفه " الجامع الصحيح " : " كنت عند إسحاق بن راهويه فقال بعض أصحابنا لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب ".

ويقول في بعض الروايات:

- أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث.

- ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

- ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح وتركت من الصحاح كي لا يطول الكتاب.

ويروي البخاري أنه بدأ التأليف وعمره 18 سنة فيقول:

" في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسى، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله ﷺ في الليالي المقمرة وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة إلا أني كرهت تطويل الكتاب، وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي فإذا جئت أستحي أن أسلم عليهم فقال لي مؤدب من أهلها كم كتبت اليوم فقلت: اثنين وأردت بذلك حديثين فضحك من حضر المجلس فقال شيخ منهم: " لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يوما ".

وقال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنف؟ فقال: لا يخفى عليَّ جميع ما فيه، وسمعته يقول صنفت جميع كتبي ثلاث مرات.

وظل البخاري ستة عشر عاما يجمع الأحاديث الصحاح في دقة متناهية، وعمل دؤوب، وصبر على البحث وتحري الصواب قلما توافرت لباحث قبله أو بعده حتى اليوم، وكان بعد كل هذا لا يدون الحديث إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين.

يروي أحد تلامذته أنه بات عنده ذات ليلة فأحصى عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانا فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارا ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها.

وروي عن البخاري أنه قال: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث إن كان الرجل فهما، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلي أصله ونسخته فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون وكيف يكتبون.

وكان العباس الدوري يقول: ما رأيت أحدا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل كان لا يدع أصلا ولا فرعا إلا قلعه ثم قال لنا لا تدعوا من كلامه شيئا إلا كتبتموه.

وظهر نبوغ البخاري مبكرا فتفوق على أقرانه، وصاروا يتتلمذون على يديه، ويحتفون به في البلدان.

فقد روي أن أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه وكان شابا لم يخرج وجهه.

وروي عن يوسف بن موسى المروروذي يقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديا ينادي: يا أهل العلم قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري، فقاموا في طلبه وكنت معهم فرأينا رجلا شابا يصلي خلف الأسطوانة فلما فرغ من الصلاة أحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء فأجابهم فلما كان الغد اجتمع قريب من كذا كذا ألف فجلس للإملاء وقال يا أهل البصرة أنا شاب وقد سألتموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون منها.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا لإسناد هذا وإسناد هذا لمتن هذا ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس فاجتمع الناس وانتدب أحدهم، فسأل البخاري عن حديث من عشرته فقال: لا أعرفه وسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، وكذلك حتى فرغ من عشرته، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم. ومن كان لا يدري قضى على البخاري بالعجز ثم انتدب آخر ففعل كما فعل الأول والبخاري يقول: لا أعرفه ثم الثالث وإلى تمام العشرة أنفس وهو لا يزيدهم على لا أعرفه. فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، والثالث كذا إلى العشرة، فرد كل متن إلى إسناده وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر له الناس بالحفظ فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول الكبش النطاح.

وروي عن أبي الأزهر قال: كان بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة أيام وأحبوا مغالطة البخاري فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق وإسناد اليمن في إسناد الحرمين فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن.

وقال أحيد بن أبي جعفر والي بخارى: قال محمد بن إسماعيل يوما: رب حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر فقلت له: يا أبا عبد الله بكماله قال: فسكت.

ثناء الأئمة عليه:

قال أبو إسحاق السرماري: من أراد أن ينظر إلى فقيه بحقه وصدقه فلينظر إلى محمد بن إسماعيل.

قال أبو جعفر: سمعت يحيى بن جعفر يقول: لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد وموته ذهاب العلم.

وكان نعيم بن حماد يقول: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

قال مصعب الزهري محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث.

وروي عن إسحاق بن راهويه أنه كان يقول: اكتبوا عن هذا الشاب يعني البخاري، فلو كان في زمن الحسن لاحتاج إليه الناس لمعرفته بالحديث وفقهه.

وكان علي بن حجر يقول: أخرجت خراسان ثلاثة: أبا زرعة، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومحمد عندي أبصرهم وأعلمهم وأفقههم.

وقال محمد بن أبي حاتم سمعت إبراهيم بن خالد المروزي يقول: رأيت أبا عمار الحسين بن حريث يثني على أبي عبد الله البخاري ويقول: لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمد: حدثني حاتم بن مالك الوراق قال: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقيهنا وفقيه خراسان.

وقال أبو الطيب حاتم بن منصور الكسي يقول: محمد بن إسماعيل آية من آيات الله في بصره ونفاذه من العلم.

وقال سليم بن مجاهد: يقول لو أن وكيعا وابن عيينة وابن المبارك كانوا في الأحياء لاحتاجوا إلى محمد بن إسماعيل.

وروي عن قتيبة بن سعيد أنه قال: لو كان محمد في الصحابة لكان آية. نظرت في الحديث ونظرت في الرأي وجالست الفقهاء والزهاد والعباد ما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال أبو عبد الله الحاكم: محمد بن إسماعيل البخاري إمام أهل الحديث.

قال أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله وأحفظ له من محمد بن إسماعيل.

قال محمد بن حمدون بن رستم سمعت مسلم بن الحجاج وجاء إلى البخاري فقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله.

وقال سعيد بن جعفر: سمعت العلماء بالبصرة يقولون ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح.

من كلمات البخاري:

ـ لا أعلم شيئا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة.

ـ ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت في عامة كتب الرأي وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها فما تركت بها حديثا صحيحا إلا كتبته إلا ما لم يظهر لي.

ـ ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله والثناء عليه.

ـ قال أما المادح والذام عندي سواء.

ـ وقال: أرجو أن ألقى الله عز وجل ولا يطالبني أني اغتبت أحدا.

ـ وقال: ما اشتريت منذ وليت من أحد بدرهم ولا بعت أحدًا شيئا، فسئل عن الورق والحبر فقال: كنت آمر إنسانًا أن يشتري لي[1].

مواقف من حياة البخاري:

أنت تذب عنه الكذب:

وروي عن البخاري قال: رأيت النبي ﷺ في المنام وكأني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب عنه فسألت بعض المعبرين فقال: انت تذب عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الصحيح.

(1، 2) الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، 1 / 86.

أقرئه مني السلام:

وعن أبي عبد الله محمد بن يوسف الفربري راوية صحيح البخاري قال : رأيت النبي ﷺ في النوم فقال : أين تريد ؟ قلت : أريد محمد بن إسماعيل البخاري، فقال: أقرئه مني السلام.

وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع:

وعن الفربري قال: رأيت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله في النوم خلف النبي ﷺ والنبي ﷺ يمشي كلما رفع قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع [2].

ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا:

وقال بكر بن منير سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا قلت: صدق رحمه الله ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس وإنصافه فيمن يضعفه فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر ونحو هذا. وقل أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث حتى إنه قال: إذا قلت: فلان في حديثه نظر فهو متهم واهٍ وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدا. وهذا هو والله غاية الورع.

ولا أحب أن أفسد عليك نومك:

يقول محمد بن أبي حاتم: كان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة وكان لا يوقظني في كل ما يقوم فقلت: أراك تحمل على نفسك ولم توقظني قال: أنت شاب ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

لو قيل لي شيئ من هذا:

يروي البخاري فيقول: كنت بنيسابور أجلس في الجامع فذهب عمرو بن زرارة وإسحاق بن راهويه إلى يعقوب بن عبد الله والي نيسابور فأخبروه بمكاني فاعتذر إليهم وقال: مذهبنا إذا رفع إلينا غريب لم نعرفه حبسناه حتى يظهر لنا أمره فقال له بعضهم: بلغني أنه قال لك: لا تحسن تصلي فكيف تجلس؟ فقال: لو قيل لي شيء من هذا ما كنت أقوم من ذلك المجلس حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة.

أنت الذي يقول إني أحفظ سبعين ألف حديث:

قال أبو جعفر سمعت أبا عمر سليم بن مجاهد يقول: كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال: لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث قال: فخرجت في طلبه حتى لحقته قال: أنت الذي يقول: إني أحفظ سبعين ألف حديث قال: نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث من الصحابة والتابعين إلا عرفتك مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروي حديثا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي من ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قال محمد بن يعقوب بن الأخرم: سمعت أصحابنا يقولون: لما قدم البخاري نيسابور استقبله أربعة آلاف رجل ركبانا على الخيل سوى من ركب بغلا أو حمارا وسوى الرجالة.

وجميع ملكي لك الفداء:

قال محمد بن أبي حاتم ركبنا يوما إلى الرمي، فجعلنا نرمي وأصاب سهم أبي عبد الله البخاري وتد القنطرة الذي على نهر ورادة فانشق الوتد فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد

وترك الرمي وقال لنا: ارجعوا ورجعنا معه إلى المنزل. فقال لي: يا أبا جعفر لي إليك حاجة مهمة قالها وهو يتنفس الصعداء، وقال لمن معنا: اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته، فقلت: أية حاجة هي. قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم على الرأس والعين. قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنه وتجعلنا في حل مما كان منا. وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر الفربري. فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له: أنت في حل مما كان منك وجميع ملكي لك الفداء وإن قلت نفسي أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي فأبلغته رسالته فتهلل وجهه واستنار وأظهر سرورا وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوا من خمسمائة حديث وتصدق بثلاث مائة درهم.

فإن فاجأنا العدو كان بنا حراك:

وقال بن أبي حاتم ورأيته استلقى على قفاه يوما ونحن بفربر في تصنيفه كتاب التفسير وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت شيئا بغير علم قط منذ عقلت فما الفائدة في الاستلقاء قال: أتعبنا أنفسنا اليوم وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العد فأحببت أن استريح وآخذ أهبة فإن فاجأنا العدو كان بنا حراك.

هذه الحياة الدنيا:

وضيفه بعض أصحابه في بستان له وضيفنا معه فلما جلسنا أعجب صاحب البستان بستانه وذلك أنه كان عمل مجالس فيه وأجرى الماء في أنهاره فقال له: يا أبا عبد الله كيف ترى؟ فقال: هذه الحياة الدنيا.

أصدق ما يكون الرجل عند الموت:

وقال أحمد بن حفص: دخلت على أبي الحسن يعني إسماعيل والد أبي عبد الله عند موته فقال: لا أعلم من مالي درهما من حرام ولا درهما من شبهة قال أحمد فتصاغرت إلي نفسي عند ذلك ثم قال أبو عبد الله أصدق ما يكون الرجل عند الموت.

وكان الحسين بن محمد السمرقندي يقول: كان محمد بن إسماعيل مخصوصا بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحمودة: كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس، كل شغله كان في العلم.

إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة:

وعمل البخاري بالتجارة فكان مثالا للتاجر الصدوق الذي لا يغش ولا ينقض نيته مهما كانت المغريات. روي أنه حملت إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه أحمد فاجتمع بعض التجار إليه فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم فقال: انصرفوا الليلة فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف فقال: إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة.

لحمله القثاء إليه أحيانا:

قال محمد بن أبي حاتم: كانت له قطعة أرض يؤجرها كل سنة بسبع مائة درهم فكان ذلك المؤجر ربما حمل منها إلى أبي عبد الله قثاة أو قثاتين؛ لأن أبا عبد الله كان معجبا بالقثاء النضيج وكان يؤثره على البطيخ أحيانا فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحيانا.

ما عند الله خير وأبقى:

قال وسمعته يقول: كنت أستغل كل شهر خمس مائة درهم فأنفقت كل ذلك في طلب العلم فقلت كم بين من ينفق على هذا الوجه وبين من كان خلوا من المال فجمع وكسب بالعلم حتى اجتمع له فقال أبو عبد الله: {وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ} [الشورى: ٣٦].

وكان يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد وكان لا يفارقه كيسه.

كيف تمشين؟:

ويقول عبد الله بن محمد الصارفي: كنت عند أبي عبد الله البخاري في منزله، فجاءته جارية وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق كيف أمشي؟ فبسط يديه وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك. قال فقيل له فيما بعد: يا أبا عبد الله أغضبتك الجارية: قال إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت.

محنة البخاري:

تعرض البخاري للامتحان والابتلاء، وكثيرا ما تعرض العلماء الصادقون للمحن فصبروا على ما أوذوا في سبيل الله، ولقد حسد البعض البخاري لما له من مكانة عند العلماء وطلاب العلم وجماهير المسلمين في كل البلاد الإسلامية، فأثاروا حوله الشائعات بأنه يقول بخلق القرآن، ولذلك قصة يرويها أبو أحمد بن عدي فيقول: ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل البخاري لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه فحسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأوا إقبال الناس إليه واجتماعهم عليه. فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق فامتحنوه في المجلس فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقران مخلوق هو أم غير مخلوق فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله فأعاد عليه القول فأعرض عنه، ثم قال في الثالثة فالتفت إليه البخاري وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة، فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله.

وقالوا له بعد ذلك ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك قال: لا أفعل إلا أن تجيئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتي وأعجبني من محمد بن إسماعيل ثباته، وكان يقول: أما أفعال العباد فمخلوقة فقد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا مروان بن معاوية حدثنا أبو مالك عن ربعي عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: إن الله يصنع كل صانع وصنعته.

وبه قال، وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بمخلوق قال الله تعالى { بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ } [العنكبوت: ٤٩].

وقال البخاري: القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر.

وقال أيضا: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله إلا أني قلت أفعال العباد مخلوقة.

وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبد الله هذا رجل مقبول بخراسان خصوصا في هذه المدينة وقد لجَّ في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى فقبض على لحيته ثم قال: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ } [غافر: ٤٤] اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشرا ولا بطرا ولا طلبا للرئاسة إنما أبت علي نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين وقد قصدني هذا الرجل حسدا لما آتاني الله لا غير ثم قال لي: يا أحمد إني خارج غدا لتتخلصوا من حديثه لأجلي، فأخبرت جماعة أصحابنا فو الله ما شيعه غيري كنت معه حين خرج من البلد وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره.

وقال محمد بن أبي حاتم أتى رجل عبد الله البخاري فقال يا أبا عبد الله إن فلانا يكفرك فقال: قال النبي ﷺ :"**إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما**- وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك فيقول :{إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦]، ويتلو أيضا:{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ} [فاطر: ٤٣] فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك، فقال: قال النبي ﷺ :"**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**- وقال ﷺ :"**من دعا على ظالمه فقد انتصر**-.

محنته مع أمير بخارى:

روى أحمد بن منصور الشيرازي قال سمعت بعض أصحابنا يقول لما قدم أبوعبد الله بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق أحد إلا استقبله، ونثر عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير، فبقي أياما قال: فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير بخارى إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة، فقرأ كتابه على أهل بخارى فقالوا: لا نفارقه فأمره الأمير بالخروج من البلد فخرج.

قال أحمد بن منصور: فحكى لي بعض أصحابنا عن إبراهيم بن معقل النسفي قال: رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى فتقدمت إليه فقلت: يا أبا عبد الله كيف ترى هذا اليوم من اليوم الذي نثر عليك فيه ما نثر فقال: لا أبالي إذا سلم ديني.

وروي عن بكر بن منير بن خليد بن عسكر أنه قال: بعث الأمير خالد ابن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إلي كتاب الجامع و التاريخ وغيرهما لأسمع منك فقال لرسوله: أنا لا أذل

العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر في مسجدي أو في داري وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لأني لا أكتم العلم لقول النبي ﷺ :"**من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار**- فكان سبب الوحشة بينهما هذا.

وفاة البخاري

توفي البخاري - رحمه الله - ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين وقد بلغ اثنتين وستين سنة، وروي في قصة وفاته عدة روايات منها:

قال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه أبو عبد الله يقول: إنه أقام عندنا أياما فمرض واشتد به المرض، فلما وافى تهيأ للركوب فلبس خفيه وتعمم فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل آخذ معي يقوده إلى الدابة ليركبها فقال رحمه الله: أرسلوني فقد ضعفت فدعا بدعوات ثم اضطجع ، فقضى رحمه الله فسال منه العرق شيء لا يوصف فما سكن منه العرق إلى أن أدرجناه في ثيابه وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا أن كفنوني في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة ففعلنا ذلك فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك ، فدام ذلك أياما ثم علت سواري بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون، وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر حتى ظهر القبر ولم نكن نقدر على حفظ القبر بالحراس، وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشبا مشبكا لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب ولم يكونوا يخلصون إلى القبر ، وأما ريح الطيب فإنه تداوم

أياما كثيرة حتى تحدث أهل البلدة، وتعجبوا من ذلك وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته وخرج بعض مخالفيه إلى قبره، وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب قال محمد بن أبي حاتم ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل، وأوصى أن يدفن إلى جنبه.

وقال محمد بن محمد بن مكي الجرجاني: سمعت عبد الواحد بن آدم الطواويسي يقول: (رأيت النبي ﷺ في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري) فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فيها.

رحم الله الإمام البخاري رحمة واسعة، وجزاه الله خيرا عن الإسلام والمسلمين، وعن حديث رسول الله ﷺ [1].

* * *

(1) مقدمة كتابه: التاريخ الصغير، الجرح والتعديل 7 / 191، طبقات الحنابلة 1 / 271، 279، تاريخ بغداد 2 / 4، 33، الانساب، : 68 / أ، اللباب 1 / 125، تهذيب الأسماء واللغات : الجزء الأول من القسم الاول، ص: 67، 76، وفيات الأعيان 4 / 188، 191، تهذيب الكمال : 1168، 1172، تهذيب التهذيب 3 / 185 / 2، 189/1، جامع الأصول 1 / 186، العبر 2 / 12، 13، تذكرة الحفاظ 2 / 555، 557، الوافي بالوفيات 2 / 206، 209، طبقات الشافعية للسبكي 2 / 212، 241، تاريخ ابن كثير 11 / 24، 26، تهذيب التهذيب 9 / 47، 55، مقدمة فتح الباري، النجوم الزاهرة 3 / 25، 26، طبقات الحفاظ : 248، 249، خلاصة تذهيب الكمال : 327، طبقات المفسرين 2 / 100، مرآة الجنان 2 / 167، مفتاح السعادة 2 / 130، شذرات الذهب 2 / 134، 136.

الإمام مسلم

أعـلام الحديـث

الإمام مسلم

هو الإمام الكبير الحافظ المجود الحجة الصادق، أبوالحسين مسلم ابن الحجاج النيسابوري ولد بمدينة نيسابور سنة 206هـ وتوفى بها سنة 261 هـ. رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق في طلب الحديث، وكان أحد أئمة الحديث وحفاظه، اعترف علماء عصره ومن بعدهم له بالتقدم والإتقان في هذا العلم، من شيوخه الكبار إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وسعيد بن منصور، وغيرهم، ومن الذين رووا عنه الترمذي وأبو حاتم الرازي وابن خزيمة.

و كان إماماً جليلاً مهاباً، غيوراً على السنة ذابًّاً عنها، تتلمذ على البخاري وأفاد منه ولازمه، وهجر من أجله من خالفه، وكان في غاية الأدب مع إمامه البخاري حتى قال له يوماً: دعني أقبل رجلك يا إمام المحدثين وطبيب الحديث وعلله.

ثناء العلماء عليه:

أثنى أئمة العلم على الإمام مسلم، وقدمه أبو زرعة وأبو حاتم على أئمة عصره. وقال شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء: كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم، ما علمته إلا خيراً، وقال مسلمة بن قاسم: ثقة جليل القدر من الآئمة، وقال النووي: أجمعوا على جلالته وإمامته، وعلو مرتبته وحذقه في الصنعة وتقدمه فيها.

ظل الإمام مسلم بن الحجاج بنيسابور يقوم بعقد حلقات العلم التي يؤمها طلابه والمحبون لسماع أحاديث النبي ﷺ، ومن أشهر تلاميذه الذين رحلوا إليه أبو عيسى الترمذي، ويحيى بن صاعد، وابن خزيمة وأبو بكر محمد بن النضر الجارودي وغيرهم، كما شغل وقته بالتأليف والتصنيف حتى إن الليلة التي توفي فيها كان مشغولا بتحقيق مسألة علمية عرضت له في مجلس مذاكرة، فنهض لبحثها وقضى ليله في البحث، لكنه لقي ربه قبل أن ينبلج الصباح في 25 من رجب 261 هـ - 6 من مايو 875م، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ودفن يوم الإثنين في مقبرته بنصر آباد في نيسابور.

كتابه الصحيح:

صنَّف الإمام مسلم كتبًا كثيرة، وأشهرها صحيحه الذي صنفه في خمس عشرة سنة، وقد تأسى في تدوينه بالبخاري رحمه الله فلم يضع فيه إلا ما صح عنده.

وقد جمع مسلم في صحيحه روايات الحديث الواحد في مكان واحد لا براز الفوائد الاسنادية في كتابه، ولذلك فإنه يروي الحديث في أنسب المواضع به ويجمع طرقه وأسانيده في ذلك الموضع، بخلاف البخاري فإنه فرق الروايات في مواضع مختلفة، فصنيع مسلم يجعل كتابه أسهل تناولاً، حيث تجد جميع طرق الحديث ومتونه في موضع واحد، وصنيع البخاري أكثر فقهًا؛ لأنه عنى ببيان الأحكام، واستنباط الفوائد والنكات، مما جعله يذكر كل رواية في الباب الذي يناسبها، ففرق روايات الحديث، ويرويه في كل موطن بإسناد جديد أيضا.

وكتاب صحيح مسلم مقسم إلى كتب، وكل كتاب يقسم إلى أبواب ، وعدد كتبه 54 كتابًا، أولها كتاب الإيمان وآخرها كتاب التفسير.

وعدد أحاديثه بدون المكرر نحو 4000 حديث ، وبالمكرر نحو 7275 حديثًا.

من شروح صحيح الإمام مسلم:

(1) المنهاج في شرح الجامع الصحيح للحسين بن الحجاج:

وهو شرح للإمام النووي الشافعي المتوفى سنة (676هـ)، وهو شرح وسط جمع عدة شروح سبقته ، ومن أشهر شروح صحيح مسلم.

(2) المعلم بفوائد كتاب صحيح مسلم: وهو شرح المازري أبي عبد الله محمد بن علي المتوفى سنة 536 هـ.

(3) إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم: وهو شرح للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي إمام المغرب المالكي المتوفى سنة (544هـ).

(4) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: شرح أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المتوفى سنة (611هـ).

(5) إكمال إكمال المعلم: وهو شرح الأبي المالكي وهو أبو عبد الله محمد بن خليفة من أهل تونس - والأبي نسبة إلى " أبة " من قرى تونس - المتوفى سنة (728هـ)، جمع في شرحه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي.

(7) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج: وهو شرح جلال الدين السيوطي المتوفى عام (911هـ).

(6) شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي المتوفى (926هـ).

(5) شرح الشيخ علي القاري الحنفي نزيل مكة المتوفى سنة (1016هـ) وشرحه في أربع مجلدات [1].

* * *

(1) الجرح والتعديل 8 / 182، 183، الفهرست : 286، تاريخ بغداد 13 / 100، 104، طبقات الحنابلة 1 / 337، 339، الأنساب، : 453 / ب، اللباب 3 / 38، جامع الأصول 1 / 187، تهذيب الأسماء واللغات: الجزء الثاني من القسم الأول، ص: 89، 92، وفيات الاعيان 5 / 194، 196، تذ هيب الكمال : 1323، 1324، تهذيب التهذيب 4 / 37 / 1، تذكرة الحفاظ 2 / 588، 590، العبر 2 / 23، تاريخ ابن كثير 11 / 33، 35، المنتظم 5 / 32، تهذيب التهذيب 10 / 126، 128، النجوم الزاهرة 3 / 33، طبقات الحفاظ: 260، خلاصة تذهيب الكمال: 375، شذرات الذهب 2 / 144، 145.

الليث بن سعد

أعـلام الحديـث

الإمام الحافظ الليث بن سعد

من أشهر الفقهاء في زمانه فاق في علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. إنه الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ولد بقرقشندة وهي قرية من أسفل أعمال مصر في سنة أربع وتسعين للهجرة.

طلبه للعلم:

تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبي رباح وابن أبى مليكة ونافعا العمري وسعيد بن أبي سعيد المقبري وابن شهاب الزهري وأبا الزبير المكي وغيرهم كثير.

وفي عدة روايات يصف الليث رحلاته في طلب العلم قال ابن بكير: سمعت الليث يقول: سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهري وأنا ابن عشرين سنة.

قال يحيى بن بكير: أخبرني من سمع الليث يقول: كتبت من علم ابن شهاب علما كثيرا، وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت ألاَّ يكون ذلك لله فتركته، ودخلت على نافع، فسألني فقلت: أنا مصري، فقال: ممن؟ قلت: من قيس، قال ابن كم: قلت: ابن عشرين سنة؟ قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين، قال أبو صالح: خرجت مع

الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا في شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال وقال لي الليث ونحن ببغداد سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام، ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك فلقيت هشيما فدفع إلي شيئا فكتبنا منه وسمعتها مع الليث.

مكانته العلمية:

يقول الحافظ أبو نعيم: كان الليث رحمه الله فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم بحيث إن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره ويرجعون إلى رأيه ومشورته ولقد أراده المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك.

لليث أحاديث كثيرة في كتب الصحاح، ومن الأحاديث التي رويت عن الليث ما رواه الترمذي قال: حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :"**قال يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا**".

قال أبو صالح: كان الليث يقرأ بالعراق من فوق على أصحاب الحديث والكتاب بيدي فإذا فرغ رميت به إليهم فنسخوه.

قال ابن سعد: كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه.

روى عبد الملك بن شعيب عن أبيه قال: قيل: لليث أمتع الله بك إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك، فقال: أو كل ما في صدري في كتبي لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: أصح الناس حديثا عن سعيد المقبري الليث بن سعد يفصل ما روي عن أبي هريرة وما روي عن أبيه عن أبي هريرة هو ثبت في حديثه جدا.

ومما يروى عنه أيضا عن الليث بن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما فيكم أحد على دين إبراهيم غيري، وكان يحيى الموؤدة يقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مه لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها.

ولليث أسانيد إلى أبي هريرة ومنها: عن الليث عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال:"**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة**".

مناقبه وفضائله:

قال ابن بكير: كان الليث فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر حسن المذاكرة.

روي عن شرحبيل بن جميل قال: أدركت الناس أيام هشام الخليفة وكان الليث بن سعد حدث السن وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة وإنهم يعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه عن حداثة سنة ثم قال ابن بكير: لم أر مثل الليث، وروى عبد الملك بن يحيى بن بكير عن أبيه قال: ما رأيت أحدا أكمل من الليث.

قال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائله فكفوا، وكان أهل حمص ينتقصون عليا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائل علي فكفوا عن ذلك، وروي عن حرملة يقول: كان الليث بن سعد يصل مالكا بمائة دينار في السنة فكتب مالك إليه علي دين فبعث إليه بخمس مائة دينار فسمعت ابن وهب يقول كتب مالك إلى الليث إني أريد أن أدخل بنتي على زوجها فأحب أن تبعث لي بشيء من عصفر فبعث إليه بثلاثين حملا عصفرا فباع منه بخمس مائة دينار وبقي عنده فضله، قال أبو داود: قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة وقال ما وجبت علي زكاة قط وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار وأعطى مالكا ألف دينار وأعطى منصور بن عمار الواعظ ألف دينار وجارية تساوى ثلاث مائة دينار.

قال صالح بن أحمد الهمذاني: قدم منصور بن عمار على الليث فوصله بألف دينار واحترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار ووصل مالكا بألف دينار وكساني قميص سندس فهو عندي.

وروي عن محمد بن رمح يقول: كان دخل الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه زكاة درهم قط،

وروي عن أشهب بن عبد العزيز يقول: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها أما أولها: فيجلس للسلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان فإذا أنكر من القاضي أمرا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث وكان يقول: نجحوا أصحاب الحوانيت، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه ويجلس لحوائج

الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت، وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر.

وروي عن يعقوب ابن داود وزير المهدي قال: قال أمير المؤمنين لما قدم الليث العراق ألزم هذا الشيخ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه.

وكان الليث بن سعد يقول: بلغت الثمانين وما نازعت صاحب هوى قط، ويعلق الحافظ أبو نعيم على قوله فيقول: كانت الأهواء والبدع خاملة في زمن الليث ومالك والأوزاعي والسنن ظاهرة عزيزة فأما في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عبيد فظهرت البدعة وامتحن أئمة الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة معهم فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسنة ثم كثر ذلك واحتج عليهم العلماء أيضا بالمعقول فطال الجدال واشتد النزاع وتولدت الشبة نسأل الله العافية.

قال بكر بن مضر: قدم علينا كتاب مروان بن محمد إلى حوثرة والى مصر إني قد بعثت إليكم أعرابيا بدويا فصيحا من حاله ومن حاله فأجمعوا له رجلا يسدده في القضاء ويصوبه في المنطق، فأجمع رأي الناس على الليث بن سعد، وفي الناس معلماه يزيد بن أبي حبيب، وعمرو بن الحارث، قال أحمد بن صالح: أعضلت الرشيد مسألة فجمع لها فقهاء الأرض حتى أشخص الليث فأخرجه منها.

ثناء العلماء عليه:

كان الإمام الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض.

وقال أحمد بن سعد الزهري: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الليث ثقة ثبت، وقال أيضا: الليث كثير العلم، صحيح الحديث

وقال عثمان الدارمي: سمعت يحيى بن معين يقول: الليث أحب إلي من يحيى بن أيوب ويحيى ثقة قلت فكيف حديثه عن نافع فقال صالح: ثقة.

وعن أحمد بن صالح وذكر الليث فقال: إمام قد أوجب الله علينا حقه لم يكن بالبلد بعد عمرو بن الحارث مثله.

قال ابن سعد: استقل الليث بالفتوى وكان ثقة كثير الحديث سريا من الرجال سخيا له ضيافة

وقال العجلي والنسائي: الليث ثقة.

وقال ابن خراش: صدوق صحيح الحديث.

وروي عن يحيى بن معين قال: هذه رسالة مالك إلى الليث حدثنا بها عبد الله بن صالح يقول فيها وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك.

وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك، ولكن الحظوة لمالك رحمه الله.

قال علي بن المديني: الليث ثبت.

قال العلاء بن كثير: الليث بن سعد سيدنا وإمامنا وعالمنا.

مواقف من حياته:

قال الحسن بن يوسف بن مليح سمعت أبا الحسن الخادم قال كنت غلاما لزبيدة (زوجة الرشيد) وأتي بالليث بن سعد تستفتيه فكنت واقفا على رأس ستي زبيدة خلف الستارة فسأله الرشيد فقال له حلفت إن لي جنتين فاستحلفه الليث ثلاثا إنك تخاف الله فحلف له فقال: قال الله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦] فأقطعه الرشيد قطائع كثيرة بمصر.

وروي عن الليث قال: قال لي أبو جعفر المنصور تلي لي مصر قلت لا يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك إني رجل من الموالي، فقال: ما بك ضعف معي ولكن ضعفت نيتك في العمل لي.

قال: وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث إن ابنا لي عليلاً واشتهى عسلا، فقال يا غلام أعطها مرطا من عسل، والمرط: عشرون ومائة رطل.

وعن الحارث بن مسكين قال: اشترى قوم من الليث ثمرة فاستغلوها فاستقالوا فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين دينارا فقال له ابنه الحارث في ذلك فقال: اللهم غفرا إنهم قد كانوا أملوا فيها أملا فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وروي عن الليث قال لما ودعت أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال أعجبني ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك قال شعيب: كان أبي يقول لا تخبروا بهذا ما دمت حيا.

قال يحيى بن بكير : قال الليث : قال لي المنصور تلي مصر؛ فاستعفيت قال أما إذا أبيت فدلني على رجل أقلده مصر قلت عثمان ابن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة. قال: فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث.

وروي عن سعيد الآدم قال : مررت بالليث بن سعد فتنحنح فرجعت إليه فقال لي: يا سعيد خذ هذا القنداق فاكتب لي فيه من يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلة . فقلت : جزاك الله خيرا يا أبا الحارث. وأخذت منه القنداق ثم صرت إلى المنزل فلما صليت أوقدت السراج وكتبت ، بسم الله الرحمن الرحيم ثم قلت فلان بن فلان ثم بدرتني نفسي. فقلت: فلان بن فلان . قال فبينا أنا على ذلك إذا أتاني آت فقال هالله يا سعيد تأتي إلى قوم عاملوا الله سرا فتكشفهم لآدمي ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله الذي عاملوه. فقمت ولم أكتب شيئا، فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فقال: ما الخبر فأخبرته بصدق عما كان فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الخلق فسألوه فقال ليس إلا خير ثم أقبل علي فقال: يا سعيد تبينتها وحرمتها صدقت ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله.

عن أبي صالح كاتب الليث قال: كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث فقلت ما يشبه هذا صاحبنا فسمعها مالك فأدخلنا وقال من صاحبكم قلت: الليث قال تشبهونا برجل كتبت إليه في قليل عصفر

نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار.

وفاته:

قال يحيى بن بكير وسعيد بن أبي مريم: مات الليث للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة، قال يحيى: يوم الجمعة وصلى عليه موسى بن عيسى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي: شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدي فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزي بعضهم بعضا ويبكون فقلت يا أبت كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة فقال يابني لا ترى مثله أبدا [1].

* * *

(1) المصدر: طبقات ابن سعد: 7 / 517، التاريخ لابن معين: 501، طبقات خليفة: 296. تاريخ خليفة: 449، التاريخ الكبير: 7 / 246، التاريخ الصغير: 2 / 209، المعارف لابن قتيبة: 505، 506، الجرح والتعديل: 7 / 179- 180، مشاهير علماء الأمصار: (1536): 191، مروج الذهب: 3 / 349، الحلية: 7 / 318، الفهرست: 1 / 199، تاريخ بغداد: 13 / 3، صفوة الصفوة: 4 / 281، وفيات الأعيان: 4 / 127- 132، تهذيب الكمال للمزي: 1152، تذكرة الحفاظ: 1 /224- 226، ميزان الاعتدال 3 / 423، العبر للذهبي: 1 / 266، صبح الأعشى: 2 / 399، تهذيب التهذيب: 8 / 459، النجوم الزاهرة: 2 / 82، الجواهر المضيئة: 1 / 266، شذرات الذهب: 1 / 285.

الإمام الذهبي

أعلام الحديث

الإمام الحافظ الذهبي

هو الشيخ الإمام الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، شيخ المحدثين، محدث العصر، وخاتمة الحفاظ، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي ثم الدمشقي، الشافعي، المقرئ.

يرجع الذهبي إلى أصول تركمانية، فهو من أسرة تركمانية الأصل، سكنت مدينة مَيَّافارقين من أشهر مدن ديار بكر، ويرجع في ولائه[1] إلى بني تميم.

ولد الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة، في مدينة دمشق، وعاش في أجواء أسرة متدينة متعلمة ميسورة الحال، الأمر الذي ساعده على التحصيل العلمي منذ نعومة أظفاره، فمن جهة والده، كان والده شهاب الدين أحمد بن عثمان قد طلب العلم، وسمع الصحيح من المقداد القيسي سنة (666هـ)، وقد ترجم له الذهبي في معجم شيوخه، وقد توفي والده سنة (697هـ)، وكذلك استفاد الذهبي من عمته ست الأهل بنت عثمان بن قايماز، وهي أمه من الرضاعة، وكان قد أجاز لها ابن أبي اليسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن

(1) المقصود بالولاء هنا:
أ - ولاء عتق: وهو الغالب بحيث ينسب إلى من أعتقه.
ب - وإما أن يكون ولاء إسلام: وذلك بأن يسلم العجمي على يد العربي.
ج - وإما أن يكون ولاء حلف: وذلك بأن يكون الشخص حليفاً لقبيلة فينسب إليها. انظر: المنهل الراوي من تقريب النواوي (ص199- 200).

عمر الزرعي، وجماعة. وسمعت من عمر بن القواس وغيره.

فروى الذهبي عنها، وكانت وفاتها سنة (729هـ).

وأما من جهة والدته: فإنها ابنة علم الدين، أبو بكر سنجر بن عبد الله الموصلي، فقد كان خيراً، عاقلاً، مديراً للمناشير بديوان الجيش، مات سنة (680هـ).

ولما كان الذهبي من أسرة متدينة متعلمة، ميسورة الحال، فقد دفعت به إلى كتاتيب تعليم القرآن في صغره، وفرغته بعد ذلك لطلب العلم وتحصيله من ريعان شبابه، بدلاً من الانشغال في تحصيل قوته وطلب رزقه. ولم يكن يكدر صفو هذه النعمة إلا امتناع والده عن السماح له بالرحلة في طلب العلم إلا في رحلات قصيرة لا تتجاوز أربعة أشهر، وذلك لخوفه عليه وشدة تعلقه به.

و العامل الثاني الذي أثر في نشأة الذهبي، فهو بلده دمشق التي كانت تجمع في ذلك العصر شموس العلم من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ المزي وغيرهما، فقد حظي الذهبي برفقة هؤلاء والإفادة منهم، وأضف إلى ذلك اشتهار دمشق في ذلك الحين بكبريات دور الحديث، كدار الحديث الظاهرية، ودار الحديث السكرية، ودار الحديث الأشرفية، وغيرها. فقد كانت دمشق في ذلك العصر مركز إشعاع علمي وخاصة في علوم الحديث.

وقد بدأ الذهبي بدايته العلمية بحفظ كتاب الله تعالى، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة، وذلك على يد أحد المؤدبين، واسمه علاء الدين علي ابن محمد الحلبي، المعروف بالبصبص، حيث أقام الذهبي في مَكْتَبِه أربعة أعوام.

ثم انتقل الذهبي بعدها إلى الشيخ مسعود بن عبد الله الأغزازي، فلقنه جميع القرآن، ثم قرأ عليه نحو من أربعين ختمة.

تلك هي بواكير دراسته، والتي تبعها بعد ذلك جلوسه في مجالس الشيوخ، وذلك ببلوغ سن الثامنة عشرة، حيث تعتبر هذه السن عند الذهبي بداية مرحلة العناية بطلب العلم، وقد ركز في تلك المرحلة على علمين شريفين عظيمين هما:

علم القراءات ، وعلم الحديث، فلازم كبار علماء القراءات في عصره، حتى أصبح متقناً لهذا الفن وأصوله ومسائله، مما حذا بالشيخ محمد بن عبد العزيز الدمياطي - وهو من المقرئين المجودين - أن يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي، عقب مرض الشيخ، الذي توفي على إثره سنة (693هـ).

إلا أن الذهبي لم يستمر في ذلك المنصب إلا قرابة السنة بسبب انشغاله بالرحلة إلى طلب العلم.

وأما علم الحديث، فقد كان له النصيب الأوفر عند الذهبي، حيث اعتنى به العناية الفائقة حتى أصبح هذا العلم هو شغله الشاغل طيلة حياته، فقد سمع الذهبي مئات الكتب والأجزاء الحديثية.

ومع عناية الذهبي بعلمي القراءات والحديث في تلك المرحلة، إلا أنه لم يهمل علوم العربية والأدب والتاريخ، فقد عني بدراسة النحو، فسمع " الحاجبية " على شيخه موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء - النصيبي المتوفى سنة (695هـ).

كما دَرَسَ على شيخ العربية، وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك، الشيخ محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي المتوفى سنة (698هـ).

" إضافة إلى سماعه لعدد كبير من مجاميع الشعر واللغة والأدب "، وقد تعاطى الشعر، ونظم اليسير منه.

" واهتم بالكتب التاريخية، فسمع عدداً كبيراً منها على شيوخه، في المغازي، والسيرة، والتاريخ العام، ومعجمات الشيوخ والمشيخات، وكتب التراجم الأخرى ".

وفي العموم فقد اعتنى الذهبي في فترة تحصيله بشتى العلوم الدينية مع ما تحتاجه تلك العلوم من علوم الآلة ونحوها من العلوم المساعدة مع أنه لم ينقطع عن التحصيل والسماع طوال حياته، يشهد لذلك معجمات شيوخه ومؤلفاته الموسوعية التي تؤكد دراسته لعدد ضخم من المؤلفات في العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، واللغة، والأدب، وغيرها.

وقد انعكس هذا التحصيل الواسع على مؤلفاته التي تشهد له بسعة الاطلاع وغزارة الإنتاج مع القوة والتمكن في مختلف العلوم.

ومن أشهر كتبه في علوم الحديث " ميزان الاعتدال في نقد الرجال ".

وأما علم التاريخ والتراجم:

فالذهبي صاحب الموسوعات الكبار في هذا المجال، والتي أهمها " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "، و" سير أعلام النبلاء "، و" العبر "، و" دول الإسلام "، و" تذكرة الحفاظ "، وغيرها كثير، وقد أظهر الذهبي في تلك المؤلفات براعة في العرض، ودقة في التحليل والنقد، مع غزارة في المعلومات، تشهد له بالذكاء والعبقرية وقوة الحافظة، لدرجة

أن ابن حجر - مع فضله وجلالة قدره - شرب ماء زمزم سائلاً الله أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ والفطنة.

وقد عول الكتاب والعلماء على مؤلفاته، وأصبحت عمدة لهم فيما كتبوا وألفوا من بعده. وقد عد الذهبي والمزي أكبر المؤرخين في القرن الثامن.

وقد عُرف الذهبي - رحمه الله - بمواقفه التي تدعو إلى التمسك بعقيدة السلف الصالح علماً واعتقاداً وعملاً ودعوة وتعليماً، ويظهر ذلك جلياً لمن اطلع على مصنفاته سواء ما يتعلق منها بمسائل الاعتقاد مثل كتاب " العلو "، وكتاب " العرش "، وكتاب " الأربعين في صفات رب العالمين "، ورسالة " التمسك بالسنن والتحذير من البدع وغيرها "، أو كتبه الأخرى في علوم الحديث وغيرها.

فقد سطر الذهبي ببراعه معتقد السلف وأثبته في تلك الكتب، ونافح ودافع عن عقيدة أهل السنة وأثنى على أهلها بما يستحقونه من الأوصاف، كما أبرز جهودهم العلمية والعملية في نشر السنة ونصرتها، وفي الوقت ذاته سلط قلمه على أهل البدع والأهواء، فما يمر على صاحب بدعة إلا ويشير إلى بدعته، ويبين وجه انحرافه، وقول أهل السنة فيه وفي بدعته، وإن كان في بعض الأحيان يوجد في كلامه بعض التساهل مع بعض المبتدعة لكنه قليل ومحدود.

والحقيقة التي يجب الإشارة إليها والإشادة بها في هذا المقام، أن الذهبي قام رحمه الله على ثغرة عظيمة، هي علم الرجال والتراجم، فاعتنى بها واهتم بأمرها اهتماماً كبيراً،

حتى أصبحت محور تفكيره ، وأساس كثير من كتبه، فقام بخدمة هذا الجانب خير قيام، وذلك وفق منهج أهل السنة والجماعة، على غرار ما فعل شيخه وصاحبه شيخ الإسلام ابن تيمية في خدمة مسائل الاعتقاد والرد على أصحاب المقالات، فكل من الإمامين قام على ثغرة، وقام بأكبر خدمة.

فقد شوه أصحاب البدع وأرباب المقالات حقائق التاريخ وسير العلماء بما دسوا فيها من الأكاذيب والأباطيل، كما فعلوا في مسائل الاعتقاد الأمر ذاته.

فتصدى الذهبي - رحمه الله تعالى - للجانب التاريخي فوضع الأمور في نصابها ، وأوضح بجلاء سير أعلام السنة على وجهها الصحيح وحلاها بأجمل الحلل وكساها أبهى العبارات.

وقام في الوقت ذاته بفضح أهل البدع والأهواء وكشف باطلهم، الأمر الذي أثار حفيظة أهل البدع والأهواء ونقمتهم على كتب الإمام الذهبي لما لها من ثقل ، ووزن في فنها، فهي تعد غصة في حلوق أهل الكلام والمتصوفة والرافضة ومن على شاكلتهم، لكونها كشفت عورات زعمائهم وأظهرت بطلان عقائدهم.

وكان الذهبي معروفاً في حياته بمواقفه الصلبة من العقائد المنحرفة وأهلها، كما اشتهر عنه صلته الوثيقة وموافقته لشيخ الإسلام ابن تيمية في نصرة السنة ومحاربة البدعة، الأمر الذي جعل الأشاعرة من الشافعية بدمشق يمانعون في توليه لمشيخة أكبر دار للحديث بدمشق حينذاك، وهي دار الحديث الأشرفية، التي شغرت

مشيختها بعد وفاة رفيقه المزي سنة (742هـ)، رغم ترشيح قاضي القضاة علي بن عبد الكافي السبكي أن يعين الذهبي لها، وكان السبب في رفضهم كون الذهبي ليس بأشعري.

ومعلوم أن الصراع كان على أشده في ذلك الحين بدمشق بين أنصار المنهج السلفي وخصومهم من أهل الكلام والمتصوفة.

ولكن مع ذلك كله، فاللذهبي بعض المواقف المخالفة في المسائل المتعلقة بالقبور وتعظيمها لا يُقر عليها ولا يُوافق.

واشتهر الذهبي بكثرة التصنيف حتى قال عنه ابن حجر: " كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ".

وقد اجتهد الدكتور بشار عواد في جمع أسماء مؤلفات الذهبي في كتابه " الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام "، وقد بلغ مجموع ما سمى من مؤلفاته (215) مؤلفاً. ونظراً لكثرتها فإني سوف نكتفي بذكر أسمائها:

مؤلفاته:

أولاً: القراءات:

1 -التلويحات في علم القراءآت.

ثانيًا: الحديث:

2- الأربعون البلدانية.

3- الثلاثون البلدانية.

4- طرق حديث ” من كنت مولاه فعلي مولاه ”.

5- الكلام على حديث الطير.

6- المستدرك على مستدرك الحاكم.

ثالثًا: مصطلح الحديث وآدابه:

7- كتاب الزيادة المضطربة.

8- طريق أحاديث النزول.

9- العذب السلسل في الحديث المسلسل.

10- منية الطالب لا عز المطالب.

11- الموقظة في علم مصطلح الحديث (باريس: 4577).

رابعًا: العقائد:

12- أحاديث الصفات.

13- الأربعين في صفات رب العالمين.

14- جزء في الشفاعة.

15- جزءان في صفة النار.

16- الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية.

17- الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال.

18- رؤية الباري.

19- العرش.

20- العلو للعلي الغفار.

21- الكبائر.

22- ما بعد الموت.

23- مسألة دوام النار.

24- مسألة الغيبة.

25- مسألة الوعيد.

خامسًا: أصول الفقه:

26- مسألة الاجتهاد.

27- مسألة خبر الواحد.

سادسًا: الفقه:

28- تحريم أدبار النساء.

29- تشبيه الخسيس بأهل الخميس.

30- جزء في الخضاب.

31- جزء من صلاة التسبيح.

32- جزء في القهقهة.

33- حقوق الجار.

34- فضائل الحج وأفعاله.

35- اللباس.

36- مسألة السماع.

37- الوتر.

سابعًا: الرقائق:

38- جزء في محبة الصالحين.

39- دعاء المكروب.

40- ذكر الولدان.

41- التعزية الحسنة بالأعزة.

42- كشف الكربة عند فقد الأحبة.

ثامنًا: التاريخ والتراجم:

43- أخبار السد.

44- أخبار قضاة دمشق.

45- أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع.

46- الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام.

47- الإعلام بوفيات الأعلام.

48- الأمصار ذوات الآثار.

49- أهل المئة فصاعدا

50- البيان عن اسم ابن فلان.

51- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.

52- التاريخ الممتع.

53- تذكرة الحفاظ.

54- تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق.

55- تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري.

56- تقييد المهمل.

57- التلويح بمن سبق ولحق.

58- جزء أربعة تعاصروا.

59- دول الإسلام.

60- ديوان الضعفاء والمتروكين.

61- ذكر من اشتهر بكنيته من الأعيان.

62- ذكر من يؤتمن قوله في الجرح والتعديل.

63- ذيل الإشارة إلى وفيات الأعيان.

64- ذيل دول الإسلام.

65- ذيل سير أعلام النبلاء.

66- ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين.

67- ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

68- الذيل على ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

69- ذيل العبر في خبر من عبر.

70- الرد على ابن القطان.

71- الزلازل.

72- سير أعلام النبلاء.

73- طبقات الشيوخ.

74- العباب في التاريخ.

75- العبر في خبر من غبر.

76- عنوان السير في ذكر الصحابة.

77- القبان (في أصحاب التقي ابن تيمية).

78- المجرد في أسماء رجال كتب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجه سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين.

69- المرتجل في الكنى.

80- المشتبه في الرجال: أسماؤهم وأنسابهم.

81- معجم الشيوخ الكبير.

83- المعجم الصغير (اللطيف).

84- المعجم المختص بمحدثي العصر.

85- معرفة آل مندة.

86- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار.

87- المعين في طبقات المحدثين.

88- المغني في الضعفاء.

89- المقدمة ذات النقاط في الألقاب.

90- من تكلم فيه وهو موثق.

91- الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم.

92- ميزان الاعتدال في نقد الرجال.

93- هالة البدر في عدد أهل بدر.

تاسعًا: السير والتراجم المفردة:

94- أخبار أبي مسلم الخراساني.

95- أخبار أم المؤمنين عائشة.

96- التبيان في مناقب عثمان.

97- ترجمة ابن عقدة الكوفي.

98- ترجمة أبي حنيفة.

99- ترجمة أبي يوسف القاضي.

100- ترجمة أحمد بن حنبل.

101- ترجمة الخضر.

102- ترجمة السلفي (1).

103- ترجمة الشافعي.

104- ترجمة الشيخ الموفق.

105- ترجمة مالك بن أنس.

106- ترجمة محمد بن الحسن الشيباني.

107- توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق.

108- الدرة اليتيمية في سيرة التيمية.

109- الزخرف القصري (في ترجمة الحسن البصري).

110- سيرة الحلاج.

111- سيرة أبي القاسم الطبراني.

112- سيرة سعيد بن المسيب.

113- سيرة عمر بن عبد العزيز.

114- السيرة النبوية (وهي في تاريخ الإسلام).

115- فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب.

116- قض نهارك بأخبار ابن المبارك.

117- مناقب البخاري.

118- نعم السمر في سيرة عمر.

119- نفض الجعبة في أخبار شعبة.

120- سيرة لنفسه.

عاشرًا: المنوعات:

121- بيان زغل العلم والطلب.

122- التمسك بالسنن.

123- جزء في فضل آية الكرسي.

124- الطب النبوي (وينسب لغيره أيضا).

125- كسر وثن رتن.

أحد عشر: المختصرات والمنتقيات:

126- أحاديث مختارة من الموضاعات من " الأباطيل " للجورقاني.

127- بلبل الروض.

128- تجريد أسماء الصحابة. اختصره من " أسد الغابة " لابن الأثير المتوفى سنة 630 هـ.

129- تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال.

130- ترتيب " الموضوعات " لابن الجوزي.

131- تلخيص " العلل المتناهية في الأحاديث الواهية " لابن الجوزي.

132- تنقيح كتاب " التحقيق في أحاديث التعليق " لابن الجوزي.

133- تهذيب تاريخ علم الدين البرازلي.

134- ذكر الجهر بالبسملة مختصرا. اختصره من تصنيف في هذا الموضوع للخطيب البغدادي المتوفى سنة 463 هـ.

135- الرخصة في الغناء والطرب بشرطه. اختصره من كتاب " السماع " للادفوي المتوفى سنة 748 هـ.

136- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة. اختصره من " تهذيب الكمال " لشيخه ورفيقه المزي المتوفى سنة 742 هـ.

137- المجرد من " تهذيب الكمال ".

138- مختصر " إنباه الرواة على أنباه النحاة " لابن القفطي.

139- مختصر " الأنساب " لابي سعد السمعاني.

140- مختصر " البعث والنشور " للبيهقي.

141- مختصر " تاريخ بغداد " للخطيب البغدادي.

142- مختصر " تاريخ دمشق " لابن عساكر.

143- مختصر " تاريخ مصر " لابن يونس.

144- مختصر " تاريخ نيسابور " لأبي عبد الله الحاكم.

145- مختصر " تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف " للمزي.

146- مختصر " تقويم البلدان " لأبي الفدا.

147- مختصر " التكملة لكتاب الصلة " لابن الأبار.

148- مختصر " التكملة لوفيات النقلة " للمنذري.

149- مختصر " جامع بيان العلم وفضله " لابن عبد البر.

150- مختصر " الجهاد " لبهاء الدين ابن عساكر.

151- مختصر " ذيل تاريخ بغداد " لأبي سعد السمعاني.

152- مختصر " الرد على ابن طاهر " لابن المجد.

153- مختصر " الروضتين في أخبار الدولتين " وذيله لأبي شامة.

154- مختصر " الزهد " للبيهقي.

155- مختصر " سلاح المؤمن في الأدعية المأثورة " لابن الإمام.

156- مختصر " صلة التكملة لوفيات النقلة " لعز الدين الحسيني.

157- مختصر " الضعفاء " لابن الجوزي.

158- مختصر " الفاروق في الصفات " لشيخ الإسلام الأنصاري.

159- مختصر " القدر " للبيهقي.

160- المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن الدبيثي.

161- مختصر " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.

162- مختصر " المستدرك على الصحيحين " لأبي عبد الله الحاكم.

163- مختصر " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " للمراكشي.

164- مختصر " مناقب سفيان الثوري " لابن الجوزي.

165- مختصر " وفيات الأعيان " لابن خلكان.

166- مختصر " الوهم والايهم الواقعين في كتاب الأحكام " لابن القطان.

167- المستحلى في اختصار " المحلى " لابن حزم.

168- معرفة التابعين من " الثقات " لابن حبان.

169- المقتضب من " تهذيب الكمال " للمزي.

170- المقتنى في سرد الكنى. اختصره من كتاب " الكنى " لأبي أحمد الحاكم المتوفى سنة 378).

171- المنتخب من " التاريخ المجدد لمدينة السلام " لابن النجار البغدادي.

172- منتقى " الاستيعاب في معرفة الأصحاب "، لابن عبد البر.

173- المنتقى من تاريخ أبي الفدا.

174- المنتقى من " تاريخ خوارزم " لابن أرسلان الخوارزمي.

175- المنتقى من " مسند " أبي عوانة.

176- المنتقى من " مسند " عبد بن حميد.

177- المنتقى من " معجم شيوخ " يوسف بن خليل الدمشقي.

178- المنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند

المقلين لدعلج.

179- المنتقى من " معرفة الصحابة " لابن مندة.

180- مهذب " السنن الكبرى " للبيهقي.

182- نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري.

183- النبلاء في شيوخ السنة. اختصره من كتاب " المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الآئمة النبل " لابن عساكر.

اثنا عشر: التخاريج:

قام الذهبي بتخريج عدد كبير من معجمات الشيوخ والمشيخات والأربعينات والأجزاء الحديثة الكبيرة والصغيرة، منها:

أ - معجمات الشيوخ:

184 معجم شيوخ ابن البالسي المتوفى سنة 711 هـ.

185- معجم شيوخ ابن حبيب الدمشقي المتوفى سنة 779 هـ.

186- معجم شيوخ علاء الدين ابن العطار الدمشقي المتوفى سنة 724 هـ.

187- المعجم العلي للقاضي الحنبلي (أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي المتوفى سنة 715 هـ).

ب - المشيخات:

188- مشيخة التلي (محمد بن أحمد الصالحي الخياط المتوفى سنة 741 هـ).

189- مشيخة الجعبري المتوفى سنة 706 هـ.

190- مشيخة ابن الزراد الحريري المتوفى سنة 726 هـ.

191- مشيخة عز الدين المقدسي المتوفى سنة 700 هـ.

192- مشيخة ابن القواس المتوفى سنة 698 هـ.

193- مشيخة زين الدين الكحال المتوفى سنة 730 هـ.

ج - الأربعينات:

194- أربعون حديثا بلدانية من " المعجم الصغير " للطبراني.

195- أربعون حديثا بلدانية من " معجم " ابن جميع الصيداوي.

196- أربعون حديثا بلدانية من " معجم شيوخ " أبي بكر المقدسي المتوفى سنة 718 هـ.

197- أربعون حديثا بلدانية من " معجم شيوخ " ابن زاذان المتوفى سنة 481 هـ.

198- أربعون حديثا لأبي المعالي الأبرقوهي المتوفى سنة 701 هـ.

199- أربعون حديثا لابنه أبي هريرة عبد الرحمان المتوفى سنة 799 هـ.

د - الثلاثينات:

200- ثلاثون حديثا من " المعجم الصغير " للطبراني.

هـ - العوالي:

201- عوالي الشمس ابن الواسطي المتوفى سنة 699 هـ.

202- عوالي الطاوسي المتوفى سنة 704 هـ.

203- عوالي أبي عبد الله ابن اليونيني المتوفى سنة 747 هـ.

204- العوالي من حديث مالك بن أنس.

205- العوالي المنتقاة من حديث الذهبي.

و - الأجزاء:

206- الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار.

207- جزء من حديث القزويني المتوفى سنة 704 هـ.

208- جزء من حديث أبي بكر المرسي المتوفى سنة 718 هـ.

209- جزء من حديث ابن المحب المقدسي المتوفى سنة 730 هـ.

210- جزء من حديث ابن الكويك المتوفى سنة 734 هـ.

211- جزء من حديث أمين الدين الواني المتوفى سنة 735 هـ.

212- جزء من حديث ابن جماعة الكناني المتوفى سنة 767 هـ.

213- أحاديث " مختصر " ابن الحاجب المتوفى سنة 646 هـ.

214- ثلاثيات ابن ماجة.

215- المنتقى من حديث تقي الدين بن الشيخ شمس الدين بن المجد البعلي.

وتوفي الذهبي - رحمه الله تعالى - قبل منتصف ليلة الاثنين، ثالث ذي القعدة، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكان قد بلغ من العمر حينذاك خمسة وسبعين عاماً وسبعة أشهر.

وفاته:

وكانت وفاته بدمشق، ودفن - رحمه الله ، بمقبرة الباب الصغير، وحضر الصلاة عليه جملة من العلماء، وكان - رحمه الله قد كف بصره قبل موته بسبع سنين. قال تلميذه الحسيني: " أضر في سنة إحدى وأربعين، ومات في ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بدمشق، ودفن في مقبرة الباب

الصغير - رحمه الله تعالى " [1].

* * *

(1) مصادر ترجمة الإمام الذهبي: الوافي بالوفيات للصفدي (163/2). البداية لابن كثير (225/14). شذرات الذهب لابن العماد (153/6). طبقات الحفاظ للسيوطي (ص517). طبقات الشافعية الكبرى (100/9، ترجمة رقم 1306). الدرر الكامنة لابن حجر (426/3). البدر الطالع للشوكاني (110/2). غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (71/2). النجوم الزاهرة (182/10). نكت الهميان للصفدي (ص 241). ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص34، 347). الرد الوافر لابن ناصر الدين (ص31- 32). رونق الألفاظ لسبط ابن حجر (ق 180). مقدمة سير أعلام النبلاء لبشار عواد (7/1- 146). الذهبي ومنهجه في كتابه التاريخ لبشار عواد.
طبقات الشافعية للأسنوي (558/1، ترجمة رقم 514). الدارس في أخبار المدارس (78/1). وفيات الأعيان (370/2، ترجمة رقم 391). الدليل الشافي على المنهل الصافي (591/2، ترجمة رقم 2029). هدية العارفين (289/8). الأعلام (222/6). معجم المؤلفين (289/8).، كتاب العرش، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط الثانية، 1424هـ/2003م، مقدمة كتاب سير أعلام النبلاء طبعة دار الرسالة، تحقيق شعيب الأرنأوط. مقدمة كتاب الكبائر، تحقيق عبد المحسن قاسم البزاز، ط دار الصابوني، 1407 هـ / 1987 م.

الامام أبو داو د

أعـلام الحديـث

الإمام أبو داود

هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني [(1)]، أحد من رحل وطوف، وجمع وصنف، وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين.

ولد أبو داود في مطلع القرن الثالث الهجري وتوفي في أواخره.

والقرن الثالث، هو العصر العلمي الذهبي في تاريخنا كله، وقد أتيح لأبي داود - رحمه الله - أن يشهد نضج الحضارة الإسلامية في هذا القرن، كما أتيح له أن يعيش هذا العصر الذي ازدحم بالعبقريات والموهوبين الأفذاذ في شتى شؤون الفكر.

ويكفينا للدلالة على ذلك أن نذكر من أعلام هذا القرن الأسماء الآتية:

ففي الحديث: كان البخاري ومسلم ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل والترمذي والنسائي. وفي الفقه: كان الربيع والمزني صاحبا الشافعي وداود الظاهري وغيرهم. وفي الشعر: كان علي بن الجهم وابن الرومي والبحتري وابن المعتز. وفي العلم بالأدب: كان المبرد وابن قتيبة والجاحظ وثعلب والفراء، وغيرهم كثير. وهكذا..

ولا شك في أن أبا داود كان واحدًا من هؤلاء العمالقة الأفذاذ في

(1) والسجستاني: نسبة إلى بلد ة سجستان، وقد ذكرت الكتب الجغرافية أنها تقع في القسم الجنوبي من بلاد أفغانستان الحالية.

هذا العصر. وكانت الحضارة قد بدأت تؤتي ثمارها وتنضج نضجا رائعا ترك أطيب الأثر في حياة المسلمين والدنيا كلها.

ولد أبو داود وتلقى العلم على علماء بلده، ثم ارتحل وطوف بالبلاد في طلب العلم، وتحصيل الرواية، فزار العراق والجزيرة والشام ومصر، وكتب عن علماء هذه البلاد جميعا.

قال الخطيب: (وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين) [1].

وليس من شك في أن هذه الرحلات قد وسعت من أفقه وأطلعته على ألوان الثقافة في عصره في كل أنحاء العالم الإسلامي.

وكان أبو داود أحد حفاظ الإسلام، وكان من أوسع العلماء معرفة بحديث رسول الله ﷺ وفقهه وعلله ومتونه ورجاله.

ويبدو أن علماء عصره كانوا يعرفون مكانته العلمية الكبرى ويقدرونه حق قدره؛ وكان علمه متعدد الجوانب، فهو - مع تخصصه في الحديث - فقيه عظيم، وقد عده الشيخ أبو الحسن الشيرازي في طبقات الفقهاء من جملة أصحاب أحمد بن حنبل، وكذا أبو يعلى في.

وأبو داود ناقد كبير، وليس هذا غريبا على إمام من أئمة الحديث، لأن هذا العلم يربي في أتباعه حاسة النقد، وقد استطاع أن يبلغ مستوى راقيا من رهافة الحس ودقة النقد.

(1) تاريخ بغداد، 9 / 55، محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 271.

وقد أثني عليه كثير من العلماء والمحدثين والفقهاء الذين عاصروه ومن جاؤوا بعده:

فقد قال عنه أبو بكر الخلال [1]: أبو داود سليمان بن الأشعث، الإمام المقدم في زمانه رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم، وبصره بمواضعها أحد في زمانه، رجل ورع مقدم [2].

وقال أحمد بن محمد بن ياسين الهروي: سليمان بن الأشعث أبو داود السجزي، كان أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله وعلمه وعلله وسنده، في أعلى درجة النسك والعفاف والصلاح والورع، كان من فرسان الحديث [3].

وقال إبراهيم الحربي: ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود النبي عليه السلام الحديد [4].

وقال موسى بن هارون الحافظ: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة. ما رأيت أفضل منه [5].

(1) هو أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الحنبلي له كتب كثيرة وقد جمع علم أحمد توفي سنة 311 هـ، انظر: تذكرة الحفاظ، 785، المنهج الأحمد 2 / 5، طبقات الحنابلة 2 / 12، البداية النهاية، 11 / 148.

(2) تاريخ بغداد، 9 / 57، تهذيب التهذيب، 4 / 172، تهذيب ابن عساكر، 6 / 244، محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 271.

(3) تاريخ بغداد، 9 / 57، مختصر المنذري، 1 / 7 و، تهذيب التهذيب، 4 /172، تهذيب ابن عساكر، 6 / 244، محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 271.

(4) البداية والنهاية ، 11 / 55، طبقات الشافعية، 2 / 293، تذكرة الحفاظ، 591، تهذيب التهذيب، 4 / 172، مختصر المنذري، 1 / 5، معالم السنن، 1 / 12، المنهج الأحمد، 1 / 175، محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 271.

(5) طبقات الشافعية، 2 / 293، تهذيب التهذيب، 4 / 172، تهذيب ابن عساكر،

وقال علان بن عبد الصمد: كان من فرسان هذا الشأن.

- وقال أبو حاتم بن حبان: كان أحد آئمة الدنيا فقها وعلما وحفظا نسكا وورعا وإتقانا، جمع وصنف وذب عن السنن.

قال أبو عبد الله بن منده: الذين أخرجوا وميزوا الثابت من المعلول والخطأ من الصواب أربعة: البخاري ومسلم، وبعدهما أبو داود والنسائي.

وقال الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة.

قال محمد بن مخلد: كان أبو داود يفي بمذاكرة مائة ألف حديث وأقر له أهل زمانه بالحفظ.

وقال ابن ماكولا: هو إمام مشهور.

وكان إبراهيم الأصبهاني، وأبو بكر بن صدقة يرفعان من قدره بما لا يذكران أحدًا في زمانه مثله.

قال الذهبي: وبلغنا أن أبا داود كان من العلماء حتى إن بعض الآئمة قال: كان أبو داود يشبه بأحمد بن حنبل في هديه ودله وسمته، وكان أحمد يشبه في ذلك بوكيع، وكان وكيع يشبه في ذلك بسفيان، وسفيان بمنصور، ومنصور بإبراهيم، وإبراهيم بعلقمة، وعلقمة بعبد الله بن مسعود. وقال علقمة: كان ابن مسعود يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودله.

ولم يرض السبكي في " طبقاته " أن يمضي بالسلسلة إلى نهايتها، بل اختار الوقوف عند ابن مسعود.

6 / 244، محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 271.

ونقل ابن العماد عن الذهبي أيضا قوله في أبي داود: كان رأسا في الحديث، رأسا في الفقه، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع حتى إن كان يشبه بأحمد.

وقال ابن الجوزي: كان عالما، حافظا، عارفا بعلل الحديث، ذا عفاف وورع، وكان يشبه بأحمد بن حنبل [1].

وقد تلقي أبو داود العلم عن عدد من أعلام الحديث والفقه أمثال: أحمد بن حنبل الذي تكرر ذكره كثيرًا في أخبار أبي داود، وقد اتصل به ورافقه، وعرض عليه " سننه " فاستجادها، وكان يسأله أبو داود كثيرًا عن أمور الدين وشؤون الحديث، وقد بلغ من اهتمام أبي داود بأجوبة شيخه أحمد : أن ألَّف كتابا جمع فيه الأسئلة التي ألقيت على الإمام أحمد وأجوبته عليها ويظهر أن إعجابه البالغ بأحمد وحبه الكبير له كان يحمله على أن يتشبه به حتى رأينا بعض العلماء يذكر تشبهه بأحمد، وهذا مشاهد عند الطلبة المعجبين بأستاذهم، فتراهم يقلدونه حتى في نبرات صوته وسلوكه، مظهره.

من أساتذته أيضا: يحيى بن معين، وعثمان بن أبي شيبة، وإسحاق ابن راهويه، وأبو عمرو الحوضي، ومسلم بن إبراهيم، وسليمان بن حرب، وأبو الوليد الطيالسي، وموسى بن إسماعيل المنقري التبوذكي، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وهناد بن السري، ومخلد بن خالد، وقتيبة ابن سعيد، ومسدد بن مسرهد، ومحمد بن بشار، وزهير بن حرب، ومحمد بن المثنى، وعمرو بن محمد الناقد، وسعيد بن منصور، وحميد ابن مسعدة، وحفص بن عمر وهو أبو عمر

(1) محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 272.

الضرير، وتميم بن المنتصر، وحامد بن يحيى، وإسحاق بن إسماعيل الطالقاني.

وليس غريبا أن يكون عدد من أساتذته عمالقة علماء أفذاذا لأن طبيعة العصر الذي كان فيه أبو داود تقتضي أن يكون هناك نماذج من هذا النوع وكثرة الأساتذة أمر معروف معهود في تاريخنا الفكري.

وروى عنه خلق كثير من العلماء الآئمة؛ نذكر المشهورين منهم، من أمثال الإمام أحمد بن حنبل الذي روى عنه حديثا واحدًا كان أبو داود يعتز بذلك جدا.

ومنهم الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، والإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، والإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال، ومنهم إسماعيل بن محمد الصفار، وأبو بكر بن داود الأصفهاني، وحرب بن إسماعيل الكرماني، وأبو عوانة ا لإسفراييني، وزكريا الساجي، وأبو بشر محمد بن أحمد الدولابي، ومحمد بن نصر المروزي، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي، وأبو بكر محمد بن بكر بن عبد الرازق بن داسة التمار، وأبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي، وأبو الحسن علي ابن الحسن بن العبد الأنصاري، وأبو أسامة محمد بن عبد الملك الرؤاسي.

وأبو سالم محمد بن سعيد الجلودي، وأبو عمرو أحمد بن علي بن الحسن البصري [1].

(1) محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 273.

والحقيقة أن أبو داود كان يتمتع بمنزلة اجتماعية مرموقة، وقد اكتسب شهرة قليلة النظير، وشاع كتابه في حياته، وكان الطلبة يؤمون منزله من كل مكان.

وكانت له مخالطة طيبة للعلماء في كل الأمصار، كما كانت له صلة قائمة على الاحترام مع الحكام، وليس أدل علي ذلك من أن يقوم رجل الدولة الأول الخليفة العباسي الموفق بزيارته وأن يطلب منه ما يطلب لعمارة البصرة كما أشرنا، وكان متزوجا وله أولاد من أشهرهم ابنه عبد الله.

ويبدو أنه كان حريصا أشد الحرص على أن يطلب أولاده العلم في وقت مبكر، ولذلك فقد كان يأخذهم معه ليحضروا مجالس العلم وليسمعوا.

وكان أبو داود رجلا كبيرًا ذا خُلق كريم. كان صالحا عابدًا ورعًا، وكان ذكيًا مجدًا دؤوبًا كثير الاحتمال لمشاق الارتحال وطلب العلم، وكان يقظا شديد الانتباه يعرف الناس على حقيقتهم ولا تنطلي عليه وسائل الخداع، وكان أبيا كريم النفس، وكان جريئا في الحق أمينا على رسالة العلم قائما بحق الدين.

من أهم مؤلفاته:

" **سنن أبي داود** ".

وهذا الكتاب من أهم كتب الإسلام، وهو أحد الكتب الستة التي تقبلتها الأمة بقبول حسن.

وقد أثنى كثير من العلماء علي السنن فقال أبو ذكريا الساجي:

كتاب الله أصل الإسلام، وكتاب ” السنن ” لأبي داود عهد الإسلام.

وقال محمد بن مخلد: لما صنف أبو داود ” السنن ” وقرأه على الناس صار كتابه لأهل الحديث كالمصحف يتبعونه، وأقر له أهل زمانه
بالحفظ فيه.

وقال ابن الأعرابي وأشار إلى النسخة وهي بين يديه:

لو أن رجلا لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله ثم هذا الكتاب لم يحتج معهما إلى شيء من العلم البتة.

وقال الخطابي أيضا:

(كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله، وقد رزق القبول من الناس كافة فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل فيه ورد ومنه شرب، وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من مدن أقطار الأرض. فأما أهل خراسان : فقد أولع أكثرهم بكتابي محمد بن إسماعيل ومسلم بن الحجاج ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السبك والانتقاد، إلا أن كتاب أبي داود أحسن رصفا وأكثر فقها.

وقال أبو حامد الغزالي عن ” سنن أبي داود ”: ” إنها تكفي المجتهد في أحاديث الأحكام ”.

وقال ابن القيم: (لما كان كتاب " السنن " لأبي داود - رحمه الله - من الإسلام بالموضع الذي خصه الله به، بحيث صار حكما بين أهل الإسلام، وفصلا في موارد النزاع والخصام، فإليه يتحاكم المصنفون، وبحكمه يرضي المحققون، فإنه جمع شمل أحاديث الأحكام، ورتبها أحسن ترتيب ونظمها أحسن نظام، مع انتقائها أحسن انتقاء، واطراحه منها أحاديث المجروحين والضعفاء).

وقد ألف أبو داود كتابه " السنن " في وقت مبكر، وعني بتأليفه وترتيبه عناية بالغة، وأعاد النظر فيه مرات متعددة. هذا أمر لا شك فيه[1].

وقد تميز كتاب السنن بعدة مميزات أوردها أرباب الحديث منها:

- تعدد الطرق:

هناك أحاديث كثيرة في " السنن " مروية بطريقين أو أكثر، وهو يورد هذين الطريقين أو هذه الطرق في الإسناد قبل أن يأتي بمتن الحديث غالبا.

- تكرار الحديث:

في الحديث الواحد من المعاني والأحكام الشيء الكثير، فلقد أوتي ﷺ جوامع الكلم. فإذا أورد المؤلف الحديث في باب من الأبواب من أجل معنى وارد فيه، اضطر إلى إعادته في باب آخر من أجل معنى آخر تضمنه الحديث، ومن هنا كان لا مفر من تكرار الحديث في الكتب المصنفة على الأبواب.

(1) محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 280- 282.

وهذا هو السبب الذي جعل أبا داود يكرر الحديث أحيانا. ولكنه لا يبلغ في تكراره مبلغ البخاري في صحيحه. ولا يقطعه تقطيعه.

- الدقة في إيراد الروايات:

الدقة ظاهرة واضحة تمام الوضوح في " كتاب السنن " ونضرب

- الاختصار:

وفي كتاب أبي داود الاختصار الموفق لأننا نجده مقترنا بالدقة البالغة والوضوح البين، وهذه خاصة من أهم الخصائص التي يمتاز بها
كتاب " السنن " [1].

ومن المؤلفات أيضاً:

1- المراسيل:

2- مسائل الإمام أحمد: وهي مرتبة على أبواب الفقه، يذكر فيها أبو داود السؤال الموجه لأحمد وجوابه عليها، وهو كتاب جليل من الناحية الفقهية ينقل لنا بدقة وأمانة آراء الإمام أحمد بن حنبل.

3- الناسخ والمنسوخ.

4- إجاباته عن سؤالات أبي عبيد محمد بن علي بن عثمان الآجري.

5- رسالته في وصف كتاب " السنن ".

6- كتاب الزهد.

7- تسمية الإخوة الذين روي عنهم الحديث.

(1) محمد الصباغ ، أبو داود حياته وسننه ، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 302- 305 باختصار..

8- أسئلة لأحمد بن حنبل عن الرواة والثقات والضعفاء.

9- كتاب القدر.

10- كتاب البعث والنشور.

11- المسائل التي حلف عليها الإمام أحمد.

12- دلائل النبوة.

13- التفرد في السنن.

14- فضائل الأنصار.

15- مسند مالك.

16- الدعاء.

17- ابتداء الوحي.

18- أخبار الخوارج [1].

مواقف من حياته:

خلال ثلاث:

روي أبو بكر بن جابر خادم أبو داود قال: كنت معه ببغداد، فصلينا المغرب إذ قرع الباب، ففتحته فإذا خادم يقول: هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن. فدخلت إلى أبي داود فأخبرته بمكانه، فأذن له، فدخل، وقعد، ثم أقبل عليه أبو داود وقال: ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟فقال: خلال ثلاث. فقال: وما هي؟

قال: تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنا ليرحل إليك طلبة العلم من

(1) محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 280- 282.

أقطار الأرض فتعمر بك، فإنها خربت، وانقطع عنها الناس لما جرى عليها من محنة الزنج.

فقال: هذه واحدة. هات الثانية.

قال: وتروي لأولادي كتاب " السنن ".

فقال: نعم. هات الثالثة.

قال: وتفرد لهم مجلسا للرواية، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة.

فقال: أما هذه فلا سبيل إليها، لأن الناس شريفهم، ووضيعهم في العلم سواء.

قال ابن جابر: فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون وبينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة [1].

ابني عبد الله كذاب:

ومن الأمثلة التي تدل على جرأته وقوله الحق دون مراعاة لقرابة أو صلة موقفه من ابنه أبي بكر عبد الله صاحب التصانيف.

فقد قال عنه: " ابني عبد الله كذاب " [2]

والآخر لا نحتاج إليه :

ورد أن أبو داود كان له كم واسع والآخر وضيق، ولما سئل قال:

(1) طبقات الحنابلة، 1 / 162، طبقات الشافعية، 2 / 293، معالم السنن، 1 / 10، تهذيب ابن عساكر، 6 / 244، محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 275- 276.

(2) الميزان، 2 / 433، محمد الصباغ ، أبو داود حياته وسننه ، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 275- 276.

الواسع للكتب والآخر لا نحتاج إليه [1].

أخرج لي لسانك الذي حدثت به عن رسول الله ﷺ أقبله:

وجاءه سهل بن عبد الله التستري فقيل له: يا أبا داود، هذا سهل ابن عبد الله قد جاءك زائراً، قال: فرحب به وأجلسه، فقال: يا أبا داود لي إليك حاجة، وما هي؟ قال: حتى تقول قضيتها مع الإمكان، قال: قد قضيتها مع الإمكان، قال: أخرج لي لسانك الذي حدثت به عن رسول الله ﷺ أقبله، قال: فأخرج له لسانه فقبله [2].

وسمي أبو داود حكيماً:

كان أبو داود السجستاني أيام شبابه وطلبه للرواية قاعداً في مجلس، والمستملي في حدته، فجلس إليه فتى وأراد أن يكتب فقال له: أيها الرجل استمد من محبرتك، قال : لا، فانكسر الرجل، فأقبل عليه أبو داود، وقد أحس بخجله: أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان، فقد استوجب بالحشمة الحرمان، فكتب الرجل من محبرته، وسمي أبو داود حكيماً [3].

ومن أقواله الحكيمة:

كان الرجل حكيما، وليس ذلك بمستغرب على من اجتمعت فيه هذه الأوصاف التي أشرنا إليها آنفا، وصاحب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جدير بأن تفيض الحكمة على لسانه.

وقد ذكرت الكتب التي ترجمت له بعض هذه الجمل المأثورة الجميلة. فمن ذلك قوله:

(1) وفيات الأعيان، 2 / 404، تهذيب ابن عساكر، 6 / 244.
(2)ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2 / 404.
(3) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ص 4.

- الشهوة الخفية حب الرئاسة.

- خير الكلام ما دخل الأذن بدون إذن.

- من اقتصر على لباس دون ومطعم دون أراح جسده.

وهذه الأقوال وغيرها مما يدل على حكمة رصينة انتهى إليها المؤلف بعد علم ونظر وتمرس بالحياة الفاضلة.

- جمعت في السنن أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه. ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أحاديث:

أحدها: قوله ﷺ :"**الأعمال بالنيات**"[1].

الثاني: قوله ﷺ :"**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**"[2].

والثالث: قوله ﷺ :"**لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه**"[3].

والرابع : قوله ﷺ :"**الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات**"[4].

(1) صحيح البخاري بدء الوحي (1)، صحيح مسلم الإمارة (1907)، سنن الترمذي فضائل الجهاد (1647)، سنن النسائي الطهارة (75)، سنن أبو داود الطلاق (2201)، سنن ابن ماجه الزهد (4227)، مسند أحمد بن حنبل (25/1).

(2) سنن الترمذي الزهد (2317)، سنن ابن ماجه الفتن (3976).

(3) صحيح البخاري الإيمان (13)، صحيح مسلم الإيمان (45)، سنن الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (2515)، سنن النسائي الإيمان وشرائعه (5016)، سنن ابن ماجه المقدمة (66)، سنن الدارمي الرقاق (2740).

(4) صحيح البخاري الإيمان (52)، صحيح مسلم المساقاة (1599)، سنن الترمذي البيوع (1205)، سنن النسائي البيوع (4453)، سنن أبو داود البيوع (3329)، سنن ابن ماجه الفتن (3984)، مسند أحمد بن حنبل (271/4)، سنن الدارمي البيوع (2531).

- وقال أبو داود رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه، وما كان من الكلام لفظه سهلا ومعناه مكشوفا بينا فهو من جملة الرديء المردود لا سيما إذا ارتكبت فيه الضرورات، فأما الجزل المختار من الكلام فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها، وأجود الكلام ما كان سهلا جزلا لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها ومتوعرا متقعرا، ويكون بريئا من الغثاثة عاريا من الرثاثة.

فمن الجزل الجيد من النثر قول سعيد بن حميد وأنا من لا يحاجك عن نفسه ولا يغالطك عن جرمه ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ولا يستدعي برك إلا من طريقته ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم نبت بي عنك غرة الحداثة وردتني إليك الحنكة وباعدتني منك الثقة بالأيام وقادتني إليك الضرورة فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر وتجدد النعمة باطراح الحقد فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة والمتعة بها وإن كثرت قليلة فعلت إن شاء الله تعالى [1].

توفي أبو داود - رحمه الله - يوم الجمعة 15 شوال من سنة 275 بالبصرة، ودفن إلى جانب قبر سفيان الثوري بعد أن قدم خدمات

(1) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 20، أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي طويل، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، 1987، 2 / 358.

جليلة لدينه وأمته وللثقافة الإسلامية [1].

* * *

(1) محمد الصباغ، أبو داود حياته وسننه، مجلة البحوث الإسلامية، 1 / 279.

الإمام الترمذي

أعـلام الحديـث

الإمام الترمذي

هو الإمام محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى، المولود في قرية بوغ من قرى ترمذ على نهر جيحون سنة 209.

اختلف فيه، فقيل: ولد أعمى، والصحيح أنه أضر في كبره، بعد رحلته وكتابته العلم.

وطاف في البلاد الإسلامية طلبا للحديث ثم رجع إلى وطنه واستقر فيه. كان آية في الحفظ والذكاء. وكان إماما ثقة حجة ورعا زاهدًا توفي ببلده سنة 279 هـ. وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة.

أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث، ولقي الصدر الأول من المشايخ مثل قتيبة بن سعيد، وإسحاق بن موسى، ومحمود بن غيلان، وسعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن بشار، وعلي بن حُجر، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسفيان بن وكيع، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وغير هؤلاء، وأخذ عن خلق كثير لا يُحصون كثرة.

وأخذ عنه خلق كثير، منهم محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي المروزي.

وقد أثني عليه أرباب الحديث والفقه فقد قال عنه ابن حبان في (الثقات): كان أبو عيسى ممن جمع، وصنف وحفظ، وذاكر.

وقال أبو سعد الإدريسي: كان أبو عيسى يضرب به المثل في الحفظ.

وقال الحاكم: سمعت عمر بن علك يقول: مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى، في العلم والحفظ، والورع والزهد، بكى حتى عمي، وبقي ضريرا سنين [1].

ومن مناقبه: أن البخاري روى عنه حديثا خارج الصحيح وحسبه بذلك فخرا وله في الفقه والحديث يد صالحة وكتابه جامع الصحيح يدل على عظيم قدره واتساع حفظه وكثرة اطلاعه وغاية تبحره في هذا الفن حتى قيل: إنه لم يؤلف مثله في هذا الباب ومن تصانيفه: شمائل النبي ﷺ وهو أحسن الكتب المؤلفة في هذا الباب، كثير الميامن والبركات.

وقد أنشد قاضي القضاة أبوالخير شمس الدين محمد بن محمد الدمشقي الشيرازي المعروف بابن الجرزي صاحب الحصن الحصين رحمه الله تعالى حين تم قراءته في مجلسه الشريف نظم:

أخلاي إن شط الحبيب وربعه :: وعز تلاقيه وناءت منازله
فإن فاتكم أن تبصروه بعينه :: فما فاتكم بالسمع هذي شمائله

وعلى الشمائل شروح كثيرة منها شرح القسطلاني، والجلال السيوطي، وابن حجر المكي، وعلي القاري الهروي، وعبد الرؤوف المناوي، والشيخ سليمان الجمل وللشيخ إبراهيم المصري الباجوري رحمه الله تعالى عليه حاشية حافلة سماها المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية وعليه شرح للفاضل القنوجي الشيخ عليم الدين القريشي سماه درر الفضائل في شرح الشمائل [2].

(1) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، سير أعلام النبلاء، 25 / 274.
(2) أبو الطيب السيد صديق حسن القنوجي، الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1/ 252.

ومن تصانيفه في علم الحديث، كتابه «الصحيح» أحسن الكتب وأكثرها فائدة، وأحسنها ترتيبًا، وأقلها تكرارًا، وفيه ما ليس في غيره: من ذكر المذاهب، ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح، والحسن، والغريب، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب «العلل»، قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفَى قدرُها على من وقف عليها.

قال الترمذي - رحمه الله تعالى -: صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز فرضوا به، وعرضته على علماء العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.

وكتابه هذا يكاد ينفرد من بين الكتب بمنهج خاص وبطريقة فريدة تميز بها. فقد ذكر العلماء أنه جمع في هذا الكتاب بين طريقة الشيخين: البخاري ومسلم في صحيحيهما: ففيه استنباطات عميقة قيمة تذكر بطريقة الإمام البخاري. وفيه ترتيب دقيق وجمع لاحاديث الباب في موضع واحد وعناية بالفوائد الاسنادية، وذلك يسهل على الباحث الوقوف على الحديث في مكانه، وهذا يذكر بطريقة الإمام مسلم. وذكر العلماء أنه خرج في كتابه الصحيح والحسن والضعيف، وكان يبين درجة الحديث.

ومن خصائص كتاب الترمذي أنه جاء بمذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، فكتابه من الكتب التي تعنى بأدلة الاحكام، وقد سمى الترمذي - في الغالب - مع كل حديث من احتج به من أئمة أهل المذاهب، وذكر - في أحيان كثيرة - ما عارضه به الاخرون. ومن أجل ذلك كان كتابه من المصادر المهمة لدراسة الخلاف بين

مدارس الفقه المختلفة.

لقد اشتهر كتاب الترمذي عند العلماء باسمين اثنين : الأول: " جامع الترمذي ". والآخر : " سنن الترمذي ". وهو با لأول أكثر وأشهر ، وبه ذكره الحفاظ المشهورون : كالسمعاني ، والمزي ، والذهبي ، والعسقلاني ، وغيرهم . إلا أن بعضهم - من المصنفين وغيرهم - أضافوا إلى الأول لفظة " الصحيح "

فقالوا : " الجامع الصحيح " وكان الحاكم أبو عبد الله والخطيب البغدادي يسميان " كتاب الترمذي ": " الجامع الصحيح ".

وقد جمع هذا الكتاب كثيرا من الفوائد والعلوم التي لا توجد في كتاب شيخه البخاري: " الجامع الصحيح " وغيره من كتب السنة، وقد أشار إلى شيء من هذا الحافظ الذهبي [1]، فقال رحمه الله: " قلت : في
" الجامع علم نافع ، وفوائد غزيرة ، ورؤوس المسائل ، وهو أحد أصول الإسلام، لولا ما كدره بأحاديث واهية بعضها موضوع، وكثير منها في الفضائل ". وقد أوضح ذلك الإمام أبو بكر بن العربي في أول شرحه على " الترمذي " فقال: ".. وفيه أربعة عشر علما، وذلك أقرب إلى العمل وأسلم: أسند ، وصحح ، وضعف ، وعدد الطرق ، وجرح ، وعدل ، وأسمى ، وأكنى ، ووصل ، وقطع ، وأوضح المعمول به، والمتروك، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لاثاره، وذكر اختلافهم في تأويله. وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه، وفرد في نصابه، فالقارئ له لا يزال في رياض مونقة، وعلوم متفقة منسقة،

(1) سير أعلام النبلاء، 3 / 274.

وهذا شيء لا يعمه إلا العلم الغزير، والتوفيق الكثير، والفراغ والتدبير ,, [1].

* * *

(1) انظر: مقدمة كتاب ضعيف سنن الترمذي لمحمد ناصر الدين الألباني.

الحافظ البيهقي

أعلام الحديث

الحافظ البيهقي

هو: أحمد بن الحسين بن عليّ بن عبد الله بن موسى.

أما كنيته فأبو بكر، وأما لقبه فيلقب بالحافظ، وينسب إلى خُسْرَوْ جِرْد [1]، وإلى بيهق[2]، فيقال الخسرجردي البيهقي.

أما نسبته إلى خسرو جرد فلأنها القرية التي كانت مسقط رأسه وأما نسبته إلى بيهق فلأنها الناحية التي دفن بها، والتي تضم فيما بين قراها خسر وجرد، التي تعتبر عاصمتها.

وقد ينسب - رحمه الله - إلى نيسابور، لأنها قد حظيت بمقدمه إليها، وبها كان جل نشاطه العلمي؛ إذ عقد فيها المجلس لإسماع كتبه لعلمائها، وطلاب العلم فيها، فأصبحت شهرته مرتبطة بها.

ولد - رحمه الله - بخسرو جرد في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

وأجمعت المصادر التاريخية على أن وفاة البيهقي كانت سنة ثمان وخمسين وأربعمائة بنيسابور، ومنها نقل في تابوت إلى بيهق حيث دفن بها[3].

وقد عاش البيهقي - رحمه الله - في الفترة الواقعة ما بين عام

(1) خسرو جرد قرية من ناحية بيهق.

(2) بيهق ناحية كبيرة، وكورة واسعة، وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصى من الفضلاء، والعلماء، والفقهاء، والأدباء.

(3) أحمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، 12.

أربعة وثمانين وثلاثمائة (384) حيث كانت ولادته، وثمانية وخمسين وأربعمائة (458) حيث كانت وفاته.

ومعنى ذلك أن البيهقي عاصر الدولة العباسية في أحلك أيامها حيث كان عهد الدويلات المتناحرة، وحيث أفل الوجود الفعلي للسلطة العليا.

فقد عاصر البيهقي من خلفاء بني العباس القادر بالله الذي تربع على عرش الخلافة سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة 371 م، أثر قبضه على الخليفة الطائع لله، وخلعه له. واستمرت خلافته إلى حين وفاته سنة سبع وستين وأربعمائة 467م.

وكان الضعف قد دب في أوصال الدولة العباسية منذ عهد الخليفة محمد المنتصر بن المتوكل، الذي تواطأ مع جماعة من الأمراء سنة سبع وأربعين ومائتين على قتل أبيه المتوكل. ذلك الرجل العظيم الذي أعز الله به السنة، وقمع به البدعة، حين أنهى مهزلة دامت ردحاً طويلاً من الزمن امتحن فيها أئمة عظام من أئمة أهل السنة، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل .، ألا وهي محنة القول بخلق القرآن [1].

فبعد مقتل هذا الخليفة العظيم، بدأت الفتن تستشري والأحوال تضطرب، وسلطان الخلفاء يتلاشى، وذلك بسبب اعتمادهم على الفرس والترك وفتكهم ببني أمية ومناصبتهم العلويين العداء، وظهور كثير من الطوائف المارقة عن الدين، مما أدى في نهاية الأمر إلى سقوطها في أيدي التتار سنة ست وخمسين وستمائة، بعد مقتل آخر خلفائها أبي أحمد، عبد الله المستعصم على يد هولاكو خان.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، 308/11، 349.

لذلك فإن هذين الخليفتين اللذين عاصرهما البيهقي يعتبران من آخر خلفاء بني العباس، وكان تربعهما على عرش الخلافة اسماً فقط، أما السلطة الفعلية فقد سلبت منهم إذ أصبحوا ألعوبة في يد البويهيين والسلاجقة، الذين بالغوا في إذلالهم، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن ضيقوا عليهم حتى في حياتهم الخاصة، واضطروهم إلى بيع ما يملكون، فضاقت على الخليفة رقعة بلاده رغم اتساعها، فلم يبق له غير بغداد وأعمالها، وحتى هذه لم تكن له عليها سيطرة كاملة.

ومع ذلك فقد كان الخليفة آنذاك يتمتع بقوة معنوية عظيمة، جعلت الحكام والسلاطين يحرصون على الظفر بموافقته حتى يكتسبوا الصفة الشرعية فكان يستقبل السفراء، ويلبس بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية.

ولا يخفى أن حالاً كهذه، مشجعة لذوي الطموحات للظفر بالسلطة كي يتسببوا في التمرد الذي يؤدي إلى الانقسام، وهذا ما حدث فعلاً في جهات كثيرة من نواحي الدولة العباسية آنذاك [1].

فناحية المشرق - وهي الجهة التي كان يقطنها البيهقي - تنازعتها في تلك الفترة ثلاث دول.

1- الدولة البويهية من 334 - 447هـ.

(1) الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية ، 480/2، د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي 249/3، أحمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ص 7.

2- الدولة الغزنوية من 351 - 582هـ.

3- الدولة السلجوقية من 429 - 522هـ.

فالبويهيون كانت لهم السيطرة على بغداد ونواحيها، وقد استبدوا بأمر الدولة، رغم قربهم من مقر الخليفة، حيث شاركوه في بعض مظاهر الخلافة، إذ كان الأمير البويهي هو الذي يتولى إصدار الأوامر، أما الخليفة فما عليه إلا توقيعها، لتأخذ صفة الشرعية أمام الرأي العام.

وأما الدولتان الأخريان فقد كانتا في خراسان، ناحية شيخنا البيهقي، وقد كان الأمراء فيهما يستقلون بالتصرف في شؤونهما، دون رجوع إلى الخليفة في ذلك.

أما بقية أنحاء العالم الإسلامي، فلم تكن بأحسن حالاً من المشرق فقد كانت مشتتة على رأس كل منها أمير أو خليفة، فالأمويون في الأندلس ينازعهم العلويون من ذرية إدريس بن عبد الله، فكانت الحال هناك في اضطراب يشبه ما كان في المشرق، ويزيد عليه.

أما أفريقيا، ومصر، والشام، فقد تعاقب عليها تلك الفترة أمراء فاطميون، إلى غير ذلك من الانقسامات التي تميز بها ذلك العصر، مما كان له أثره البالغ في تفرق كلمة المسلمين، وإطماع أعدائهم في النيل منهم.

وقصارى القول: إن عصر البيهقي تميز بكثرة الدويلات الإسلامية المتناحرة، وانعدام ا السلطة المركزية، وتفشي الفساد السياسي، وكثرة القتل والنهب والترويع، الأمر الذي أقضّ مضاجع العلماء في ذلك العصر ومنهم البيهقي.

ومن الحالة الاجتماعية كانت الأوضاع أسوأ حيث سيطر الفزع والرعب على القلوب، حتى أصبح لا يطمئن أحد من الناس على نفسه وماله، فمن المعلوم بداهة أن الحروب تحدث دائماً تأثيراً بالغاً في حياة المجتمعات التي تعاصرها، لأنها تنهك الاقتصاد، وتقضي على موارد البلاد، وتشجع على إشاعة الفوضى في شتى ميادين الحياة.

كما كان للكوارث الأخرى من أوبئة وزلازل دورها في تنغيص العيش وإنزال النكبات، وتدهور الأحوال، فقد انتشرت الأوبئة، وعمت جميع البلاد وكثر الموت في الناس، حتى عجزوا عن أن يتدافنوا من كثرة الموتى. كما وقع سنة أربع وأربعين وأربعمائة زلزال عظيم بخراسان هلك بسببه كثير، وكان أشده بمدينة بيهق، ناحية البيهقي.

وخلاصة القول: إنك إذا استعرضت صفحات التاريخ لتلك الحقبة من الزمن وجدتها تطالعك بحوادث مروعة تعكس مدى الوضع الاجتماعي المتدهور، الذي عاشه الناس في ذلك العصر، فمن نهب وسلب، إلى قتل وانتهاك للحرمات، إلى جوع شديد يصير من اعتراه إلى الموت في أحيان كثيرة، إلى زلازل وأوبئة فتّاكة.

فهي فترة عصيبة، اتسمت حياة أهلها الاجتماعية، بمثل ما كانت عليه من الناحية السياسية، التي انعكست أحداثها الرهيبة على الوضع الاجتماعي الذي وصل إلى مثل ما وصلت إليه من انحطاط رهيب يشيب لهوله الولدان فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما الحالة العلمية فإنها كانت على العكس من الحالتين السالفتين،

حيث بذل العلماء جهوداً مضنية للحفاظ على العلم، ومحاولة جعله بعيداً عن التأثيرات السلبية للأحداث السابقة حتى كان ذلك، العصر - بحق - عصر النهضة العلمية.

إن من يطلع على الأحوال السياسية والاجتماعية في ذلك العصر، ويقف على ما وصلت إليه من سوء وانحطاط، فإنه لا يبعد بالناحية العلمية عنهما بل يتصورها كما وجد في الحالتين الأخريين، إلا أن الواقع كان خلاف ذلك فإن سوء الحالتين السياسية والاجتماعية لم يكن له أي أثر سلبي على الناحية الثقافية فقد عرفت تلك الحقبة من الزمن بأنها كانت من أزهى عصور الإسلام الثقافية، إذ توافر فيها عدد ضخم من رواد العلم والثقافة، ففيها عاش أئمة المحدثين وجهابذة المفسرين وأساطين الأدباء، ومشاهير الفلاسفة وأرباب الكلام، وكانت الثقافة قد بلغت أوجها، والاهتمام بالتأليف بلغ ذروته.

وقد بلغ الاهتمام بنشر العلم في ذلك العصر، إلى حدّ أن بعض كبار العلماء قام بإنشاء مدارس مستقلة عن المسجد لأوّل مرة في تاريخ الإسلام الأمر الذي كان له أكبر الأثر في الإقبال على التحصيل، وتشجيع طلاب العلم وصيانته عن أيدي العابثين.

ويذكر تاج الدين السبكي عدداً من المدارس التي كانت بنيسابور في ذلك العصر، بالإضافة إلى مدرسة البيهقي التي ذكرها المقريزي ومن تلك المدارس: المدرسة السعدية، بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود، لما كان والياً بنيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الإستراباذي، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضاً بنيت للأستاذ أبي إسحاق الإسفرائيني.

كما قام الوزير نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ببناء مدارس جديدة، مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراه، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل وهذه المدارس تعرف بالمدارس النظامية [1].

وقد كان لتعدد المدارس في ذلك العهد أثر كبير في انتشار العلوم الإسلامية وكثرة العلماء.

ومما سلف يتضح لنا أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد، فكانت بذلك تضاهي بغداد، حاضرة العلم والعلماء في ذلك العصر.

وقد بلغت العناية بالعلم وطلابه إلى حد أن كثيراً من أهل الفضل كانوا ينفقون على الطلاب من مالهم الخاص، ويقفون عليهم كتبهم، كما حدث من أبي بكر البستي الذي بنى مدرسة لطلاب العلم على باب داره، وأوقف عليها جملة من ماله الوفير، وهذا الرجل كان من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور.

وهكذا نرى أن الإمام البيهقي عاصر نهضة علمية جبارة كان له فيها نصيب الأسد، فاقترن اسمه بها منذ ذلك العهد، لمشاركته الإيجابية وأثره في مدارسها معلماً ومتعلماً.

ولقد بدأ البيهقي - رحمه الله - حياته العلمية في سن متأخرة نسبيًّا بالنظر إلى أبناء عصره، إذ بدأ بسماع الحديث وهو في سن الخامسة عشرة من عمره. وليس بعيداً أن يكون قد بدأ بحفظ القرآن الكريم قبل

(1) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 314/4، أحمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، 10.

بدئه بسماع الحديث، لأن ذلك من عادة العلماء في ذلك العصر، وإن كنا لا نجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى ذلك.

ويذكر المؤرخون أن أوّل سماعه كان من مشايخ خراسان ثم رحل إلى أماكن شتى في سبيل طلب العلم.

فقد ذكر الذهبي أن البيهقي - رحمه الله - بدأ سماع الحديث وهو ابن خمس عشرة سنة من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي والحاكم أبي عبد الله الحافظ وعبد الله بن يوسف الأصبهاني، وأبي علي الروذباري وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي بكر بن فورك... ثم سرد عشرين شيخاً من أوّل من سمع منهم البيهقي.

كما رحل البيهقي - رحمه الله - إلى العراق قاصداً حاضرة العلم والعلماء في ذلك الوقت، مدينة بغداد، وسمع بها من هلال بن محمد ابن جعفر الحفار وعلي بن يعقوب الأيادي، وأبي الحسين بن بشران وطبقتهم.

ثم توجه إلى الكوفة أيضاً قاصداً علماءها، فأفاد بها من جناح بن نذير القاضي وغيره.

ولما كان الحجاز يضم مهوى أفئدة المسلمين، شد البيهقي رحاله إليه، قاصداً مكة المكرمة، لأداء فريضة الحجّ، ولكنه رأى هذه المناسبة فرصة سانحة للاستفادة من علماء البلد الحرام، فجلس فيها إلى الحسن ابن أحمد بن ضراس، وأبي عبد الله بن نظيف، وغيرهما. فأفاد منهما فائدة كبيرة.

تلاميذه:

بعد أن كان البيهقي تلميذاً يتلقى ما جاد به أساتذته عليه من علم وفير، حتى استوعبه، وحققه، وبرع في تصنيفه وتدوينه، ما لبث أن أصبح شيخاً بارزاً، يعطي تلاميذه بنفس البذل الذي أخذه من مشايخه.

وقد تواجد لسماع كتبه الكثير من تلاميذه، الذين حرصوا على ألا يفوتهم الأخذ عنه، لما له من مكانة علمية سامقة، فقد استدعي إلى نيسابور سنة إحدى وأربعين وأربعمائة لينشر العلم، فأجاب، وأقام بها مدة، وحدّث بتصانيفه بالإضافة إلى ما عقده من مجالس علمية في بلده بيهق، وغيرها من البلدان المجاورة.

ومن أبرز تلاميذه الذين أخذوا عنه، وكان له فيهم أثر كبير ابنه أبو علي إسماعيل بن أحمد الملقب بشيخ القضاة وحفيده أبو الحسن عبيد الله ابن محمّد بن أحمد، والفراوي أبو عبد الله محمد بن أفضل الصاعدي، وابن منده أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن الحافظ محمد ابن إسحاق بن منده وغيرهم كثير [1].

صفاته:

قال السبكي: " كان الإمام البيهقي أحد أئمة المسلمين وهداة المؤمنين والدعاة إلى حبل الله المتين، فقيه جليل، حافظ كبير، أصولي نحوي زاهد ورع، قانت لله، قائم بنصرة المذهب أصولاً وفروعاً جبلاً من جبال العلم، أخذ الفقه عن ناصر العمري وقرأ علم الكلام على مذهب الأشعري ثم اشتغل بالتصنيف بعد أن صار أوحد زمانه وفارس ميدانه، وأحذق المحدثين وأحدهم ذهناً، وأسرعهم فهماً، وأجودهم قريحة ".

(1) أحمد بن عطية الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، ص 24 بتصرف.

وقال ابن ناصر الدين: " كان واحد زمانه، وفرد أقرانه حفظاً واتقاناً، وثقة، وعمدة ".

وقال ابن خلكان: " كان قانعاً من الدنيا بالقليل " [1].

علمه:

لم تذكر كتب التراجم كيف بدأ البيهقي حياته العلمية كما لم تعطنا فكرة واضحة المعالم عن أسرته وطفولته وكيف نشأ، لكنها لم تغفل اهتمامه وشغفه بالبحث وا لاطلاع الذي جاز به حدود قريته إلى العراق والجبال والحجاز فتلقى من علمائها الكثير وقد ربي عددهم على المائة.

فأخذ عن شيخه أبي عبد الله الحاكم علم الحديث، وأخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي (ت 444هـ).

وقال عبد الغافر: " جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث ".

وقال السمعاني: " جمع بين معرفة الحديث والفقه ".

ومن الغريب أن يقول الذهبي عنه: " دائرته في الحديث ليست كبيرة لكن بورك له في مروياته ".

على رغم ما لمسناه في كتبه من الإطلاع الواسع والمعرفة التامة بالأحاديث وما يتعلق بها.

ورغم ما تقدم من أقوال العلماء وشهاداتهم له وتقديمه في معرفة

(1) طبقات الشافعية الكبرى 3/3، ابن العماد (شذرات الذهب 304/3، وفيات الأعيان 85/1.

الحديث ورغم ما أثر عنه من أقوال تفيد مدى اهتمامه واشتغاله بهذا العلم منذ حداثته ونعومة أظافره.

وكما استغربنا كلام الذهبي عنه نقف حائرين أمام تفسير عدم تمكنه من الإطلاع على (سنن النسائي) و(سنن ابن ماجه) و(جامع الترمذي)، وقد علمنا مدى حرصه واهتمامه بكتب السنة وما قام به من رحلات عديدة للتحصيل وجمع المعلومات [1].

مصنفاته:

بعد أن جاب البيهقي أقطار الأرض طلباً للعلم والتقى بالكثير من العلماء ونهل من مواردهم المختلفة حتى فاق الكثير منهم عاد إلى بلده وأخذ يكتب الرسائل ويؤلف الكتب حتى بلغت - فيما قيل - ألف جزء، منها ما هو في الحديث، ومنها ما جمع بين الفقه والحديث ومنها ما انفرد بالعقائد، ولقد بورك له في مؤلفاته حتى لا يكاد يستغني عنها مسلم فنشر منها الكثير وما لم تزغ عنه أعين الباحثين يترقبون له الفرص لنشره وبثه ليستقى من نهله العذب.

ولقد عدّد المترجمون عنه الكثير من كتبه لاسيما ما كتبه السيد أحمد صقر فقد ذكر من مؤلفاته واحداً وثلاثين مؤلفاً لكنه اقتصر في التعريف بها على ما كتبه السبكي عنها، وهي عبارات وجيزة مختصرة ولهذا سنذكر أهم تلك المؤلفات مع التعريف بها: -

(1) قال الذهبي: " لم يكن عنده (سنن النسائي) ولا (جامع الترمذي) ولا (سنن ابن ماجه) " انظر: (تذكرة الحفاظ 1132/3) و(طبقات الشافعية الكبرى 3/3)، وكذلك (سير أعلام النبلاء 184/11).

1- السنن الكبرى:

وهو أهم مؤلفاته وشهد له السبكي بقوله: " ما صنف في علم الحديث مثله تهذيباً وترتيباً وجودة " فأقر قول شيخه الذهبي " ليس لأحد مثله " وذكره السخاوي ضمن كتب السنن وقال: " فلا تعد عنه لاستيعابه لأكثر أحاديث الأحكام، بل لا تعلم - كما قال ابن الصلاح - في بابه مثله ولذا كان حقه التقديم على سائر كتب السنن ولكن قدمت تلك لتقديم مصنفيها في الوفاة ومزيد جلالتهم ".

وقال الفاداني المكي: " لم يصنف في الإسلام مثلهما " ويعني السنن الكبرى والسنن الصغرى ".

وقال أبو عبد الله محمد الأمير الكبير في تفسير كلام السخاوي المتقدم: أي لا تتجاوز أنت عن كتاب السنن الكبرى ولا حاجة لك في طلب غيره " وقد جمع في مؤلفه السنن من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وموقوفات الصحابة وما أرسله التابعون فكان موسوعة كبرى في الحديث وقد رتبه على أبواب الفقه، واشتغل به بعض العلماء فاختصره كل من إبراهيم بن علي المعروف بابن عبد الخالق الدمشقي (ت 744هـ) في خمس مجلدات والحافظ الذهبي (ت 748 هـ) والشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت 974 هـ) وصنف الشيخ علاء الدين علي بن عثمان المعروف بابن التركماني (ت 750 هـ) كتاباً سماه (الجوهر النقي في الرد على البيهقي) وهو مطبوع في حاشية كتاب (السنن الكبرى) وأكثره اعتراضات[40] عليه ومناقشات له ومباحثات معه.

ولخص كتاب (الجوهر النقي) زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت 879 هـ) في كتاب سماه (ترجيح الجوهر النقي) وقد رتبه على حروف المعجم وبلغ فيه إلى حرف الميم.

2- (معرفة السنن والآثار):

قال السبكي: " وأما المعرفة - معرفة السنن والآثار - فلا يستغني عنه فقيه شافعي، وسمعت الشيخ الإمام رحمه الله يقول: مراده معرفة الشافعي بالسنن والآثار ". هـ.

والحق أنه لا غنى لفقيه شافعي وغيره عنه لما جمع فيه من أحكام يستدل عليها بما في الكتاب والسنة، ويوازن فيه بين أقوال الفقهاء ويذكر أدلتهم ويبين الصحيح منها والضعيف.

فهو بدون ريب من موسوعات كتب الفقه المقارن قل أن تجد مثله وقد ضمنه الرد على أبي جعفر أحمد بن سلامه الطحاوي الحنفي الذي شن الغارة على الشافعي وأصحابه.

وقد خرج فيه مؤلفه ما احتج به الشافعي من الأحاديث في الأصول والفروع بأسانيدها التي رواها بها مع ما رواه مستأنساً به غير معتمد عليه أو حكاه لغيره مجيباً عنه.

وقد تكلم البيهقي على تلك الأحاديث والأخبار بالجرح والتعديل والتصحيح والتعديل وأضاف إلى بعض ما أجمله الشافعي ما يفسره من كلام غيره وإلى بعض ما رواه ما يقويه من رواية غيره.

وبين فيه أن الشافعي لم يصدر باباً برواية مجهولة ولم يبن حكماً على حديث معلول وأنه قد يورده في الباب على رسم أول الحديث بإيراد ما عندهم من الأسانيد واعتماده على الحديث الثابت أو غيره

من الحجج.

وأنه قد يثق ببعض من هو مختلف في عدالته على ما يؤدي إليه اجتهاده كما يفعل غيره.

وأنه لم يدع سنة لرسول الله ﷺ بلغته وثبتت عنده حتى قادها، وهكذا نرى مقصده من تأليف (معرفة السنن) يتجلى في مقدمته الطويلة التي صدرها كتابه.

3- كتاب (المبسوط):

قال السبكي: " وأما المبسوط في نصوص الشافعي فما صنف في نوعه مثله ". وألفه البيهقي ليجمع كلام الشافعي ونصوصه مضبوطة بعد ما ضاق صدره مما وجده في الكتب من ا لاختلاف في نصوص الشافعي وإيراد الحكايات عنه دون تثبت، فحمله ذلك على نقل مبسوط ما اختصره المزني من كلام الشافعي وأدلته على ترتيب المختصر.

4- كتاب (الأسماء والصفات):

قال السبكي: " وأما كتاب الأسماء والصفات فلا أعرف له نظيراً ". هـ. وألفه البيهقي لبيان أسماء الله تعالى وأدلتها من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

وبدأه بالثناء على الله ثم ذكر أسماء الله تعالى التي من أحصاها دخل الجنة وربط معاني تلك الأسماء بخمسة أبواب، وذكر أن هناك أسماء غير هذه لله تعالى.

5- كتاب (الاعتقاد):

قال السبكي: " وأما - كتاب ا لاعتقاد - وكتاب دلائل النبوة - وكتاب شعب الإيمان - وكتاب مناقب الشافعي - وكتاب الدعوات الكبير - فأقسم ما لواحد منها نظير ".

وكتاب ا لاعتقاد كتبه البيهقي ليبين فيه ما يجب على المكلف اعتقاده والاعتراف به مع الإشارة إلى أطراف أدلته.

وقال المؤلف نفسه: " هذا الذي أودعناه هذا الكتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة وأقوالهم ".

وهو لاشك كتاب نفيس في موضوعه يتسم بسلاسة الأسلوب والنقاش الهادئ وقوة الأدلة. وقد جمعه من تواليفه مما كتبه فيما يجب على المكلف اعتقاده والإعتراف به ملتزماً ما فيه الإختصار.

6- كتاب (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة):

تكلم فيه عن مولد الرسول ﷺ ونشأته وشرف أصله ووفاة أبيه وأمه وجده.

و ذكر فيه صفاته الخلقية والخلقية وزهده في الدنيا وسيرة حياته منذ ولادته حتى وفاته، تباشير بعثته والمعجزات التي ظهرت على يديه.

وركز في مباحثه على المعجزات وخوارق العادات فذكر فيها أحاديث جلها صحيحة وبعضها فيه مقال.

وهو كتاب من أجمع تصانيف، مؤلفه لما أورده فيه وعنى به وقد اعتمد فيه على كتب السابقين له.

7- كتاب (شعب الإيمان):

وهو كتاب كبير في ست مجلدات، كتبه البيهقي على نمط (كتاب) أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي (ت 403هـ) في بيان شعب الإيمان المشار إليها في حديث رسول الله ﷺ :"**الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأوضعها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**- ولم يجمع تلك الشعب ثم يكلم عليها واحدة تلو الأخرى وإنما أورد كلامه مفصلاً عن كل واحدة منها مستوفياً أدلتها وشارحاً لها في جميع الكتاب وقد زاد على (كتاب) الحليمي ذكر الأسانيد التي عليها مدار الروايات.

8- كتاب (مناقب الشافعي):

وهو أجمع ما رأيت من كتب مناقب الإمام الشافعي، وقد نقل فيه مؤلفه عمن كتب قبله في ترجمة الإمام - كابن أبي حاتم (ت 327 هـ)، وأبي الحسن محمد بن عبد الله الرازي (ت 454 هـ).

ويتضح فيه تحمسه الشديد للشافعي ومذهبه أن دون المساس بأحد وكأن مرجع ذلك اقتناع البيهقي بتمسك الشافعي بالكتاب والسنة وأنه أقرب الآئمة منهما.

وبدأ كتابه بذكر ما لقريش من الخصائص لا سيما بني هاشم وبني المطلب ليدلل على مكانة الشافعي ونسبه.

وقد ذكر فيه مولده ونسبه وتعلمه وتعليمه وتصرفه في العلم وتصانيفه واعتراف علماء دهره بفضله، ومما يستدل به على كمال عقله وزهده في الدنيا وورعه واشتهاره بخصال الخير، ومكارم الأخلاق.

وقد أورد فيه أحاديث صحيحة وأخرى لا تخلو من مقال.

وقد نقل كثير من المؤلفين عن كتاب (مناقب الشافعي) بل كان جل كتاباتهم مستقاة منه لأن البيهقي لم يترك شيئاً مما له أدنى علاقة بالشافعي إلا وذكره إلى جانب التثبت من الروايات.

9- كتاب (الدعوات الكبير):

ألفه البيهقي إجابة لسؤال أحد، إخوانه في أن يجمع له ما ورد من الأخبار في الأدعية المرجوة التي دعا بها رسول الله ﷺ أو علّمها أحداً من أصحابه، وقد ذكرها بأسانيدها وقد رتبه على ترتيب كتاب المختصر المأثور لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وأضاف إليه زيادات لم يعرض لها ابن خزيمة.

بدأ كتابه بذكر ما للدعاء والذكر من الأجر والثواب.

10- كتاب (الدعوات الصغير).

11- كتاب (الزهد الكبير):

ذكر فيه أقوال السلف والخلف . في فضيلة الزهد وكيفيته وأنه في قصر الأمل والمبادرة بالعمل الصالح.

12- كتاب (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين):

أورد فيه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقاويل السلف لإثبات عذاب القبر وسؤال الملكين، وقد بين أن ذلك جائز عقلاً كما جاز شرعاً.

13- كتاب (أحكام القرآن):

جمع البيهقي فيه من نصوص الشافعي ما يدل على مبلغ - علمه - بالمعاني الدقيقة في القرآن.

ومقصد الكتاب ظاهر من عنوانه وهو مثل كتاب (أحكام القرآن) لأبى بكر أحمد بن علي الرازي - الجصاص - وكتاب (أحكام القرآن) لأبي بكر بن العربي.

14- كتاب (المدخل):

وهو من سماع عبيد الله بن عمر يحي بن عمر الكجي وخط تقي الدين أبي عمر وعثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبي نصر النصري الشهرزوري.

وعلى الكتاب بعض السماعات وفي آخره ذكر السند إلى البيهقي. وخط النسخة دقيق متداخل بعضه في بعض، وعليها سماعات ابن الصلاح والحافظ المزي وسماعات أخرى.

15- كتاب (البعث والنشور):

وهو بخط محمد بن عبد العزيز بن محمد في خيزان في سنة أربع وأربعين وثمانمائة وعليه بعض السماعات.

16- كتاب (تخريج أحاديث الأم):

وقد خرج فيه أحاديث كتاب (الأم) حديثاً حديثاً مع سنده والتعليق عليه.

17- كتاب (الخلافيات بين الشافعي وأبي حنيفة):

ذكر فيه ما اختلف فيه أبو حنيفة والشافعي في الأحكام، وقد رتبه على أبواب الفقه.

18- كتاب (بيان خطأ من أخطأ على الشافعي) [1]:

من كلام الحافظ البيهقي:

- قال البيهقي رحمه الله: ذكر الله عز وجل في كتابه ما يكون في الأرض من زلزالها وتبديلها وتغيير هيئتها ومدها وما يكون في الجبال وتسييرها ونسفها وما يكون في البحار وتفجيرها وتسجيرها وما يكون في السماء وتشقيقها وطيها وما يكون في الشمس من تكويرها وفي القمر من خسفه وما يكون في النجوم من انكدارها وانتثارها وما يكون من شغل الوالدة عن ولدها ووضع الحوامل ما في بطونها.

- قال البيهقي رحمه: الله وكما لا ينبغي أن يكون الخوف إلا من الله عز وجل كذلك لا ينبغي أن يكون الرجاء إلا منه ؛ لأنه لا يملك أحد من دونه ضرا ولا نفعا فمن رجا ممن لا يملك ما لا يملك فهو من الجاهلين.

* * *

(1) نايف هاشم الدعيس، الإمام البيهقي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 44.

الإمام النسائي

أعلام الحديث

الإمام النسائي

هو الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام ناقد الحديث أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي صاحب السنن.

ولد بنسا في سنة 215هـ وطلب العلم في صغره فارتحل إلى قتيبة في سنة 230هـ فأقام عنده بمدينة بغلان سنة فأكثر عنه، ومن شيوخه إسحاق بن راهويه وهشام بن عمار ويروي عن رفقائه.

كان من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر ونقد الرجال وحسن التأليف، رحل في طلب العلم في خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور، ثم استوطن مصر ورحل الحفاظ إليه ولم يبق له نظير في هذا الشأن.

حدث عنه عدد كبير من العلماء منهم حدث عنه : أبو بشر الدولابي، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو علي النيسابوري، وحمزة بن محمد الكناني، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس النجوي، وأبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد الشافعي، وعبد الكريم بن أبي عبدالرحمن النسائي، والحسن بن الخضر، الأسيوطي، وأبو بكر أحمد بن محمد بن السني، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ومحمد بن معاوية بن الأحمر الاندلسي، والحسن بن رشيق، ومحمد بن عبد الله بن حيويه النيسابوري، ومحمد بن موسى المأموني، وأبيض بن محمد بن أبيض، وخلق كثير.

قال مأمون المصري المحدث: خرجنا إلى طرسوس مع النسائي سنة الفداء الذي وقع بين المسلمين والروم، فاجتمع جماعة من الآئمة عبد الله بن أحمد بن حنبل ومحمد بن إبراهيم مربع وأبو الآذان فتشاوروا من ينتقي لهم على الشيوخ فأجمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي وكتبوا كلهم بانتخابه.

قال محمد بن المظفر الحافظ : سمعت مشايخنا بمصر يصفون اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار وأنه خرج إلى الفداء مع أمير مصر فوصف من شهامته وإقامته السنن المأثورة في فداء المسلمين واحترازه عن مجالس السلطان الذي خرج معه والانبساط في المأكل وأنه لم يزل ذلك دأبه إلى أن استشهد بدمشق من جهة الخوارج.

ثناء العلماء عليه:

قال الحافظ أبو علي النيسابوري: الإمام في الحديث بلا مدافعة أبو عبد الرحمن النسائي.

وقال أبو الحسن الدار قطني: أبو عبد الرحمن مقدم على كل من يذكر بهذا العلم من أهل عصره.

وقال الدار قطني: كان أبو بكر بن الحداد الشافعي كثير الحديث ولم يحدث عن غير النسائي وقال رضيت به حجة بيني وبين الله تعالى.

قال أبو سعيد ابن يونس في تاريخه: كان أبو عبد الرحمن النسائي إماما حافظا ثبتا.

قال أبو عبد الله بن منده: الذين أخرجوا الصحيح وميزوا الثابت من المعلول والخطأ من الصواب أربعة البخاري ومسلم وأبو داود

وأبو عبد الرحمن النسائي.

محنته وفاته:

وصنف الإمام النسائي كتابا في فضائل الصحابة، دون أن يكتب شيئاً عن فضائل معاوية بن أبي سفيان. فقيل له: ألا تخرج فضائل معاوية .؟ فقال: أي شئ أخرج؟ حديث:"**اللهم! لا تشبع بطنه**-[1].

فسكت السائل.

قال الذهبي معلقا علي ذلك الموقف:لعل أن يقال: هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ :"**اللهم! من لعنته أو سببته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة**-[2].

وكان الإمام النسائي - رحمه الله - يري في أهل الشام ميلاً إلي معاوية بن أبي سفيان . وانحرافا عن علي بن أبي طالب . وإساءة إليه، فألف كتابا في فضائل علي بن أبي طالب وأهل البيت وأكثر رواياته عن أحمد بن حنبل فقيل له: ألا تصنف كتابا في فضل الصحابة فقال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي كثير فأردت أن يهديهم الله تعالى بهذا الكتاب ورحل إلي الشام ليعلمه الناس.

(1) هو في " مسند الطيالسي" برقم (2688) من طريق أبي عوانة، عن أبي حمزة القصاب، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ بعث إلى معاوية ليكتب له، فقال: إنه يأكل، ثم بعث إليه ﷺ، فقال: إنه يأكل، فقال رسول الله ﷺ :"لا أشبع الله بطنه-
وأخرجه مسلم (2604) في البر والصلة بلفظ آخر عن شعبة، عن أبي حمزة القصاب، عن ابن عباس. وانظر " أنساب الاشراف " 4 / 126 125.

(2) أخرجه مسلم برقم (2600) من حديث عائشة، و(2601) من حديث أبي هريرة، و(2602) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهم، ولفظ حديث أبي هريرة: " اللهم إنما أنا بشر، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة ".

فلما وصل إلي الشام بدأ في تدريسه للشاميين، وأقبل عليه الناس، وبعد قليل طلبوا إليه أن يضع لهم كتابا في مناقب وفضائل معاوية بن أبي سفيان، فرد عليهم: " أما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضل وفي رواية أخرى ما أعرف له فضيلة إلا: لا أشبع الله بطنك. فتحامل عليه الناس وأخرجوه من المسجد ووجهوه نحو مكة.

وقال الدارقطني : خرج حاجا فامتحن بدمشق وأدرك الشهادة، فقال : احملوني إلى مكة فحمل وتوفي بها وهو مدفون بين الصفا والمروة وكانت وفاته في شعبان سنة 303هـ قال : وكان أفقه مشايخ مصر في عصره وأعلمهم بالحديث والرجال.

ترك النسائي مجموعة من الكتب أهمها كتاب السنن الكبرى، وكتاب المجتبى، وكتاب مسند علي، وكتاب الكنى، وكتاب خصائص علي، وكتاب عمل اليوم والليلة، وكتاب كتاب التفسير وكتاب كتاب الضعفاء، وكتاب عشرة النساء [1].

* * *

(1) طبقات العبادي : 51، الأنساب : 559، المنتظم : 6 / 132 131، الكامل في التاريخ : 8 / 96، وفيات الأعيان : 1 / 78 77، تهذيب الكمال : 1 / 25 23، مختصر طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي: الورقة 121 / 1، تهذيب التهذيب : 1 / 12 / 1، تذكرة الحفاظ : 2 / 701 698، العبر : 2 / 124 123، دول الإسلام : 1 / 184، الوافي بالوفيات : 6 / 417 416، مرآة الجنان : 2 / 241 240، طبقات الشافعية للسبكي : 3 / 16 14، طبقات الإسنوي: 2 / 481 480، البداية والنهاية: 11 / 124 123، العقد الثمين: 3 / 46 45، طبقات القراء للجزري: 1 / 61، تهذيب التهذيب: 1 / 37 36، النجوم الزاهرة: 3 / 188، طبقات الحفاظ: 303، حسن المحاضرة: 1 / 350 349، خلاصة تهذيب التهذيب: ص 7، شذرات الذهب: 2 / 241- 239.

ابن ماجه القزوينى

أعـلام الحديـث

ابن ماجه القزويني

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني الحافظ المشهور، كان أبوه؛ يزيد يعرف بماجه، مصنف كتاب السنن في الحديث؛ كان إماما في الحديث عارفا بعلومه وجميع ما يتعلق به، ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والري لكتب الحديث، وله تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح، وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة.

ولد في بلدة (قزوين) التي تقع في أذربيجان، سنة (209هـ) وكانت في عهد الخليفة المأمون العصر الذهبي للعلوم الإسلامية جميعا ومنها الحديث والفقه، وكانت (قزوين) منذ فتحها في خلافة عثمان بن عفان . في سنة 24هـ، أصبحت ذات شهرة كبيرة في رواية الحديث النبوي الشريف، فمن أرضها خرج كبار المحدثين الذين يحفظون أحاديث رسول الله ﷺ وينشرونها بين الناس. وكما يقول ابن خلكان [1] " خرج منها جماعة من العلماء المعتبرين ".

وقد نشأ ابن ماجه نشأة دينية منذ صغره فقد حفظ القرآن الكريم، في سن مبكرة وتعلم الحديث الشريف على يد المشايخ والمحدثين الكبار أمثال: علي بن محمد الطنافسي الحافظ، ومن جبارة بن المغلس، وهو من قدماء شيوخه، ومن : مصعب بن عبد الله الزبيري، وسويد بن سعيد، وعبد الله؛ معاوية الجمحي، ومحمد بن رمح، وإبراهيم بن

(1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 4 / 280.

المنذر الحزامي، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وأبي بكر بن أبي شيبة، وهشام بن عمار، ويزيد بن عبد الله اليمامي، وأبي مصعب الزهري، وبشر بن معاذ العقدي، وحميد بن مسعدة، وأبي حذافة السهمي، وداود بن رشيد، وأبي خيثمة، وعبد الله بن ذكوان المقرئ، وعبد الله ابن عامر بن براد، وأبي سعيد الأشج، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، وعبد السلام بن عاصم الهسنجاني، وعثمان بن أبي شيبة، ومجموعة كبير من أهل الحديث والفقه ممن ذكرهم في كتبه.

وقد أخذ عنه الحديث عدد كبير من العلماء والمحدثين أمثال محمد بن عيسى الأبهري، وأبو الطيب أحمد بن روح البغدادي، وأبو عمرو أحمد ابن محمد بن حكيم المديني، وأبو الحسن علي بن إبراهيم القطان، وسليمان بن يزيد الفامي، وغيرهم كثير[(1)].

رحل ابن ماجه في طلب العلم، وأخذ ينتقل من بلد إلى آخر، ليتعلم ويسمع من أحاديث رسول الله ﷺ، فذهب إلى خراسان، والعراق، والحجاز ومصر، والشام وغيرها من البلاد .. ثم أنهى ابن ماجه رحلاته في طلب الحديث وعاد إلى بلده (قزوين) وأمضى بها بقية عمره في خدمة الحديث إلى أن توفي في عهد الخليفة العباسي (المعتمد على الله) في يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء الموافق الثاني والعشرين من رمضان سنة 273هـ عن عمر يقارب الرابعة والستين.

وقد أثني عليه أرباب الحديث فقد قال عنه الذهبي: " كان ابن ماجه حافظا ناقدا صادقا، واسع العلم... ".

(1) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، سير أعلام النبلاء، 25 / 276.

وقال عنه أبو يعلى الخليلي: " هو ثقة كبير، متفق عليه، محتج به، له معرفة بالحديث وحفظ... " [1].

وكانت لابن ماجه مؤلفات في التفسير والتاريخ، [2] إلا أن أشهر كتبه (السنن) الذي استحق به الإمامة في الحديث الشريف، فهو من كتب الحديث المعتمدة عند علماء الحديث، وأحد كتب الحديث الستة المعروفة، وهي : صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجه، وقد احتوت سنن ابن ماجه على كثير من الأحاديث التي لم تروها كتب الحديث الأخرى، كما تضم سنن ابن ماجه أربعة آلاف من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم [3].

إلا أن كتاب ابن ماجه " السنن " قد اعتراه بعض النقد، فقد قال عنه الإمام الذهبي: " سنن أبي عبد الله (ابن ماجه)كتاب حسن لولا ما كدره أحاديث واهية ليست بالكثيرة " [4].

وقد ذكر أصحاب الحديث وأرباب العلم أن سنن ابن ماجه هي

(1) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، سير أعلام النبلاء، 25 / 276- 277.
(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 4 / 280.
(3) وانظر أيضا عن ابن ماجه:تاريخ ابن عساكر: خ: 16 / 63 ب - 64 أ، المنتظم: 5 / 90، وفيات الاعيان: 4 / 279، تهذيب الكمال: خ: 1290- 1291، تهذيب التهذيب : خ: 4 / 13، تذكرة الحفاظ : / 636- 637، عبر المؤلف : 2 / 51، الوافي بالوفيات : 5 / 220، البداية والنهاية : 11 / 52، تهذيب التهذيب : 9 / 530- 532، النجوم الزاهرة: 3 / 70، طبقات الحفاظ: 278- 279، خلاصة تذهيب الكمال: 365، طبقات المفسرين: 2 / 272 - 273، شذرات الذهب: 2 / 164.
(4) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تذكرة الحفاظ، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م، 2 / 155.

رابع كتب السنن ، وأدناها من حيث المرتبة ، وقد نبه د/ حسين شواط[1] إلى أن المعتمد عند المتقدمين هو أن كتب الأصول خمسة: الصحيحان، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي ، ثم ألحق بها سنن ابن ماجه لما فيه من الفقه وحسن الترتيب، ولما فيه من الزوائد على الكتب الخمسة الأصول ، واستقر الأمر على ذلك في كتب الأطراف والرجال ، وقد أيد هذا الرأي عدد من حفاظ الحديث أمثال أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني وابن عساكر والحافظ عبد الغني المقدسي والحافظ المزي، ولكن كثيرا من العلماء، ومنهم رزين بن معاوية وابن الأثير قدموا موطأ مالك على سنن ابن ماج ه واعتبروه سادس الأصول ؛ لأن أحاديثه المرفوعة إلى النبي ﷺ في أعلى درجات الصحة ، ولكن العلماء اصطلحوا على جعله سادس كتب الأصول، كما تقدم، واستقر الاصطلاح بعد ذلك، ولا مشاحاة في الإصطلاح.

والذي عليه أرباب الحديث هو القول بأن ما انفرد به ابن ماجه ضعيف، وممن نبه على هذا الأمر الحافظ المزي وابن القيم نقلا عن ابن تيمية، ومن أبرز الأحاديث الموضوعة في سنن ابن ماجة حديث في فضل قزوين.

ومما سبق يخلص لنا أن السبب الرئيسي لإدخال سنن ابن ماجه في الأصول هو دقة ترتيبه وكثرة أبوابه وعدم تكرار الأحاديث فيه ، فهو يشبه صحيح مسلم في عدم تكرار أحاديثه [2].

(1) حجية السنة، ص195 بتصرف.

(2) انظر: مصطلح الحديث ، طبعة مكتبة العلم ، ص42 بتصرف ، حجية السنة ، ص195 بتصرف.

* * *

الإمام النّووي

أعـلام الحديـث

الإمام النّووي

هو صاحب أشهر ثلاثة كتب يكاد لا يخلو منها بيت مسلم وهي " الأربعين النووية " و" الأذكار " و " رياض الصالحين "، وبالرغم من قلة صفحات هذه الكتب وقلة ما بذل فيها من جهد في الجمع والتأليف إلا أنها لاقت هذا الانتشار والقبول الكبيرين بين الناس، وقد عزى كثير من العلماء ذلك، إلى إخلاص النووي رحمه الله، فرب عمل صغير تكبره النية.

نسَبُه ومَوْلده:

لقد فاق الإمام النووي علماء عصره ومن المرجح أنه ـ رحمه الله ـ مات ولم يتعد الخامسة والأربعين عاما، وترك من الآثار العلمية والتقريرات والكتب المحررات ما فاق به علماء عصره وأئمة دهره.

لقد تزوج شيخنا النووي كتب العلم النافع، ورضى بسكنى الأربطة المعدة للطلاب وقنع بالكعك والتين، حتى يوفر وقته وجهده لخدمة المسلمين، وكان يلبس المرقع من الثياب ولا يبالي بزينة الدنيا طلبا لرضى الملك الوهاب، فما نال من الدنيا من زينتها وشهواتها، ولم تنل منه الدنيا شيئا، فكانت حياته كلها لله ـ عز وجل ـ حتى فارق الدنيا وهو في طلب العلم والعبادة والزهادة والتصنيف والإفادة، فرحمه الله رحمة واسعة وأدخلنا وإياه وجنة عالية، قطوفها دانية.

مَوْلدُه ونشأته:

ولد النووي رحمه الله تعالى في المحرم من 631 هـ في قرية نوى من أبوين صالحين، ولما بلغ العاشرة من عمره بدأ في حفظ القرآن وقراءة الفقه على بعض أهل العلم هناك، وصادف أن مرَّ بتلك القرية الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي، فرأى الصبيانَ يُكرِهونه على اللعب وهو يهربُ منهم ويبكي لإكراههم ويقرأ القرآن، فذهب إلى والده ونصحَه أن يفرّغه لطلب العلم، فاستجاب له. وفي سنة 649 هـ قَدِمَ مع أبيه إلى دمشق لاستكمال تحصيله العلمي في مدرسة دار الحديث، وسكنَ المدرسة الرواحية، وهي ملاصقة للمسجد الأموي من جهة الشرق. وفي عام 651 هـ حجَّ مع أبيه ثم رجع إلى دمشق.

وكان أسمر، كث اللحية، ربعة، مهيبا، قليل الضحك، عديم اللعب، بل جد صرف يقول الحق وإن كان مرا، لا يخاف في الله لومة لائم.

ووصفه الذهبي أيضا بأن لحيته سوداء فيها شعرات بيض وعليه هيئة وسكينة.

حَيَاته العلميّة:

تميزت حياةُ النووي العلمية بعد وصوله إلى دمشق بثلاثة أمور:

الأول: الجدّ في طلب العلم والتحصيل في أول نشأته وفي شبابه، وقد أخذ العلم منه كلَّ مأخذ، وأصبح يجد فيه لذة لا تعدِلُها لذة، وقد كان جادّاً في القراءة والحفظ، وقد حفظ التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظ ربع العبادات من المهذب في باقي السنة، واستطاع في فترة وجيزة أن ينال إعجاب وحبَّ أستاذه أبي إبراهيم إسحاق بن

أحمد المغربي، فجعلَه مُعيد الدرس في حلقته. ثم درَّسَ بدار الحديث الأشرفية، وغيرها.

الثاني: سعَة علمه وثقافته، وقد جمع إلى جانب الجدّ في الطلب غزارة العلم والثقافة المتعددة، وقد حدَّثَ تلميذُه علاء الدين بن العطار عن فترة التحصيل والطلب، أنه كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جنّي في النحو، ودرساً في إصلاح المنطق لابن السكّيت في اللغة، ودرساً في الصرف، ودرساً في أصول الفقه، وتارة في اللمع لأبي إسحاق، وتارة في المنتخب للفخر الرازي، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين، وكان يكتبُ جميعَ ما يتعلق بهذه الدروس من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة.

الثالث: غزارة إنتاجه، اعتنى بالتأليف وبدأه عام 660 هـ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وقد بارك الله له في وقته وأعانه، فأذابَ عُصارة فكره في كتب ومؤلفات عظيمة ومدهشة، تلمسُ فيها سهولةُ العبارة، وسطوعَ الدليل، ووضوحَ الأفكار، والإنصافَ في عرض أراء الفقهاء، وما زالت مؤلفاته حتى الآن تحظى باهتمام كل مسلم، والانتفاع بها في سائر البلاد.

ويذكر الإسنوي تعليلاً لطيفاً ومعقولاً لغزارة إنتاجه فيقول: " اعلم أن الشيخ محى الدين رحمه الله لمّا تأهل للنظر والتحصيل، رأى في المُسارعة إلى الخير؛ أن جعل ما يحصله ويقف عليه تصنيفاً، ينتفع به الناظر فيه، فجعل تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفاً، وهو غرض

صحيح، وقصد جميل، ولولا ذلك لما تيسر له من التصانيف ما تيسر له".

وقد أثني عليه الكثير من العلماء ، والفقهاء ، والمحدثين ، فقد قال عنه تلميذه ابن العطار: شيخي وقدوتي الإمام ذو التصانيف المفيدة، والمؤلفات الحميدة، وحيد دهره، وفريد عصره، الصوام القوام، الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة صاحب الأخلاق الرضية، والمحاسن السنية، العالم الرباني المتفق على علمه وإمامته وجلالته وزهده وورعه وعبادته وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته.

وقال الشيخ قطب الدين موسى اليونيني الحنبلي: " المحدث الزاهد العابد الورع المفتخر في العلوم، صاحب التصانيف المفيدة، كان أوحد زمانه في الورع والعبادة والتقلل من الدنيا والإكباب على الإفادة والتصنيف مع شدة التواضع، وخشونة الملبس والمأكل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال الكمال جعفر الأدفوي : إنه صنف تصانيف مفيدة حصل النفع بها، ودارت عليه الفتوى بدمشق... ومآثره عزيزة عزيرة، ومضى على جميل وسداد... وكان فقده من أعظم المصائب، وعدمه بليه رمت العباد بسهم من البلاء صائب، رحمه الله ونفعنا ببركته وحشرنا معه في آخرته في دار كرامته.

وقال الحافظ الذهبي: الشيخ الإمام القدوة الحافظ الزاهد العابد الفقيه المجتهد الرباني، شيخ الإسلام، حسنة ا لأنام، محيي الدين، صاحب التصانيف التي سارت بها الركبان واشتهرت بأقصى البلدان... لازم الاشتغال والتصنيف محتسبا في ذلك مبتغيا وجه الله -

تعالى - مع التعبد والصوم والتهجد والذكر والأوراد وحفظ الجوارح وذم النفس والصبر على العيش الخشن ملازمة لا مزيد عليها ... كان ملازمته التامة للعلم ومواظبته لدقائق العمل وتزكية النفس من شوائب الهوى وسيء الأخلاق ومحقها من أغراضها، عارفا بالحديث قائما على أكثر متونه عارفا برجاله رأسا في نقل المذهب، متضلعا من علوم الإسلام.

وقال اليافعي: شيخ الإسلام، مفتي الآنام، المحدث المتقن المدقق النجيب الحبر المفيد القريب والبعيد، محرر المذهب وضابطه ومرتبه، أحد العباد الورعين الزهاد العالم العامل، المحقق الفاضل، الولي الكبير، السيد الشهير، ذو المحاسن العديدة والسير الحميدة والتصانيف المفيدة، الذي فاق جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركبان واشتهرت فضائله في سائر البلدان، وشوهدتن له الكرامات وارتقى في أعلى المقامات، ناصر السنة، ومتعمد الفتاوى، ذو الورع الذي لم يبلغنا مثله عن أحد في زمانه ولا قبله.

قال: ولقد بلغني أنه كان يجري دمعه في الليل ويقول:

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة :: على غير ليلى فهو دمع مضيع

قال: وقد رأيت له مقامات تدل على عظم شأنه، ودوام ذكره لله - تعالى -، وحضوره وعمارة أوقاته، وشدة هيبته، وتعظيم وعده ووعيده.

وقال الحافظ ابن كثير: الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه، ومن حاز قصب السبق دون أقرانه، وكان من الزهادة والعبادة والتحري والورع والامتنان على الناس والتخلي

لطلب العلم، والتحلي به على جانب لا يقدر عليه غيره، ولا يضيع من أوقاته.

أخلاقُهُ وَصفَاتُه:

أجمعَ أصحابُ كتب التراجم أن النووي كان رأساً في الزهد، وقدوة في الورع، وعديم النظير في مناصحة الحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويطيب لنا في هذه العجالة عن حياة النووي أن نتوقف قليلاً مع هذه الصفات المهمة في حياته:

الزهد:

تفرَّغَ الإمام النووي من شهوة الطعام واللباس والزواج، ووجد في لذّة العلم التعويض الكافي عن كل ذلك. والذي يلفت النظر أنه انتقل من بيئة بسيطة إلى دمشق حيث الخيرات والنعيم، وكان في سن الشباب حيث قوة الغرائز، ومع ذلك فقد أعرض عن جميع المتع والشهوات وبالغ في التقشف وشظف العيش.

الورع:

وفي حياته أمثلة كثيرة تدلُّ على ورع شديد، منها أنه كان لا يأكل من فواكه دمشق، ولما سُئل عن سبب ذلك قال: إنها كثيرة الأوقاف، والأملاك لمن تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرّف في ذلك إلا على وجه الغبطة والمصلحة، والمعاملة فيها على وجه المساقاة، وفيها اختلاف بين العلماء. ومن جوَّزَها قال: بشرط المصلحة والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفسي؟. واختار النزول في المدرسة الرواحيّة على غيرها من المدارس لأنها كانت من بناء بعض التجّار.

وكان لدار الحديث راتب كبير فما أخذ منه فلساً، بل كان يجمعُها عند ناظر المدرسة، وكلما صار له حق سنة اشترى به ملكاً ووقفه على دار الحديث، أو اشترى كتباً فوقفها على خزانة المدرسة، ولم يأخذ من غيرها شيئاً. وكان لا يقبل من أحد هديةً ولا عطيّةً إلا إذا كانت به حاجة إلى شيء وجاءه ممّن تحقق دينه. وكان لا يقبل إلا من والديه وأقاربه، فكانت أُمُّه ترسل إليه القميص ونحوه ليلبسه، وكان أبوه يُرسل إليه ما يأكله، وكان ينام في غرفته التي سكن فيها يوم نزل دمشق في المدرسة الرواحية، ولم يكن يبتغي وراء ذلك شيئاً.

مُناصحَتُه الحُكّام:

لقد توفرت في النووي صفات العالم الناصح الذي يُجاهد في سبيل الله بلسانه، ويقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مخلصٌ في مناصحته وليس له أيّ غرض خاص أو مصلحة شخصية، وشجاعٌ لا يخشى في الله لومة لائم، وكان يملك البيان والحجة لتأييد دعواه.

وكان الناسُ يرجعون إليه في الملمّات والخطوب ويستفتونه، فكان يُقبل عليهم ويسعى لحلّ مشكلاتهم، كما في قضية الحوطة على بساتين الشام:

لما ورد دمشقَ من مصرَ السلطانُ الملكُ الظاهرُ بيبرسُ بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد، زعم له وكيل بيت المال أن كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة، فأمر الملك بالحوطة عليها، أي بحجزها وتكليف واضعي اليد على شيءٍ منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه، فلجأ الناس إلى الشيخ في دار الحديث، فكتب إلى الملك كتاباً جاء فيه: " وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواعٌ

من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحلّ عند أحد من علماء المسلمين، بل مَن في يده شيء فهو ملكه لا يحلّ الاعتراض عليه ولايُكلَّفُ إثباته " فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وأمر بقطع رواتبه وعزله عن مناصبه، فقالوا له: إنه ليس للشيخ راتب وليس له منصب. ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفِدْ، مشى بنفسه إليه وقابله وكلَّمه كلاماً شديداً، وأراد السلطان أن يبطشَ به فصرف الله قلبَه عن ذلك وحمى الشيخَ منه، وأبطلَ السلطانُ أمرَ الحوطة وخلَّصَ الله الناس من شرّها.

مكانة النووي عند علماء الشافعية:

يقول الأستاذ عبد الغني الدقر: هذا وقد أخذ النووي - رحمه الله - الفقه الشافعي عن كبار علماء عصره كما رأيت ذلك في شيوخه في الفقه، وبفترة وجيزة حفظ الفقه وأتقنه، وعرف قواعده وأصوله، وفهم مخابئه وألغازه، وبرع في معرفة أدلته حتى عرف بذلك بين العامة والخاصة، ثم قفز فتساوى مع شيوخة، ولم يمض كبير وقت حتى كان أعلم علماء عصره وأحفظهم للمذهب وأتقنهم لأقوال علمائه، وأعرفهم بعلم الخلاف وأحقهم بأن يكون: محرر المذهب.

وانتشر في الآفاق، وتعلق الطلبة والعلماء بتأليفه، فانتفعوا بها، وما يزال الناس ينتفعون بكتبه، ويؤثرونها، وهاك طرفا مما قاله العلماء في فقهه.

يقول الإسنوي في طبقاته: وهو - أي النووي - محرر المذهب، ومنقحه ومرتبه، سار في الآفاق ذكره وعلا في العلم محله وقدره.

ويقول ابن كثير عنه: شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه.

ويقول الذهبي: وكان رأسا في معرفة المذهب.

ويقول قاضي صفد - محمد بن عبد الرحمن العثماني - في ترجمته من الطبقات الكبرى له عن النووي: شيخ الإسلام، بركة الطائفة الشافعية، محيي المذهب ومنقحة، ومن استقر العمل بين الفقهاء على ما يرجحه.

ويقول الشهاب أبو العباس بن الهائم في مقدمة البحر العجاج شرح المنهاج: الإمام العلامة الحافظ الفقيه النبيل محرر المذهب ومهذبه وضابطه ومرتبه.

ويقول تلميذه ابن العطار: كان حافظا للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه ومذاهب الصحابة والتابعين واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر سالكا في كلها طريقة السلف.

شيوخه:

شيوخه في الفقه:

1- عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري، تاج الدين، عُرف بالفِرْكاح، توفي سنة 690 هـ.

2- إسحاق بن أحمد المغربي، الكمال أبو إبراهيم، محدّث المدرسة الرواحيّة، توفي سنة 650 هـ.

2 -عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي ثم الدمشقي، أبو محمد، مفتي دمشق، توفي سنة 654 هـ.

4- سلاَّر بن الحسن الإربلي، ثم الحلبي، ثم الدمشقي، إمام المذهب الشافعي في عصره، توفي سنة 670 هـ.

شيوخه في الحديث:

1- إبراهيم بن عيسى المرادي، الأندلسي، ثم المصري، ثم الدمشقي، الإمام الحافظ، توفي سنة 668 هـ.

2- خالد بن يوسف بن سعد النابلسي، أبو البقاء، زين الدين، الإمام المفيد المحدّث الحافظ، توفي سنة 663 هـ.

3- عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري، الحموي، الشافعي، شيخ الشيوخ، توفي سنة 662 هـ.

4- عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدامة المقدسي، أبو الفرج، من أئمة الحديث في عصره، توفي سنة 682 هـ.

5- عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد الحرستاني، أبو الفضائل، عماد الدين، قاضي القضاة، وخطيب دمشق. توفي سنة 662 هـ.

6- إسماعيل بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي اليُسْر التنوخي، أبو محمد تقي الدين، كبير المحدّثين ومسندهم، توفي سنة 672 هـ.

7- عبد الرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري، ثم الدمشقي الحنبلي، المفتي، جمال الدين. توفي سنة 661 هـ.

ومنهم : الرضي بن البرهان، وزين الدين أبو العباس بن عبد الدائم المقدسي، وجمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي الفتح الصيرفي الحرّاني، وأبو الفضل محمد بن محمد بن محمد البكري الحافظ، والضياء بن

تمام الحنفي، وشمس الدين بن أبي عمرو، وغيرهم من هذه الطبقة.

شيوخه في علم الأصول:

أما علم الأصول، فقرأه على جماعة، أشهرهم: عمر بن بندار بن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشافعي، أبو الفتح. توفي سنة 672 هـ.

شيوخه في النحو واللغة:

وأما في النحو واللغة، فقرأ على:

الشيخ أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي، أبي العباس، توفي سنة 664 هـ.

والفخر المالكي.

والشيخ أحمد بن سالم المصري.

مسموعاته:

سمع النسائي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، والدارمي، وأبي عوانة الإسفراييني، وأبي يعلى الموصلي، وسنن ابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي، وشرح السنّة للبغوي، ومعالم التنزيل له في التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار، والخطب النباتية، ورسالة القشيري، وعمل اليوم والليلة لابن السني، وكتاب آداب السامع والراوي للخطيب البغدادي، وأجزاء كثيرة غير ذلك.

تلاميذه:

وكان ممّن أخذ عنه العلم: علاء الدين بن العطار، وشمس الدين ابن النقيب، وشمس الدين بن جَعْوان، وشمس الدين بن القمَّاح، والحافظ جمال الدين المزي، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، ورشيد الدين الحنفي، وأبو العباس أحمد بن فَرْح الإشبيلي، وخلائق.

مصنفاته رحمه الله:

لم يمض على الإمام النووي كبير وقت في الطلب حتى أحس في نفسه أهلية التأليف فشرع في الإسهام بالمؤلفات النافعة ابتداءًا من عام ستين وستمائة كما قال الجمال الإسنوي - رحمه اله تعالى: لما تأهل للنظر والتحصيل رأى في المسارعة إلى الخير أن جعل ما يحصله ويقف عليه تصنيفا ينتفع به الناظر فيه، فجلع تصنيفه تحصيلا، وتحصيله تصينفا قال: وهو غرض صحيح، وقصد جميل قال : ولو لا ذلك لم يتيسر له من التصنيف ما تيسر له " والإسنوي يشير بهذا إلى كثرة مؤلفاته، التي عجت به (المكتبات، وحققت رغة أولي الرغبات، ولا ريب فقد أربت مؤلفاته على الخمسين مؤلفا، هذا ما ذكر منها ولعل ما لم يذكر منها أكثر، وقد قيل: إن تصنيفه بلغ كل يوم كراستين أو أكثر.

فقد حكى عنه تلميذه ابن العطار أنه أمره ببيع نحو ألف كراسة كان قد كتبها بخطه بعد أن يقف على غسلها في الوراقة وخوفه إن خالف أمره، قال: فما أمكنني إلا طاعته وإلى الآن في قلبي حسرات.

مؤلفاته في الحديث:

- شرح مسلم (بالمنهاج شرح صيحي مسلم بن الحجاج)

- رياض الصالحين - الأربعين النووية:

- خلاصة الأحكام من مهمات السنن وقواعد الإسلام

- شرح البخاري - كتب منه جزءا يسيرا ولم يستكمله.

- الأذكار المسمى بـ " حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار "

وفي علوم الحديث : الإرشاد، والتقريب والإشارات إلى بيان الأسماء المبهمات.

في الفقه:

روضة الطالبين - المجموع شرح المهذب ولم يستكمله، وقد أكمله السبكي والمطيعي.

- المنهاج والإيضاح والتحقيق.

- التربية والسلوك:

التبيان في أداب حملة القرآن وبستان العارفين.

- التراجم والسير:

تهذيب الأسماء واللغات - وطبقات الفقهاء.

اللغة: القسم الثاني من تهذيب الأسماء واللغات وتحرير التنبيه.

وقد حازت كتبه كلها القبول والرضا لدى الكافة والجميع من أهل العلم ينهل من معينها، ولا ترى أحدا يأنف من الرجوع إليها، بل أن

من رجع إليها فقد عضد رأيه وقوى حجته، وما من إنسان يقف على مؤلفاته إلا لهج بمدحه والثناء والترحم عليه، جزاء خدمته للعلم وأهله بتلك المصنفات المتقنة، فرحمه الله رحمة واسعة.

وفاته رحمه الله وما قيل في رثائه:

وكما كان حظ إمامنا النووي من الدنيا قليلا، فلم ينل منها ولم تنل منه، وكانت كلها للعم والعبادة والتصنيف والزهادة، كذلك كان بقاؤه في الدنيا قليلا، فلم يعمر فيها طويلا ولم يبن الدور ولا سكن القصور، وإنما عاش على الكفاف والعفاف وسط الكتب وفي مدارس العلم الشرعي يفيد ويستفيد إلى أن أدركته منيته ولم يحقق أمنيته ولم يشبع نهمته من العلم النافع والعمل الصالح، وكانت آماله في التصنيف والإفادة أطول من سنى عمره، فلم يستكمل كثيرا من الكتب التي شرع فيها وخاصة المجموع شرح المهذب، ومن أكمله لم يبلغ علمه وإتقانه وإحسانه، فرحم الله الجميع، ولا غرو في ذلك، فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فنسأل الله - تعالى - أن يرفع درجة إمامنا النووي فوق كثير من خلقه، وأن ينفعه بما ترك من علم نافع وسلامة سريرة، وحسن سيرة.

قال ابن العطار: فبلغني مرضه، فتوجهت من دمشق لعبادته، فسر بذلك، ثم أمرني بالرجوع إلى أهلي، فودعته بعد ما أن أشرف على العافية في يوم السبت العشرين من رجب فلما كانت الليلة الثالثة في الرابع والعشرين منه سنة ست وسبعين وستمائة للهجرة انتقل إلى جوار ربه - رحمه الله تعالى -.

قال ابن العطار: وكان قبل قوله أذن لي في السفر بأيام يسيرة، أرمل إليه فقير إبريقا فقبله وقال: قد أرسل إلى فقير آخلا زنبيلا، قال: وهذا إبريق وذلك ألة السفر.

وقال التاج الدين السبكي في الطبقات الوسطى ونقله السخاوي:

إنه قبل ظهوره إلى نوى رد الكتب المستعارة من الأوقاف جميعها.

وحكى اللخمي عن غير واحد من العلماء بدمشق أنه لما خرج منها إلى نوى خرج معه جماعة العلماء وغيرهم لظاهر دمشق، وسألوه متى الاجتماع؟ فقال: بعد مائتي سنة فعلموا أنه عني القيامة.

وقال القطب اليونيني: ولما وصل الخبر بوفاته لدمشق توجه قاضي القضاة عز الدين محمد بن الصائغ وجماعة من أصحابه إلى نوى للصلاة على قبره.

يقول الذهبي: ورثاه غير واحد يبلغون عشرون نفسا بأكثر من ستمائة بيت.

فمن رثاه الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مصعب، وأول قصيدته:

أكتم حزني والمدامع تبديه ⁝ لفقد امرئ كل البرية تبكيه

وممن رثاه الأديب المحدث أبو الحسن على بن إبراهيم بن المظفر الكندي، وأول مرثيته:

لهفي عليه سيدا حصور ا ⁝ سندا لأعلام الهدى وظهيرا

تعدادها واحد وثلاثون بيتا أولها:

رزية محيي الدين قد عمت الورى :: **فلست ترى إلا حزينا مفكرا**

وممن رثاه بقصيدة تعدادها عشرة أبيات تلميذه الفقيه المقرئ أبو العباس أحمد الضرير الواسطي الملقب بالخلال وأولها:

لقد ذهب الحبر الجليل الموفق :: **وعدنا حيارى والدموع تدفق**

وممن رثاه بعض المحبين - كما يقول ابن العطار - بقصيدة تعدادها أربعون بيتا أولها:

وجدت عليك شرائع الإسلام :: **أسفا يلازمها مدى الأيام** [1]

* * *

(1) المصدر: مقدمة كتاب الأذكار ، مقدمة كتاب روضة الطالبين وعمدة المفتين للإمام النووي، السيوطي، المنهاج السوي في ترجمة محيى النووي طبعة دار التراث الأولى 1409 هـ تحقيق: د. محمد العيد الخطراوي.

الحافظ ابن حجر العسقلاني

أعـلام الحديـث

الحافظ ابن حجر العسقلاني

هو شهاب الدين، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الكناني، العسقلاني، الشافعي، المصري المولد والمنشأ والدار، والوفاة، القاهري.

والعسقلاني: نسبة إلى " عسقلان " وهي مدينة بساحل الشام من فلسطين، والظاهر أن القبيلة التي ينتمي إليها الحافظ ابن حجر كانت قد استقرت في عسقلان، وما جاورها إلى أن نقلهم " صلاح الدين الأيوبي " عندما خربها ما بين " 580- 583 هـ " على أثر الحروب الصّليبية.

وقال ابن حجر:

وبمصر مولده وأصل جدوده ⁞ من عسقلان المقدسية قد بدي

اشتهاره بابن حجر:

لقد اشتهر بـ " ابن حجر " واختلفت المصادر في اعتباره اسماً أو لقباً.

كان مولده في شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة على شاطىء النيل بمصر القديمة وقال:

شعبان عام ثلاثة من بعد سبع ⁞ مائة وسبعين اتفاق المولد

وكان المنزل الذي ولد فيه يقع بالقرب من دار النحاس ولبث فيه إلى أن تزوج بأم أولاده، فسكن بقاعة جدها منكوتمر المجاورة

لمدرسته
" المنكوتمرية " داخل باب القنطرة بالقرب من حارة بهاء الدين واستمر بها حتى مات.

نشأ الحافظ ابن حجر يتيماً ـ كما عبر هو عن نفسه ـ إذ مات أبوه في رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل.

وقال: " تركني ولم أكمل أربع سنين، وأنا الآن أعقله كالذي يتخيل الشيء ولا يتحققه، وأحفظ عنه أنه قال: كنية ولدي أحمد أبو الفضل "، ولم يكن من يكفله، وكان والده قد أوصى قبل وفاته بولده اثنين من الّذين كانت بينه وبينهم مودّة ويبدو أن علياً كان حفيّاً بولده أحمد، فهو الذي كناه واصطحبه عندما حج وزار بيت المقدس وجاور، ويظن الحافظ ابن حجر أن أباه أحضره في مجاورته مجالس الحديث وسمع شيئاً ما، غير أن المنية اختارته ولم يسعد بولده الذي صار له فيما بعد شأن عظيم.

وأصبح اليتيم في وصاية زكي الدين أبي بكر بن نور الدين علي الخروبي، وكان تاجراً كبيراً بمصر، وورث مالاً كثيراً وأصبح رئيساً للتجار، كما أوصى به والده العلامة شمس الدين بن القطان الذي كان له بوالده اختصاصاً لكنه لم ينصح له في تحفيظه الكتب وإرشاده إلى المشايخ والاشتغال حتى أنه كان يرسل بعض أولاده إلى كبار الشيوخ... ولا يعلمه بشيء من ذلك.

وقال عن ابن حجر: وكان له اختصاص بأبي فأسند إليه وصيته فلم يحمد تصرفه.

وتشير المصادر إلى أن نشأة الحافظ ابن حجر كانت برغم ذلك - في غاية العفة والصيانة والرياسة، وأن الخروبيّ المذكور لم يأل جهداً في رعايته والعناية بتعليمه فكان يستصحبه معه عند مجاورته في مكة، وظل يرعاه إلى أن مات سنّة 787هـ وكان الحافظ ابن حجر قد راهق ولم تعرف له صبوة ولم تضبط له زلّة.

ولم يدخل الكُتّاب حتى أكمل خمس سنين فأكمل حفظ القرآن الكريم وله تسع سنين ومن الذين قرأ عليهم في المكتب شمس الدين بن العلاف الذي ولي حسبة مصر وقتاً وغيره.

وأكمل حفظه للقرآن على صدر الدين محمد بن محمد بن عبد الرزاق السفطي، وكان الاتجاه الثقافي السائد آنذاك يقتضي من الذي يستظهر القرآن أن يصلي بالناس إماماً في صلاة التراويح في ليالي شهر رمضان، غير أن هذه الفرصة لم تتهيأ لابن حجر الصّبي النّابه الذي حفظ القرآن ولم يزل في التاسعة من عمره، وهذه في الحقيقة مسألة شرعية حيث لا تجزىء صلاة المؤتمين إن لم يكن إمامهم بالغاً، ومع الاختلاف النسبي في تحديد سن البلوغ، فإن السنّة الثانية عشرة من عمر الصبي كانت تتيح له على ما يظهر أن يصلي إماماً بالمسلمين إن هو حفظ القرآن الكريم، فكان عليه أن ينتظر بلوغ هذه السن.

وفي أوّل سنة 783 اشتغل بالإعادة، وفي سنّة 785 أكمل الحافظ ابن حجر اثنتي عشرة سنة من عمره، ومن حسن حظه أن يكون متواجداً حينئذ مع وصية الزكي الخرّوبي في مكة في تلك السنة فصلى التراويح هناك.

ويمكن تصور بوادر نبوغه وشجاعته، فبقدر ما كانت مفخرة له كصبي يتقدّم إماماً بالمسلمين في بيت الله الحرام فإنها كانت لحظة حاسمة وحرجة اجتازها بثبات وحسن أداء، فكانت الخيرة له في ذلك كما قال، وكان الحج يومئذ يوم الجمعة فحج وجاور في الحرم الشريف ثم صلّى بعد ذلك بالقدس.

ويظهر من استقراء تراجم الذين عاشوا في عصر الحافظ ابن حجر أن تقليداً ثقافياً كان يسود بين أوساط التلاميذ الذين يدخلون بالكتّاب وذلك بإلزام التلاميذ بالتدرج في حفظ بعض مختصرات العلوم والكتب وسماع بعضها الآخر، وهي التي اتفق العلماء آنذاك اعتبارها أساساً في بناء ثقافة طلاب العلم، وكان حفظها أو سماعها يتم بإشراف أساتذة كفاة بارزين في حقول اختصاصهم أو ما يقرب منها.

وإذا كانت ثقافة الحافظ ابن حجر تقليدية في أسلوبها فهي ليست كذلك في مكوّناتها، نظراً لقائمة الكتب المهمة التي كوّنت ثقافته بادىء ذي بدء.

وبعد أن حفظ القرآن الكريم ظهرت مخايل الذكاء الفطري جلية عليه ما لبث أن استكملها بالتتبع والتحصيل حتى صار حافظ عصره وشيخ الإسلام.

وحفظ بعد رجوعه مع الخروبي إلى مصر سنّة 786 " عمدة الأحكام " للمقدسي، و" الحاوي الصّغير " للقزويني و" مختصر ابن الحاجب " الأصلي في الأصول، و " ملحة الإعراب " للهروي، و " منهج الأصول " للبيضاوي وألفيّة العراقي وألفيّة ابن مالك، والتنبيه

في فروع الشافعية للشيرازي وتميز بين أقرانه بسرعة الحفظ فأشار مترجموه إلى أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد، وكان يحفظ الصحيفة من الحاوي الصغير في ثلاث مرات يصححها ويقرؤها على نفسه ثم يقرؤها أخرى ثم يعرضها حفظاً، وكانت له طريقته الخاصة في الحفظ، حدث عنها تلامذته فهو لم يكن يحفظ بالدرس، وإنما بالتأمّل، وصرف همته نحو ما يروم حفظه، وقد وصف السّخاوي هذه الطريقة بأنها طريقة الأذكياء.

وسمع " صحيح البخاري " سنة 785 هـ على مسند الحجاز عفيف الدين عبد الله النشاوري، وكأنه نسي تفاصيل سماعه منه، لكنه كان يتذكر أنه لم يسمع جميع الصحيح، وإنما له فيه إجازة شاملة وقد بين ذلك ابن حجر بقوله: " والاعتماد في ذلك على الشيخ نجم الدين المرجاني فإنه أعلمني بعد دهرٍ طويل بصورة الحال فاعتمدت عليه وثوقاً به ".

وقرأ بحثاً في عمدة الأحكام على الحافظ الجمال بين ظهيرة عالم الحجاز سنة 785هـ، وكان عمره اثنتي عشرة سنة.

واجتهد في طلب العلم فاهتم بالأدب والتاريخ وهو ما يزال في المكتب فنظر في التواريخ وأيام الناس، واستقر في ذهنه شيء من أحوال الرواة، وكان ذلك بتوجيه رجل من أهل الخير سماه ابن حجر للسخاوي إلا أن السخاوي نسيه.

وسمع في فتوته من المُسنِد نجم الدين أبي محمد عبد الرحيم بن رزين بن غالب " صحيح البخاري " بقراءة الجمال بن ظهيرة سنة ست وثمانين وسبعمائة بمصر، وفاته شيء يسير، كما سمع الصحيح

أيضاً من أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك الغزي وغيرهما.

وبلغ به الحرص على تحصيل العلم مبلغاً جعله يستأجر أحياناً بعض الكتب، ويطلب إعارتها له، يبرز في هذا المجال من بين شيوخه بدر الدين البشتكي الشاعر المشهور الذي أعاره جملة من الكتب منها كتاب " الأغاني " لأبي الفرج الأصبهاني وغيره.

ويبدو من خلال الاستقراء أن فتوراً حصل في نشاطه الثقافي استمر إلى أول سنة تسعين وسبعمائة، اشتغل في هذه المدة بالتجارة فنشأ في وسط تجاري لأن جده وأعمامه كانوا تجاراً، وكان وصيه الخروبيّ رئيساً للتجار في مصر.

ولعل لموت الخرّوبي سنة 787هـ أثراً في فتور ابن حجر واشتغاله بالتجارة حيث فقد من كان يحثه على الاشتغال بالعلم، وهو في مرحلة يحتاج فيها إلى ذلك، كما ترتب عليه أن يكفل نفسه وينهض بأعباء الحياة، وقد يتضح ذلك من قول السخاوي، ولو وجد من يعتني به في صغره لأدرك خلقاً ممن أخذ عن أصحابهم.

في سنة 790 هـ أكمل السّابعة عشرة من عمره، وحفظ فيها القرآن الكريم وكتباً من مختصرات العلوم، وقرأ القراءات تجويداً على الشهاب أحمد الخيوطي، وسمع صحيح البخاري على بعض المشايخ كما سمع من علماء عصره البارزين واهتم بالأدب والتاريخ.

وقد لازم حينئذ أحد أوصيائه العلامة شمس الدين محمد بن القطان المصري، وحضر دروسه في الفقه والعربية والحساب وغيرها، وقرأ عليه شيئاً من الحاوي الصغير فأجاز له ثم درس ما جرت العادة على

دراسته من أصل وفرع ولغة ونحوها وطاف على شيوخ الدراية.

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره نظر في فنون الأدب، ففاق أقرانه فيها حتى لا يكاد يسمع شعراً إلا ويستحضر من أين أخذ ناظمه، وطارح الأدباء.

وقال الشعر الرّائق والنثر الفائق، ونظم المدائح النبوية والمقاطيع.

وتمثل سنة 793 منعطفاً ثقافياً في حياة ابن حجر، فمن هذه الثقافة العامة والسعة، واجتهاده في الفنون التي بلغ فيها الغاية القصوى أحس بميل إلى التخصص فحبّب الله إليه علم الحديث النبوي فأقبل عليه بكليته.

وأوضحت المصادر أن بداية طلبه الحديث كان في سنة 793 هـ وغير أنه لم يكثر إلا في سنة 796هـ وكتب بخطه: "... رفع الحجاب، وفتح الباب، وأقبل العزم المصمم على التحصيل، ووفق للهداية إلى سواء السبيل " فكان أن تتلمذ على خيرة علماء عصره.

وكان شيخه في الحديث زين الدين العراقي الذي لازمه عشر سنوات، وحمل عنه جملة نافعة من علم الحديث سنداً ومتناً وعللاً واصطلاحاً، فقرأ عليه ألفيته وشرحها فنون الحديث وانتهى منهما في رمضان سنة 798هـ بمنزل شيخه المذكور بجزيرة الفيل على شاطىء النيل، كما قرأ عليه نكته على ابن الصلاح في مجالس آخرها سنة 799هـ، وبعض الكتب الكبار والأجزاء القصار، وحمل جملة مستكثرة من " أماليه " واستملى عليه بعضها وهو أول من أذن له بالتدريس في علوم الحديث عام 797هـ.

وقرأ على مُسْنِدي القاهرة ومصر الكثير في مدة قصيرة فوقع له سماع متصل عال لبعض الأحاديث.

وكانت أسرة الحافظ ابن حجر تجمع بين الاشتغال بالتجارة والاهتمام بالعلم، فكان عم والده فخر الدين عثمان بن محمد بن علي الذي عرف بابن البزاز وبـ " ابن حجر " قد سكن ثغر الإسكندرية وانتهت إليه رئاسة الإفتاء هناك على مذهب الإمام الشافعي وتفقه به جماعة منهم الدّمنهوري، وابن الكويك، وكان له ولدان هما ناصر الدين أحمد، وزين الدين محمد، وكانا من الفقهاء.

أما جده قطب الدين محمد بن محمد بن علي فلقد كان بارعاً رئيساً تاجراً، حصل على إجازات من العلماء، وأنجب أولاداً منهم كمال الدين، ومجد الدين، وتقيّ الدين وأصغرهم وليّ الدين ثم نور الدين علي، وهو والد ابن حجر الذي انصرف من بينهم لطلب العلم أما إخوته فكانوا تُجاراً.

ويبدو من خلال سيرة نور الدين على أنه مع اشتغاله بالتجارة عكف على الدرس وتحصيل العلوم فتفقه على مذهب الإمام الشافعيّ وحفظ الحاوي الصغير، وأخذ الفقه عن محمد بن عقيل وأجازه، وسمع من أبي الفتح بن سيد الناس وطبقته وله استدراك على الأذكار للنووي فيه مباحث حسنة، وعدّة دواوين شعر منها ديوان الحرم فيها مدائح نبوية، وكان معنياً بالنظم ذا حظ جيّد في الأدب.

وقال ابن حجر عن أبيه: " لم يكن له بالحديث إلمام ونظمه كثير سائر " ووصفته المصادر بالعقل والدّيانة والأمانة ومكارم الأخلاق، وصحبة الصّالحين، ونوّهت بثناء ابن القطان وابن عقيل والوليّ

العراقي عليه، وناب في القضاء، وأكثر من الحج والمجاورة وصنف، وأجيز بالإفتاء والتدريس والقراءات السبع وتطارح مع ابن نباتة المصري والقيراطي، وتبادل معهما المدائح.

كان مولده في حدود سنة 820 هـ في رجب سنة 777 هـ.

أما والدته فهي تجار ابنة الفخر أبى بكر بن شمس محمد بن إبراهيم الزفتاوي، أخت صلاح الدّين أحمد الزفتاوي الكارمي صاحب القاعة الكائنة بمصر تجاه المقياس.

وكانت له أخت، ترجم لها في " إنباء الغمر " و" المجمع المؤسس " وهي ست الركب بنت علي بن محمد بن محمد بن حجر، وكانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء، أثنى عليها وقال: " كانت أمي بعد أمي، أصبت بها في جمادى الآخرة من هذه السنّة " أي سنة 798هـ.

وذكر السّخاوي تحصيلها الثقافي وإجازتها، وزواجها، وأولادها كما ذكر الحافظ ابن حجر شيوخها وإجازتها من مكة ودمشق وبعلبك ومصر وقال: " وتعلّمت الخط وحفظت الكثير من القرآن، وأكثرت من مطالعة الكتب فمهرت في ذلك جدّاً... وكانت بي برة رفيقة محسنة، وقد رثاها أخوها الحافظ ابن حجر في قصيدة، وكان له أخ من أمه اسمه عبد الرحمن بن الشهاب أحمد بن محمد البكري، ترجم له في إنبائه وقال: إنه مهر وحصّل مالاً أصله من قبل أمه - وهي والدتي - فقدر الله موته فورثه أبوه.

تزوّج الحافظ ابن حجر عند ما بلغ عمره خمساً وعشرين سنة، وذلك في سنّة 798 من أنس ابنة القاضي كريم الدين عبد الكريم بن عبد العزيز ناظر الجيش، وتنتمي أنس إلى أسرة معروفة بالرئاسة والحشمة والعلم.

وكان ابن حجر حريصاً على نشر الثقافة والعلم بين أهل بيته وأقاربه كحرصه على نشر العلم بين الناس، وسيتضح ذلك في دراسة جهوده في التدريس وعقده لمجالس الإملاء.

فأسمع زوجته من شيخه حافظ العصر عبد الرحيم العراقي الحديث المسلسل بالأولية، وكذا أسمعها إياه من لفظ العلامة الشرف ابن الكويك، وأجاز لها باستدعاء عدد من الحفاظ فيهم أبو الخير بن الحافظ العلائي، وأبو هريرة عبد الرحمن بن الحافظ الذهبي، ولم تكن الاستدعاءات بالإجازة لها لتقتصر على المصريين بل من الشاميين والمكيين واليمنيين، وكان الحافظ ابن حجر في حالة الاستدعاء لها بدون أسماء من ولدن من بناتها اللاتي ولدن تباعاً.

وحجت صحبة زوجها في سنة 815 هـ كما حجت وجاورت بعد ذلك وحدثت بحضور زوجها، وقرأ عليها الفضلاء، وكانت تحتفل بذلك وتكرم الحاضرين، وقد خرج لها السخاوي أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً، وقرأها عليها بحضور زوجها، وكان الحافظ ابن حجر قد أسلف لها بالإعلام بذلك على سبيل المداعبة بقوله: قد صرت شيخة إلى غير ذلك، وكانت كثيرة الإمداد للعلامة إبراهيم بن خضر بن أحمد العثماني العلامة المنفس الذي كان يقرأ لها " صحيح البخاري " في رجب وشعبان من كل سنة، وتحتفل يوم الختم بأنواع من الحلوى والفاكهة، ويهرع الكبار والصغار لحضور ذلك اليوم قبيل

رمضان بين يدي زوجها الحافظ، ولما مات الحافظ ابن خضر قرأ لها سبطها يوسف بن شاهين، ولم تضبط لها هفوة ولا زلّة.. وكان زوجها يكن لها الاحترام الكبير كما كانت هي عظيمة الرعاية له. فولدت له عدة بنات زين خاتون وفرحة، وعالية، ورابعة، وفاطمة، ولم تأت منه بذكر، وكانت كلّما حملت ذكراً ولد قبل أوانه ميتاً.

وتمر السنوات ثقيلة متباطئة، وتتدافع في نفسه أمور متنافرة يحترم أم أولاده ويرعاها، غير أنه شاء الله لها أن لا تلد إلا إناثاً، أما الذكور فيموتون، بيد أنه أحب أن يكون له ولد، فاختار التسري، وكانت لزوجته جارية يقال: إن اسمها خاص نزل، فأظهر غيظاً بسبب تقصيرها، وأقسم بأن لا تقيم بمنزله فبادرت أنس لبيعها، فأرسل شمس الدين بن الضياء الحنبلي فاشتراها له بطريق الوكالة وتزوّجها في مكان بعيد عن منزله، فحملت بولده الوحيد بدر الدين بن المعالي محمد المولود في الثامن عشر من صفر سنة 815 هـ وكانت العقيقة في منزل أنس، ولم تشعر بذلك إلى قبل انفصال الولد عن الرضاع، فلما علمت أنس ذهبت هي وأمها إلى مكان وجود الولد وأمه وأحضرتها معها إلى منزلها وأخفت أمرهما. ولما حضر الحافظ ابن حجر استجوبته زوجته أنس فما اعترف ولا أنكر بل روى بما يفهم منه الإنكار، ثم قامت فأخرجت الولد وأمه فأسقط في يده.

وعاتبته عتاباً مرّاً، فاعتذر بميله للأولاد الذكور، ودعت عليه ألاَّ يرزق ولداً عالماً، فتألم لذلك وخشي من دعائها، وقال لها: أحرقت قلبي أو شيئاً من هذا القبيل؛ لأنها كانت مجابة الدّعاء.

وبعد وفاة الحافظ ابن حجر أرسل لها علم الدين البلقيني على يد ولده أبي البقاء يطلب الزواج منها، وقيل: إنها لم تكن تأبى ذلك لكن

عصم الله ـ كما قال السخاوي: ببركة شيخنا ـ فلم تتزوّجه.

كما تزوج الحافظ ابن حجر أرملة الزين أبي بكر الأمشاطي بعد وفاته، وذلك عند مجاورة أم أولاده سنة 834هـ ورزق منها في رجب سنة 835 ابنة سماها آمنة، لم تعش طويلاً حيث ماتت في شوال 836هـ، وبموتها طلقت أمها لأنه علّق طلاقها عند سفره إلى آمد على موتها. كما تزوج الحافظ ابن حجر من ليلى ابنة محمود بن طوعان الحلبية عندما سافر مع الأشرف سنة 836هـ إلى آمد. وكان زواجه منها في حلب، واستمرت معه إلى أن سافر من حلب ففارقها دون أن يعلمها بالطلاق، لكن أسرّه إلى بعض خواصه، والتمس منه ألا يعلمها بذلك، وكان يريد أن يختبر ولاءها، ولأنها قد لا تطيق أن تترك حلب وتسافر معه إلى مصر، ثم راسل بعض أصدقائه الحلبيين في تجهيزها إن اختارت ويعلمها بأن الذي يحمله على الطلاق هو الرفق بها لئلا تختار الإقامة بحلب أو يحصل لها نصيبها فلا تتضرّر، وجاء في الكتاب الذي قرأه السخاوي بخطه وصفه لها بأنها نعم المرأة عقلاً وحسن خلق وخُلق ويعدها بكل جميل وأنها إن قدمت ينزلها أحسن المنازل... فامتثلت إشارته وتجهزت حتى قدمت عليه إلى مصر... واستمرت معه حتى مات، وكان قد أسكنها في بيت خاص.. ويأتي إليها في يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، ولم يرزق منها أولاداً، وكان شديد الميل إليها حتى قال فيها شعراً.

أما أولاده فهم خمس بنات وولد واحد، وهم: زين خاتون، وفرحة، وعالية، ورابعة وفاطمة وبدر الدين محمد.

فكانت " زين خاتون " هي البكر، ومولدها في ربيع الآخر سنة 802، فاعتنى بها واستجاز لها في سنة ولادتها وما بعدها خلقاً وأسمعها على شيوخه كالعراقي والهيثمي وأحضرها على ابن خطيب داريا، ثم تزوّجها الأمير شاهي العلائي الكركي الذي صار داودارا ً عند المؤيد مدة، فولدت له عدة أولاد ماتوا كلهم في حياة أمهم، ولم يتأخر من أولادها إلاَّ أبو المحاسن يوسف بن شاهين المعروف كسبط ابن حجر، وكانت قد تعلمت القراءة والكتابة وماتت - وهي حامل - بالطاعون سنة 833 هـ. وأما " فرحة " فكان مولدها في رجب سنة 804، واستجيز لها مع أمها، وتزوجها شيخ الشيوخ محب الدين بن الأشقر الذي ولي نظر الجيش وكتابة السّر، وكان أحد الأعيان في الديار المصرية فولدت له ولداً مات صغيراً في حياة أمه التي كانت وفاتها سنّة 828 هـ بعد أن رجعت من الحج مع زوجها موعوكة. وأما " عالية " فكان مولدها سنة 807هـ واستجيز لها جماعة وماتت هي وأختها فاطمة في الطّاعون سنة 819 مع من مات من أفراد أسرة أبويهما. وأما " رابعة " فكان مولدها سنة 811 وأسمعها والدها علي المراغي بمكة سنة 815هـ وأجاز لها جمع من الشاميين والمصريين وتزوجها الشهاب أحمد بن محمد بن مكنون، واستولدها بنتاً سماها " عالية " ماتت في حياتيهما، ومات عنها زوجها سنّة 830 هـ فتزوجها المحب بن الأشقر حتى ماتت عنه في سنة 832هـ، وعمل صداقها في أرجوزة.

أما ولده الوحيد بدر الدين أبو المعالي محمد فكان والده حريصاً على تعليمه وتهذيبه، فحفظ القرآن وصلّى بالناس كما كانت العادة جارية في سنة 826، وأسمعه الحديث على الواسطي وجماعة وأجاز له

باستدعاء والده منذ مولده سنة 815هـ فما بعد عدد من كبار المسندين ذكرهم والده في معجم شيوخه.

وبلغ من حرصه واهتمامه به بعد أن صنف كتابه: " بلوغ المرام من أدلة الأحكام " لأجله، لكنه لم يحفظ إلا اليسير منه وكتب عن والده كثيراً من مجالس الإملاء وسمع عليه شيئاً كثيراً واشتغل بأمر القضاء والأوقاف مساعداً لوالده، حتى صارت له خبرة بالمباشرة والحساب... واشتدت محبة والده له.

وولي في حياة أبيه عدة وظائف أجلها مشيخة البيبرسية وتدريس الحديث بالحسنية ناب عنه فيهما والده، والإمامة بجامع طولون وغير ذلك.

وفد وصفه ابن تغري بردي بالجهل، وسوء السيرة، ولم يرض ذلك السخاوي فرد عليه مُفيداً بأنه كان حسن الشكالة متكرّماً على عياله قل أن يكون في معناه، لكن السخاوي أشار في موضوع آخر إلى محنة الحافظ ابن حجر بسبب ولده وما نسب إليه من التصرف في أموال الجامع الطولوني بالاشتراك مع آخرين، واحتجز رهن التحقيق، وكان والده في ضيق صدر زائد وألم شديد بسببه وتأوّه كثيراً وكل يوم يسمع من الأخبار ما لم يسمعه بالأمس، وكان يتوجه إليه في يوم الجمعة يوماً أو أكثر إلى المكان الذي يكون فيه فيرجع.. وهو مسرور لما يرى من ثبات ولده وقوة قلبه وشجاعته وانتظام كلامه ومهارته، إلى أن تبين أن ما أشيع عنه مجرد اتهام، ولذلك عمل الحافظ ابن حجر جزءاً سماه
" ردع المجرم عن سب المسلم " ويبدو أن القاضي ولي الدين السفطي كان له دور مهم في محنة الحافظ ابن حجر بسبب ما كان

بينهما من المنافسة على القضاء فكانت هذه الحادثة سبباً في زهد الحافظ ابن حجر في القضاء.

ابن حجر المحدث وخطيب الأزهر:

تولى ابن حجر الخطابة في عدة مساجد من أكبر المساجد بالقاهرة مثل الجامع الأزهر وجامع عمرو وغيرهما من المساجد الكبرى بالقاهرة فقد كان متبحراً في العديد من العلوم، وكان يفد إليه طلاب العلم وأهل الفضل من سائر الأنحاء، وكان يتسم بالحلم والتواضع والصبر كثير الصيام والقيام.

وكان مرجعاً في الحديث النبوي، حتى لقب بلقب " أمير المؤمنين " في الحديث وهذا اللقب لا يظفر به إلا أكبر المحدثين الأفذاذ وقد حبب إلى ابن حجر الحديث وأقبل عليه بكليته وطلبه من سنة ثلاث وتسعين ولكنه لم يلزم الطلب إلا من سنة ست وتسعين فعكف على الزين العراقي وتخرج به وانتفع بملازمته، وتحول إلى القاهرة فسكنها قبيل القرن وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية وأخذ عن الشيوخ والأقران وأذن له جل هؤلاء في الإفتاء والتدريس.

وتصدر لنشر الحديث وقصر نفسه عليه مطالعة وقراءة وإقراء وتصنيفاً وإفتاء وزادت تصانيفه التي معظمها في فنون الحديث وفيها من فنون الأدب والفقه - على مائة وخمسين تصنيفاً وقد عرف ابن حجر بالحفظ وكثرة الاطلاع والسماع وبرع في الحديث وتقدم في جميع فنونه وأثنى عليه شيوخه في هذا الشأن وقد سبق أنه ولي تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية وتدريس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة ثم تدريس الشافعية بالمؤيدة الجديدة ومشيخة البيبرسية في دولة المؤيد وتدريس الفقه بالمدرسة الصلاحية المجاورة للإمام

الشافعي، كما تولى الخطابة بالجامع الأزهر وبين التدريس والإفتاء ولي منصب القضاء، وكانت أول ولايته القضاء في السابع والعشرين من المحرم سنة سبع وعشرين وثمانمائة بعد أن امتنع أولاً لأنه كان لا يؤثر على الاشتغال بالتأليف والتصنيف شيئاً غير أن ابن حجر كما يقول السخاوي قد ندم على قبوله وظيفة القضاء ويقول ابن حجر: إن من آفة التلبس بالقضاء أن بعضهم ارتحل إلى لقائي وأنه بلغه تلبسي بوظيفة القضاء فرجع، وعزل عن القضاء وأعيد إليه مرات وكان آخر ولايته القضاء إذ عزل نفسه في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

شيوخه:

بلغ عدد شيوخه بالسّماع وبالإجازة وبالإفادة على ما بين بخطه نحو أربعمائة وخمسين نفساً، وإذا استثنينا الشيوخ الذين أجازوا عموماً فقد ترجم في " المجمع المؤسس " لأكثر من ستمائة شيخ، وذكر بعضهم أن عدد شيوخه بلغ ستمائة نفس سوى من سمع منه من الأقران.

واجتمع له من الشيوخ الذين يشار إليهم ويعول في حل المشكلات عليهم ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره؛ لأن كل واحد منهم كان متبحراً ورأساً في فنه الذي اشتهر به " فالبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع وابن الملقن في كثرة التصانيف والعراقي في معرفة علوم الحديث، ومتعلقاته، والهيثمي في حفظ المتون، واستحضارها والمجد الشيرازي في حفظ اللغة وإطلاعه عليها، والغماري في معرفة العربية ومتعلقاتها، وكذا المحب ابن هشام كان حسن التصرف فيها لوفور ذكائه، وكان الغماري فائقاً في حفظها، والإيناس في حسن

تعليمه وجودة تفهيمه، والعز بن جماعة في تفننه في علوم كثيرة بحيث كان يقول: أنا أقرأ في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها والتنوخي في معرفة القراءات وعلو سنده فيه.

شيوخ القراءات:

1- إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المؤمن التنوخي الشيخ برهان الدين الشامي " 709هـ - 800هـ " بلغ عدد شيوخه ستمائة شيخ بالسماع وبالإجازة يجمعهم معجمه الذي خرّجه له الحافظ ابن حجر ونزل أهل مصر بموته درجة، قرأ عليه الحافظ ابن حجر من أول القرآن " الفاتحة " إلى قوله " المفلحون " من سورة البقرة جامعاً للقراءات السبع ثم قرأ عليه الشاطبية تامة بسماعه لها على القاضي بدر الدين بن جماعة كما قرأ عليه الخلاصة للألفية من العربية نظم ابن عبد الله، فضلاً عن قراءته عليه " صحيح البخاري "، وبعض المسانيد، والكتب والأجزاء، وخرج له المائة العشرية، ثم الأربعين التالية لها، وأذن له بالإقراء
سنة 796هـ.

3 -محمد بن محمد بن محمد الدمشقي الجزري " 751- 833 " شيخ القراءات وأجاز له ولوالده محمد وحثه على الرّحلة إلى دمشق، حدث بكتابه " الحصن الحصين " في البلاد اليمنية، ومهر الجزري في الفقه إلا أن فنّه القراءات.

شيوخ الحديث:

1- عبد الله بن محمد بن محمد بن سليمان النيسابوري المعروف بالنشاوري " 705- 790هـ " وهو أول شيخ سمع عليه الحديث المسند فيما اتصل بعلمه، سمع عليه " صحيح البخاري " مع فوت بقراءة شمس الدين السلاّوي سنّة 785هـ بالمسجد الحرام بسماعه على الرضي الطبري على أنه شك في إجازته منه، وترك التخريج والرواية بتلك الإجازة وقال: " وفي المصرح به غني عن المظنون والله المستعان ".

2- محمد بن عبد الله بن ظهيرة المخزوميّ المكيّ جمال الدين " 751- 817 هـ " وهو أول من بحث عليه في فقه الحديث وذلك في مجاورته مع الخرّوبي بمكة سنة 785 وهو ابن اثنتي عشرة سنة، حيث قرأ عليه بحثاً في عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني المقدسي، ثم كان أول من سمع بقراءته الحديث بمصر سنة 786، وسمع عليه كتباً أخرى.

3- عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي أبو الفضل زين الدين الحافظ الكبير " 725- 806هـ " وأول ما اجتمع به سنة 786 فقرأ عليه ثم فتر عزمه، كما وضح فيما فات، ثم لازمه عشر سنوات وتخرج به وهو أوّل من أذن له بالتدريس في علوم الحديث في سنّة 797هـ، وحضر مجالس إملائه، وقرأ عليه كتابه " الأربعين العشارية " من جمعه واستملى عليه الحافظ ابن حجر في غياب ولده أبي زرعة، وحمل عنه جملة مستكثرة من أماليه، وأذن له في تدريس ألفيته من الحديث، وشرحها، والنكت على ابن الصلاح، وسائر كتب الحديث وعلومه، ولقبه بالحافظ وعظمه ونوّه بذكره.

وللحافظ ابن حجر مع شيخه مراجعات كثيرة.

4- علي بن أبي بكر بن سليمان أبو الحسن الهيثمي " 735- 807 " لازم العراقي أشد ملازمة وهو صهره، خرج زوائد مسند البزار ثم مسند أبي يعلى الموصلي، ثم الطبرانيات، وجمع الجميع في كتاب واحد محذوف الأسانيد، ورتب الثقات لابن حبان على حروف المعجم،
و" حلية الأولياء " على الأبواب، اقتصر منها على الأحاديث المسندة، ومات وهو مسودة فكمل ابن حجر ربعه، وصار الهيثمي لشدة ممارسته أكثر استحضاراً للمتون من شيخه العراقي حتى يظن من لا خبرة له أنه أحفظ منه، وليس كذلك؛ لأن الحفظ المعرفة. قال ابن حجر: كان يودني كثيراً وبلغه أنني تتبعت أوهامه في " مجمع الزوائد " فعاتبني فتركت ذلك " قرأ عليه قريناً لشيخه العراقي ومنفرداً.

شيوخ الفقه:

1- إبراهيم بن موسى بن أيوب برهان الدين الأنباسي الورع الزاهد " 725- 802 هـ " سمع من الوادي آشي وأبي الفتح الميدومي ومسند عصره ابن أميلة وطبقتهم، قال عنه ابن حجر: " سمعت منه كثيراً وقرأت عليه الفقه " وقال: " اجتمعت به قديماً وكان صديق أبي ولازمته بعد التسعين، وبحثت عليه في المنهاج وقرأت عليه قطعة كبيرة من أول الجامع للترمذي بسماعه على... ابن أميلة " وله مصنفات، يألفه الصّالحون ويحبه الأكابر وفضله معروف.

2- عمر بن عليّ بن أحمد بن الملقن " 723- 804هـ " كان أكثر أهل عصره تصنيفاً فشرح المنهاج عدة شروح، وخرّج أحاديث الرافعي في ست مجلّدات، وشرح " صحيح البخاري " في عشرين مجلدة انتقده ابن حجر عليه وعلى أشياء أخرى. قرأ عليه قطعة من شرحه الكبير على المنهاج.

3- عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني نزيل القاهرة أبو حفص، شيخ الإسلام علم الأعلام مفتي الأنام " 724- 805 هـ " أقدمه أبوه القاهرة وله اثنتا عشرة سنة فبهرهم بذكائه وكثرة محفوظه وسرعة إدراكه وعرض عليه محافظيه ورجع، غير أنه لم يرزق ملكة في التصنيف قد لازمه الحافظ ابن حجر مدة، وقرأ عليه الكثير من الروضة، ومن كلامه على حواشيها، وسمع عليه بقراءة البرماوي مختصر المزني، وكتب له خطه بالإذن بالإعادة وهو أول من أذن له في التدريس والإفتاء، وتبعه غيره.

4- محمد بن علي بن عبد الله القطان الفقيه " 737- 813هـ " مهر في فنون كثيرة، وتفقه عليه الحافظ ابن حجر، وقال عنه:

قرأت عليه وأجاز لي وذكر لي أنه قرأ الأصول على الشيخ نور الدين الأسنائي وكان ماهراً في القراءات والعربية والحساب ولازمه في الفقه، وقرأ عليه قسماً كبيراً من " الحاوي " وغيره.

4 -عليّ بن أحمد بن أبي الآدمي الشيخ نور الدين، قال ابن حجر: قرأت عليه في الفقه والعربية، وكان على طريقة مثلى من الدين والعبادة والخير والانجماع ولازمه كثيراً.

شيوخ العربية:

1- محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري المصري المالكي " 720- 802هـ " وكان كثير الاستحضار واللغة مع مشاركة في الأصول والفروع، ودرس القراءات في الشيخونية وهو خاتمة من كان يشار إليه في القراءات العربية، سمع عليه الحافظ ابن حجر القصيدة المعروفة بالبردة بسماعه لها على أبي حيان بسماعه من ناظمها، وأجاز له غير مرّة كما أجازه مروياته عن غيره، وكان عارفاً بالعربيّة كثير الحفظ للشعر لا سيما الشواهد قوي المشاركة في فنون الأدب.

2- محمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي الأصل بدر الدين البشتكي الأديب الفاضل المشهور " 748- 830 هـ ".

حفظ كتاباً في فقه الحنفية ثم تحوّل شافعيّاً، ثم نظر في كتب ابن حزم، واشتغل في فنون كثيرة، وعني الأدبيات فمهر فيها، لازمه ابن حجر بضع سنين، وانتفع بفوائده وكتبه وأدبياته وطارحه بأبيات وسمع منه الكثير من نظمه وأجاز له ولأولاده، وسبقت الإشارة إلى أنه كان يعيره بعض الكتب الأدبية، وقرأ عليه مجلساً واحداً من مقدمة لطيفة في علم العروض استفاد منه لمعرفة الفن بكماله، كما قرأ عليه البشتكى بعد ذلك في الحديث فهو شيخه، وتلميذه في آن واحد.

3- محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الشيخ العلامة مجد الدين أبو طاهر الفيروزآبادي " 729- 817 هـ " نظر في اللغة فكانت جل قصده في التحصيل فمهر فيها إلى أن فاق أقرانه، اجتمع به في زبيد، وفي وادي الخصيب وناوله جل " القاموس

المحيط " وأذن له مع المناولة بروايته عنه وقرأ عليه من حديثه عدة أجزاء، وسمع منه المسلسل بالأولية بسماعه عن السبكي، وكتب له تقريضاً على بعض تخريجاته أبلغ فيه شيخه في أغلب العلوم.

4- هو محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن جماعة الحموي الأصل ثم المصري الشيخ عز الدين بن المسند شرف الدين " 759- 819 ".

أتقن فنون المعقول إلى أن صار هو المشار إليه في الدّيار المصرية في هذا الفن.. ولم يقرأ عليه كتاب من الكتب المشهورة إلا ويكتب عليه نكتاً وتعقيبات واعتراضات بحسب ما يفتح له أخذ عنه في " شرح منهاج الأصول "، و" جمع الجوامع "، و" مختصر ابن الحاجب " وفي " المطول " لسعد الدين وأجاز له غير مرة ولأولاده، وقال البقاعي: وأجل من أخذ عنه المعقول والأدبيات علامة الدنيا الشيخ عز الدين بن جماعة، ولازمه طويلاً، وأخذ عنه علماً جزيلاً.

وقال السخاوي: إن ابن جماعة كان يقول: " أنا أقرأ في خمسة عشر علماً لا يحرف علماء عصري أسماءها ".

ولازمه الحافظ ابن حجر في غالب العلوم التي كان يقرؤها من سنة 790 هـ إلى أن مات سنة 819هـ ولم يخلف بعده مثله كما قال في " إنباء الغمر ".

مصنفاته:

قال الشمس السخاوي تلميذ الحافظ ابن حجر:

" وزادت تصانيفه التي معظمها في فنون الحديث وفيها من فنون الأدب والفقه، والأصلين وغير ذلك على مائة وخمسين تصنيفاً رزق فيها من السعد والقبول خصوصاً " فتح الباري بشرح البخاري "

الذي لم يسبق نطره أمراً عجباً ”.

بلغت مصنفاته أكثر من اثنين وثلاثين ومائة تصنيف، وها هي مرتبة على حروف المعجم:

1- الآيات النيرات للخوارق المعجزات.

2- اتباع الأثر في رحلة ابن حجر.

3- إتحاف المهرة بأطراف العشرة.

4- الإتقان في فضائل القرآن.

5- الأجوبة المشرقة على الأسئلة المفرقة.

6- الأحكام لبيان ما في القرآن من إبهام.

7- أربعون حديثاً متباينة الأسانيد بشرط السّماع.

8- أسباب النزول.

9- الأسئلة الفائقة بالأجوبة اللائقة.

10- الاستبصار على الطّاعن المُعثار.

11- الاستدراك على الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

12- الاستدراك على الكاف الشاف.

13- الإصابة على تمييز الصحابة.

14- أطراف المختارة.

15- أطراف الصحيحين.

16- أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي.

17- الإعجاب ببيان الأسباب.

18- الإعلام بمن ذكر في البخاري من الأعلام.

19- الإعلام لمن ولي مصر في الإسلام.

20- الإفصاح بتكميل النكت على ابن الصلاح.

21- الإفنان في رواية القرآن.

22- إقامة الدلائل على معرفة الأوائل.

23- الألقاب.

24- أمالي ابن حجر.

25- الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع.

26- الإنارة في الزيارة.

27- إنباء الغمر بأنباء العمر.

28- الانتفاع بترتيب الدار قطني.

29- انتقاض الاعتراض.

30- الأنوار بخصائص المختار.

31- الإيناس بمناقب العبّاس.

32- البداية والنهاية.

33- بذل الماعون بفضل الطّاعون.

34- البَسْط المبثوث في خبر البرغوث.

35- بلوغ المرام بأدلّة الأحكام.

36- بيان الفصل بما رجح فيه الإرسال على الوصل.

37- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه.

38- تبيين العجب بما ورد في فضل رجب.

39- تجريد التفسير.

40- تحرير الميزان.

41- تحفة أهل التحديث عن شيوخ الحديث.

42- تحفة الظراف بأوهام الأطراف.

43- تخريج أحاديث الأذكار للنووي.

44- تخرج أحاديث الأربعين للنووي.

45- تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.

46- تخريج الأربعين النووية بالأسانيد العليّة.

47- التعريج على التدريج.

48- ترجمة النووي.

49- تسديد القوس في مختصر مسند الفردوس.

50- التشويق إلى وصل المهم من التعليق.

51- تصحيح الروضة.

52- تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة.

53- التعريف الأوحد بأوهام من جمع رجال المسند.

54- تعريف أولي التقدير بمراتب الموصوفين بالتدليس.

55- تعريف الفئة بمن عاش مائة.

56- تعقبات على الموضوعات.

57- تعليق التعليق.

58- تقريب التقريب.

59- تقريب التهذيب.

60- تقريب المنهج بترتيب المدرج.

61- تقويم السّناد بمدرج الإسناد.

62- التمييز في تخريج أحاديث الوجيز.

63- تهذيب التهذيب

64- تهذيب المدرج.

65- توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس.

66- توضيح المشتبه للأزدي في الأنساب.

67- التوفيق بتعليق التعليق.

68- الجواب الجليل عن حكم بلد الخليل.

69- الجواب الشافي عن السؤال الخافي.

70- الخصال المكفرة للذنوب المقدّمة والمؤخرة.

71- الخصال الواردة بحسن الاتصال.

72- الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية.

73- الدرر.

74- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.

75- ديوان شعر.

76- ديوان منظور الدرر.

77- ذيل الدرر الكامنة.

78- رد المحرم عن المسلم.

79- الرسالة العزية في الحساب.

80- رفع الإصر عن قضاة مصر.

81 – الزهر المطلول في بيان الحديث المعلول.

82- الزهر النضر في أنباء الخضر.

83- السبعة النيرات في سبعة أسئلة عن السيد الشريف في مباحث الموضوع.

84- سلوت ثبت كلوت: التقطها من ثبت أبي الفتح القاهري.

85- شرح الأربعين النووية.

86- شرح سنن الترمذي.

87- شرح مناسك المنهاج.

88- شرح منهاج النووي.

89- شفاء الغلل في بيان العلل.

90- الشمس المثيرة في معرفة الكبيرة.

91- طبقات الحفاظ.

92- عرائس الأساس في مختصر الأساس للزمخشري.

93- عشاريات الأشياخ.

94- عشرة أحاديث عشارية الإسناد.

95- عشرة العاشر.

96- فتح الباري بشرح البخاري.

97- فضائل شهر رجب.

98- فهرست مروياته.

99- فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال، لرجال البخاري.

100- الفوائد الجمة فيمن يجدد الدين لهذه الأمة.

101- قذى العين من نظم غريب البين.

102- القصارى في الحديث.

103- القول المسدد في الذب عن المسند.

104- الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف.

105- كشف السحر عن حكم الصلاة بعد الوتر.

106- لذة العيش بجمع طرق الحديث " لأئمة من قريش ".

107- لسان الميزان.

108- المجمع المؤسس في المعجم المفهرس.

109- مختصر البداية والنهاية لابن كثير.

110- مختصر تهذيب الكمال.

111- المرجمة الغيثية عن الترجمة الليثية.

112- مزيد النفع بما رجح فيه الوقف على الرفع.

113- المسلسل بالأولية بطرق علية.

114- المسند المعتلى بأطراف الحنبلي.

115- المشتبه.

116- المطالب العالية من رواية المسانيد الثمانية.

117- المطالب العالية في زوائد الثمانية.

118- المقترب في بيان المضطرب.

119- المقصد الأحمد فيمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد.

120- الممتع في منسك المتمتع.

121- المنحة فيما علق به الشافعي القول على الصحة.

122- منسك الحج.

123- النبأ الأنبه في بناء الكعبة.

124- نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر.

125- نزهة الألباب في الأنساب.

126- نزهة القلوب في معرفة المبدل عن المقلوب.

127- نزهة النظر بتوضيح نخبة الفكر.

128- النكت الحديثية على كتاب ابن الصلاح.

129- نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب.

130- النيرات السبعة، ديوان ابن حجر.

131- هداية الرواة إلى تخريج المصابيح والمشكاة.

132- هدي السّاري لمقدمة فتح الباري.

مرضه ووفاته:

بدأ المرض بحافظ الدنيا ابن جر طيب الله مثواه في ذي الحجة سنة 852 هـ، وفي الحادي عشر منه حضر مجلس الإملاء كما أملى في يوم الثلاثاء الخامس عشر من الشهر المذكور مجلساً وهو متوعّك، ثم تغير مزاجه وأصبح ضعيف الحركة.

وخشي الأطباء أن يناولوه مسهلاً لأجل سنّه فأشير " بلبن الحليب " فتناوله فلانت الطبيعة قليلاً وأدى ذلك إلى نشاط.. وصار مسروراً بذلك، ولكنه لم يشف من مرضه تماماً... ثم عاد إلى الكتمان وتزايد الألم بالمعدة وكان يقول هذا بقايا الغبن من سنة تسع وأربعين وتوابعها، ولم يستطع أن يؤدي صلاة الأضحى الذي صادف يوم الثلاثاء، وهو الذي لم يترك صلاة جمعة ولا جماعة، وصلى الجمعة التي تلي العيد، ثم توجه إلى زوجته الحلبية، وكأنه أحس بدنو أجله، فاعتذر عن انقطاعه عنها واسترضاها وكان ينشد:

ثاء الثلاثين قد أوهت قوى بدني :: فكيف حالي وثاء الثمانينا

وتردد إليه الأطباء، وهرع الناس من الأمراء والقضاة والمباشرين لعيادته، وقبل منتصف شهر ذي الحجة من سنّة 852 هـ أشيع أن شيخ الإسلام قد توعك فأنشأ يقول:

اشكو إلى الله ما بي :: وما حوته ضلوعي
قد طال السقم جسمي : بنـزلة وضلوعي

::
:

وكان مرضه قد دام أكثر من شهر، حيث أصيب بإسهال ورمي دم
" ديسانتري "، غير أن السخاوي يقول: " ولا أستبعد أنه أكرم بالشهادة فقد كان طاعون قد ظهر ".

ثم أسلم الروح إلى بارئها في أواخر شهر ذي الحجة من سنّة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

وترك وصيته التي نقل السخاوي نصها، مستقاة من سبطه يوسف بن شاهين، ومما ورد فيها أنه أوصى لطلبة الحديث النبوي والمواظبين على حضور مجالس الإملاء بجزء من تركته.

وفي أواخر أيامه عاده قاضي القضاة سعد الدين بن الديري الحنفي فسأله عن حاله فأنشده أربعة أبيات من قصيدة لأبي القاسم الزمخشري هي:

قرب الرحيل إلى ديار الآخرة :: **فاجعل إلهي خير عصري آخره**
وارحم مبيتي في القبور ووحدتي :: **وارحم عظامي حين تبقى ناخرة**
فأنا المسيكين الذي أيامه :: **ولت بأوزار غدت متواترة**
فلئن رحمت فأنت أكرم راحم :: **فبحار جودك يا إلهي زاخرة**

وصلي عليه بمصلاة بكتمر المؤمن، حيث أمر السلطان جقمق بأن يحضر إلى هناك ليصلي عليه، وتقدم في الصلاة عليه الخليفة بإذن من السلطان.

وحضر الشيوخ وأرباب الدولة وجمع غفير من الناس، وازدحموا في الصلاة عليه حتى حزر أحد الأذكياء من مشى في جنازته بأنهم نحو الخمسين ألف إنسان.

ومن شدة حب الناس، وإكرامهم له تصور البعض أن الخضر صلى عليه كما ذكر ذلك صاحب مفتاح السعادة، فقال: ومن جملة من صلّى عليه " الخضر عليه السلام رآه عصابة من الأولياء ".

وكان يوم موته عظيماً على المسلمين وحتى على أهل الذمة، وشيعته القاهرة إلى مدفنه في القرافة الصغرى، وتزاحم الأمراء الأكابر على حمل نعشه، ومشى إلى تربته من لم يمش نصف مسافتها قط، فدفن تجاه تربة الديلمي بتربة بني الخروبي بين مقام الشافعي ومقام سيدي مسلم السّلمي، وكانت وصيته خلاف ذلك.

وقيل: إن السماء أمطرت على نعشه مطراً خفيفاً فعد ذلك من النوادر.

ذكر من رثاه:

وما أحقه بقول ابن دريد في قصيدة طويلة:

إن المنية لم تتلف بها رجلا ... بل أبلغت علما للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو مشاربه ... والآن أصبح بالتكدير مقطوبا
كلا وأيامه الغر التي جعلت ... للعلم نورا وللتقوى محاريبا

وبقول غيره:

ذهب العليم بعيب كل محدث ... وبكل مختلف من الإسناد
وبكل وهم في الحديث ومشكل ... يعنى به علماء كل بلاد

وبقول غيره:

بكيت على فراقك كل يوم :: وأمليت الجوار من الجفون
ولو كان البكاء بقدر شوقي :: لملته العيون من العيون

وبقول غيره:

رزءٌ ألم فقلب الدهر في وهج :: وأغفل الناس منسوب إلى الهوج
وللقلوب وجيب في مراكزها :: مهول فهو بتشقيق الصدور حجي
وللعيون انهمال كالغمام بكا :: فكل فج به عال من اللجج
يا واحد العصر يا من لا نظير له :: إذ كل شخص من الأمثال في لجج
يا شيخ الإسلام يا مولى لقد خضعت :: غلب الرجال لما تبدي من الحجج
يا بر حلم بحور العلم قد تركت :: قلما سمعنا بداع، مقبل سمج
أصم أسماعنا لما تلا سحرا :: قد مات من تهزم الأهوال حين نجي
قاضي القضاة المفدى من بني حجر :: من خلقه ليس في شيء من الحرج
فلو رضي الدهر منا فدية عظمت :: وحقك، جدنا فيك بالمهج

ومنهم العلامة الشهاب أبو الطيب أحمد بن محمد الحجازي الذي أنشد لفظه لنفسه قوله:

كل البرية للمنية صابرة :: وقفولها شيئا فشيئا سائره
والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن :: لم ترض كانت عند ذلك خاسره
وأنا الذي راض بأحكام مضت :: عن ربنا البر المهيمن صارده

لكن سئمت العيش من بعد الذي	::	**قد خلف الأفكار منا حائره**
هو شيخ إسلام المعظم قدره	:	**من كان أوحد عصره والنادره**
قاضي القضاة العسقلاني الذي	::	**لم ترفع الدنيا خصيما ناظره**
وشهاب دين الله ذو الفضل الذي	:	**أربى على عدد النجوم مكاثره**
لا تعجبوا لعلوه فأبوه من	::	**قبل علي في الدنا والآخره** [1]

* * *

(1) انظر مقدمة كتاب التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني (المتوفى:852هـ) من نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى 1419هـ. 1989م، ومقدمة كتاب " رفع الإصر عن قضاة مصر " تقديم الدكتور شاكر محمود عبد المنعم عن الحافظ ابن حجر، و" معجم المؤلفين " 20/2، " الرسالة المستطرفة " 121 "، طبقات الحفاظ 547، حسن المحاضرة، 363/1 " ذيل تذكرة الحفاظ " 326، " شذرات الذهب " 270/7،
" الضوء اللامع " 36/2، " ذيل طبقات الحفاظ " 380، " نظم العقيان " 45 "، " التاريخ المكلل " 362، " طبقات الحفاظ " 547، " مقدمة كتاب أبناء الغمر " 7 "، " معجم طبقات الحفاظ" 55، 321، " فهرس الفهارس " 120/11، " الجامع في الرجال " 136، " الكنى والألقاب "
261/1، " البدر الطالع " 87/1، " القلائد الجوهرية " 331، " مفتاح السعادة " 209/1،
" المؤرخين في مصر " 17، " عقود الجوهر " 188، " كشف الظنون " 7، 8، 12.. " إيضاح المكنون " 13/1، " الأعلام " 179/1، " هدية العارفين " 128/1.

الحافظ
جلال الدين السيوطي

أعلام الحديث

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي

هو إمام المتأخرين، وعلم أعلام الدين، وخاتمة الحفاظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكربن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي، ولقب رحمه الله بجلال الدين. وكنيته أبو الفضل.

ولده ولد رحمه الله بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة وأربعين وثمانمائة هجرية، فقد ولد رحمه الله في بيت عرف بالعلم والادب وسمو المكانة وعلو المننزلة، ولا عجب فقد كان أبوه، علما من الأعلام وفقيها من فقهاء الشافعية المرموقين، فقد ولي رحمه الله في مستهل حياته منصب القضاء في أسيوط ثم انتقل إلى مصر حيث أسند إليه بها منصب الإفتاء على مذهب الإمام الشافعي. وتوفي ولده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل من حفظ القرآن إذا ذاك إلى سورة التحريم ولكن الله تعالى قد كلأه بعنايته وأحاطه برعايته فقيض له العلامة الكمال ابن الهمام، فكان رحمه الله يرعاه ويتابعه في تحفيظ القرآن وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

نشأ رحمه الله نشأة علمية منذ نعومة أظفاره، فقد كان ولده رحمه الله شديد الحرص على توجيهه الوجهة الصالحة؛ إذ كان يحفظ القرآن الكريم في صغره ويستصحبه إلى دور العلم ومجالس القضاء ودروس الفقهاء وسماع الحديث. ويذكر المؤرخون الذين ترجموا له -

رحمه الله - أن أباه قد طلب من الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني صاحب الفتح أن يدعو له بالبركة والتوفيق، وكان رحمه الله يرى في الحافظ ابن حجر مثله الاعلى وكان يترسم خطاه ويحذو حذوه فيما بعد حتى قيل إنه شرب من ماء زمزم بنية أن يجعله الله مثل ابن حجر فاستجاب الله سبحانه وتعالى له فكان من أكبر الحفاظ.

وكان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء، قوي الذاكرة، حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين حفظ عمدة الأحكام وشرحه لابن دقيق العيد ثم حفظ منهاج الإمام النووي في فقه الشافعية ثم منهاج البيضاوي في الاصول ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي. وعرض ذلك رحمه الله على طائفة من مشايخ الإسلام مثل البلقيني وعز الدين الحنبلي وشيخ الاقصراني فأجازه هؤلاء وغيرهم. ولم يدع رحمه الله من فروع المعرفة ولا نوعا من أنواع العلم إلا وقد أدلى فيه بدلو وتلقاه عند أهله، فأخذ الفقه عن شيخ الشيوخ سراج الدين البلقيني وقد لازمه إلى أن توفي فلازم من بعده ولده علم الدين. أخذ الفرائض عن فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي، ولازم الشرف المناوي أبا زكريا محمد بن عبد الرؤوف شارح الجامع الصغير. وأخذ العلوم العربية عن الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي وكتب له تقريظا على شرح ألفية ابن مالك. ولزم العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذه عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني وأخذ عن جلال الدين المحلي وعن المعز الكناني أحمد بن إبراهيم الحنبلي، وحضر على الشيخ سيف الدين الحنفي دروسا عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشية عليه وتلخيص المفتاح في البلاغة، وقد أجيز بتدريس في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة، أي: في سن

الخامسة عشرة وأخذ أيضا عن المجد بن السباع وعبد العزيز الوقائي الميقات، وأخذ الطب عن محمد بن إبراهيم الدواني الرومي. والمتتبع لنشأة السيوطي يجد أنه قد أخذ الكثير من العلوم عن الكثير من المشايخ. وقد ذكر بعض أهل العلم ممن ترجموا له أن شيوخه قد وصلوا نحو ستمائة ولا غرابة في ذلك ولا عجب فإن السيوطي قد عاش حياته يأخذ العلم حيث وجده وعن كل من يلقاه وأنه أكثر من السفر والترحال في سبيل تحصيل العلم ورواية الحديث. وذكر أيضا في بعض الروايات أنهم مائة وخمسون شيخا وشيخة وفي بعضها قارب عدد هم الستمائة على ما ذكر آنفا.

قيامه بالتدريس:

كان الإمام السيوطي رحمه الله خير مؤدبي عصره وأفضل مدرسيه إذ اشتهر بالبراعة في الشرح والروعة في الاملاء ومن ثم شدت إليه الرحال من كل مكان فكان رحمه الله يدرس العربية في سن مبكرة إذ كان عمره وقت إجازته بالتدريس خمسه عشر عاما فقط وهي قصيرة من أعمار العلماء الاعلام ثم شرع أيضا في تدريس الفقة وإملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة أي بعد مباشرته تدريس العربية بنحو ست سنوات ثم شرع بعد ذلك يزاول التدريس والإملاء، في مختلف العلوم وشتى الفنون فقال متحدثا عن نفسه متحدثا بنعمة الله أنه رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير والفقه والحديث والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

وكان رحمه الله يقول أيضا: إنه بلغ الاجتهاد إذ قال: وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد وبحمد الله تعالى أقول ذلك متحدثا بنعمة الله

تعالى لا فخر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوحها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله مصنفاته لم يدع السيوطي فنا إلا وكتب فيه، وبدأ في التأليف في سن مبكرة إذ ذكر المترجمون له أنه شرع في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة هجرية وكان أول شيء ألفه في التفسير وهو تفسير للاستعاذة والبسملة وقد عرضه على شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فأجازه وكتب له تقريظا حسنا، ثم توالى بعد ذلك تأليفه. وقد اختلف الباحثون في عدد المصنفات التي أثرى بها الحافظ الجلال السيوطي المكتبة الإسلامية فمنهم من يرى أنها تبلغ إحدى وستين وخمسمائة وهو ما ذهب إليه فلوجل وأما ما ذهب إليه بروكلمان فقد عد له خمسة عشر وأربعمائة كتاب.

ولقد حدثنا رجل فاضل أنه ألف كتابا للحافظ السيوطي تكلم عنه وترجم له وعد مصنفاته حتى بلغت ستاً وألف كتاب وهذا إن دل إنما يدل على سعة تبحره كما ذكرنا. وهنا أورد بعض مصنفات هذا الإمام الجليل. فمن أهم تصانيفة على سبيل المثال لا الحصر:

- إسعاف المبطأ برجال الموطأ.
- الآية الكبرى في شرح قصة الاسراء.
- الأشباه والنظائر.
- الإتقان في علوم القرآن.
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير.
- الجامع الكبير.

- الحاوي للفتاوى.
- الحبائك في أخبار الملائك.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.
- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج.
- الروض الأنيق في فضل الصديق.
- العرف الوردي في أخبار المهدي.
- الغرر في فضائل عمر.
- الفية السيوطي.
- الكاوي على تاريخ السخاوي (ألفه بسبب خصومته مع السخاوي).
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.
- المَدْرَج إلى المُدْرَج.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب.
- أسباب ورود الحديث.
- أسرار ترتيب القرآن.
- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب.
- إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين.

- إعراب القرآن.
- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر.
- تاريخ الخلفاء.
- تحذير الخواص من أحاديث القصاص.
- تحفة الأبرار بنكت الأذكار النووية.
- تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي.
- تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك.
- تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك.
- تنبيه الغبيّ في تبرئة ابن عربي.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة.
- ذم المكس.
- شرح السيوطي على سنن النسائي.
- صفة صاحب الذوق السليم.
- طبقات الحفّاظ.
- طبقات المفسرين.
- عقود الجمان في علم المعاني والبيان.
- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث.

- عين الإصابة في معرفة الصحابة.

- كشف المغطي في شرح الموطأ.

- لب اللباب في تحرير الأنساب.

- لباب الحديث.

- لباب النقول في أسباب النزول.

- ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين.

- مشتهى العقول في منتهى النقول.

- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين.

- مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة.

- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.

- نظم العقيان في أعيان الأعيان.

- همع الهوامع شرح جمع الجوامع.

- الفارق بين المصنف والسارق وهو أول كتاب فقهي حول الملكية الفكرية التي لم يتعرف عليها العالم إلا في عام 1886م، من خلال أتفاقية برن لحقوق المؤلف.

وغير ذلك مما حوته كتب التراجم.

ثناء العلماء عليه:

لم أجد من ترجم لهذا الإمام إلا وقد شهد له بالبراعة والتبحر، ولقد أثنى عليه شيوخه وأقرانه وتلاميذه والعلماء من بعده ممن قرأ كتبه. فيقول أبو الحسنات محمد محمد عبد الحلي اللكنوي في حواشيه على

الموطأ بعد أن ذكر السيوطي: وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره وأنه حقيق بأن يعد من مجددي الملة المحمدية في بدء المائة العاشرة وآخر التاسعة كما ادعاه بنفسه وشهد بكونه حفيا به ممن جاء بعده كعلي القارئ المكي في المرآة.

انقطاعه عن التدريس والقضاء والإفتاء:

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عدد من علماء عصره، كان ميدانها الحملات الشرسة في النقد اللاذع في الترجمة المتبادلة، ومن خصومه: البرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوجري، غير أن أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي اتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه. ولم يقف السيوطي مكتوف الأيدي في هذه الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها " مقامة الكاوي في الرد على السخاوي " نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام. وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له من اعتداء في الخانقاه البيبرسية أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها " المقامة اللؤلؤية "، ورسالة " التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس ". وقد تنبه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوبوه إلى هذا العالم الجليل من

سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد أن يسترضي هذا العالم الجليل الذي لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرغه للعبادة والتأليف.

اعتزال السلاطين:

عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطانًا مملوكيًا، وكانت علاقته بهم متحفظة، وطابعها العام المقاطعة وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، فقد ذهب يومًا للقاء السلطان الأشرف قايتباي وعلى رأسه الطيلسان - عمامة طويلة - فعاتبه البعض، فأنشأ رسالة في تبرير سلوكه أطلق عليها " الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان ". وفي سلطنة طومان باي الأول حاول هذا السلطان الفتك بالسيوطي، لكن هذا العالم هجر بيته في جزيرة الروضة واختفى فترة حتى عُزل هذا السلطان. وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة، فيردها ولا يقبل من أحد شيئا، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألف في ذلك كتابًا أسماه " ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين ".

ريادة ثقافية في عصر العلماء:

كان السيوطي من أبرز معالم الحركة العلمية والدينية والأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، حيث ملأ نشاطه العلمي في التأليف مختلف الفروع في ذلك الزمان من تفسير وحديث وفقه

وتاريخ وطبقات ونحو ولغة وأدب وغيرها، فقد كان موسوعي الثقافة والاطلاع. وقد أعانه على كثرة تأليفه انقطاعه التام للعمل وهو في سن الأربعين حتى وفاته، وثراء مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي لمدة 45 سنة، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له مدة 22 عامًا متواصلة، ولو وُزع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليوم الواحد 40 ورقة، على أن القسم الأكبر من تأليفه كان جمعًا وتلخيصًا وتذييلا على مؤلفات غيره، أما نصيبه من الإبداع الذاتي فجِدّ قليل. وقد تمنى السيوطي أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة لعلمه الغزير، فيقول :

" إني ترجيت من نعم الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم ". وزادت مؤلفات السيوطي على الثلاثمائة كتاب ورسالة، عدّ له بروكلمان 415 مؤلفا، وأحصى له " حاجي خليفة " في كتابه " كشف الظنون " حوالي 576 مؤلفا، ووصل بها البعض كابن إياس إلى 600 مؤلف. ومن مؤلفاته في علوم القرآن والتفسير : " الاتقان في علوم التفسير "، و" متشابه القرآن "، و" الإكليل في استنباط التنزيل "، و" مفاتح الغيب في التفسير "، و" طبقات المفسرين "، و" الألفية في القراءات العشر ".

أما الحديث وعلومه، فكان السيوطي يحفظ مائتي ألف حديث كما روى عن نفسه، وكان مغرما بجمع الحديث واستقصائه لذلك ألف عشرات الكتب في هذا المجال، يشتمل الواحد منها على بضعة أجزاء، وفي أحيان أخرى لا يزيد عن بضع صفحات.. ومن كتبه: "

إسعاف المبطأ في رجال الموطأ "، و" تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك "، و" جمع الجوامع "، و" الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة "، و" المنتقى من شعب الإيمان للبيهقي "، و" أسماء المدلسين "، و" آداب الفتيا "، و" طبقات الحفاظ ". وفي الفقه ألف " الأشباه والنظائر في فقه الإمام الشافعي "، و" الحاوي في الفتاوي "، و" الجامع في الفرائض " و" تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع ". وفي اللغة وعلومها كان له فيها أكثر من مائة كتاب ورسالة منها: " المزهر في اللغة "، و" الأشباه والنظائر في اللغة "، و" الاقتراح في النحو "، و" التوشيح على التوضيح "، و" المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب "، و" البهجة المرضية في شرح ألفية ابن مالك ". وفي ميدان البديع كان له: " عقود الجمان في علم المعاني والبيان "، و" الجمع والتفريق في شرح النظم البديع "، و" فتح الجليل للعبد الذليل ". وفي التاريخ والطبقات ألف أكثر من 55 كتابًا ورسالة يأتي في مقدمتها: " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة "، و" تاريخ الخلفاء "، و" الشماريخ في علم التاريخ "، و" تاريخ الملك الأشرف قايتباي "، و" عين الإصابة في معرفة الصحابة "، و" بغية الوعاة في طبقات النحاة "، و" نظم العقيان في أعيان الأعيان "، و" در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة "، و" طبقات الأصوليين ". ومن مؤلفاته الأخرى الطريفة: " منهل اللطايف في الكنافة والقطايف "، و" الرحمة في الطب والحكمة "، و" الفارق بين المؤلف والسارق "، و"

الفتاش على القشاش "، و" الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ". وقد شاءت إرادة الله أن تحتفظ المكتبة العربية والإسلامية بأغلب تراث الإمام السيوطي، وأن تطبع غالبية كتبه القيمة وينهل من علمه الكثيرون.

وفاته ورثائه:

توفي . في سحر ليلة الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة وتسعمائة في منزله بروضة المقياس عن عمر بلغ اثنين وستين عاما وكان له مشهد عظيم، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وصلي عليه بدمشق بالجامع الاموي يوم الجمعة، وقيل أخذ الناس قميصه وقبعته فاشترى بعض الناس قميصه من الناس بخمسة دنانير للتبرك به وباع قبعته بثلاثة دنانير لذلك أيضا.

وقد رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفي بقوله:

مات جلال الدين غيث الورى :: مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى : ومرشد الضال بنفع يعود
فيا عيون انهملي بعده :: ويا قلوب انفطري بالوقود
واظلمي يا دنيا إذ حق ذا : بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفى :: وحق للقائم فيك القعود
وحق للنور بأن يختفي : ولليالي البيض أن تبقى سود
وحق للناس بأن يحزنوا :: بل حق أن كل بنفس يجود
وحق للاجيال خسرا وأن : تطوى السماء طيا كيوم الوعود
وأن يفور الماء والارض ان :: تميد وعم المصاب الوجود
مصيبة حلت فحلت بنا : وأرثت نار اشتعال الوجود
صبرنا الله عليها وأولاده :: نعيما حل دار الخلود (1)

(1) انظر مقدمة كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين السيوطي- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - الطبعة الأولى 1387 هـ=1967م، وكتاب روضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود - على

:: : :: : :: : :: : :: :

* * *

محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية، وكتاب جلال الدين السيوطي لمصطفى الشكعة: - ط مطبعة الحلبي 1401هـ، 1981م، وكتاب الحافظ جلال الدين السيوطي لعبد الحفيظ فرغلي القرني: - سلسلة أعلام العرب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1990.

الإمام أحمد بن حنبل

أعـلام الحديـث

الإمام أحمد بن حنبل

إمام السنة، وبطل المحنة، وعلم الزهاد، وصاحب الإسناد، أرادوا صرفه عن السنة فما انصرف؛ لأن أحمد ممنوع من الصرف فأثبت في مستنقع الهول رجله وقال لها : من دون أخمصك الحشرُ تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضرُ رد الأغلاط فضربوه بالسياط، وأرسل على الجهمية شهباً، وأدخلوه الكير فخرج ذهباً، وأرادوا إسكاته فصاح الجمهور، وحبسوه فطارت دعوته، وقيدوه فانطلق علمه، وحاصروه فانتشرت مناقبه.

الإمامة عند أحمد قولٌ وعمل، سنة وجماعة، مغالبةٌ للهوى، كسرٌ للنفس، اقتداءٌ بمن سلف، احترامٌ للنص، اضطراح للفضول، محافظةٌ على الفرائض، تزودٌ بالنوافل، ترقبٌ للأجل، تقصير للأمل.

الحق حصانه، الحجة سلطانه، الصدق برهانه، السنة عنوانه، أفرح ما يكون إذا انتهى خبزه، أغيظ ما يكون إذا كثر كنزه، الدنيا عنده ثوبٌ وعمامة وحذاءٌ ورغيف، والآخرة سجدةٌ ودمعةٌ وفكرةٌ وعبرة، هدده المعتصم فاعتصم بالله، أوثقه الواثق وقال: وافق، فقال: معاذ الله، ناداه المتوكل إلى المآكل فقال: كلا.

سمن فهمه فهزل جسمه، عظم ثوابه فبليت ثيابه، رث منزله فحسنت منزلته.

أحمد: من المحبرة إلى المقبرة، من المحنة إلى المنحة، من التعذيب إلى التهذيب.

هو علم من أعلام الإسلام، والرجل الإمام [1].

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي، وشيبان حي من بكر القبيلة المشهورة من قبائل العرب.

ولد في ربيع الأول على المشهور سنة 164 هجرية في بغداد، وكانت أمه قد حملت به في مرو التي كان يقيم فيها أبوه، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته عن ثلاثين سنة تقريبا، وأحمد إذ ذاك صغير لا يدرك شيئا بدليل أنه نفى رؤيته لأبيه وجده. وكان جده قد انتقل إلى خراسان، وكان واليا على سرخس في العهد الأموي، ثم انضم إلى صفوف الدعوة العباسية حتى أوذي في هذا السبيل، ويقال: إنه كان قائدا. نشأ أحمد . يتيما، وقامت على تربيته أمه - صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني - وترك له أبوه بيتا في بغداد يسكنه وبيتا آخر يغل غلة ضئيلة. وكان في هذا كشيخه الإمام الشافعي في اليتم والفقر والحاجة وعلو الهمة. تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ ولكل منهما أم تدفعه إلى التقدم والعلو والزيادة من الخير.

نشأ الإمام أحمد . ببغداد، وتربى فيها تربيته الأولى، وقد كانت بغداد إذ ذاك تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع العلوم والمعارف، ففيها القراء والمحدثون والمتصوفة وعلماء اللغة والفلاسفة وغيرهم، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر العالم من تنوع المسالك وتعدد السبل وتنازع المشارب ومختلف العلوم حتى إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغة اتجه إلى الديوان ليتمرن على التحرير

(1) عائض القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم. بتصرف يسير، 4 / 12.

والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكان وهو صبي محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء حتى إنه ليروى أن الرشيد وهو بالرقة مع جنده وكان أولئك الجند يكتبون إلى نسائهم بأحوالهم فلا يجد النساء غير أحمد يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود ولا يكتب ما يراه منكرا من القول.

شب أحمد على هذا، واستمر في طلب العلم بعزم صادق وجد، وأمه تشجعه على ذلك، وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إذا خشيت عليه الإرهاق، وحكى ذلك أحمد عنها فقال: كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول: اصبر حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا، وكان اتجاهه إلى الأخذ عن رجال الحديث. ويروى أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وفي تاريخ الحافظ الذهبي قال الخلال: كان أحمد قد كتب كتب الرأي، وحفظها ثم لم يلتفت إليها.

اتجه أحمد إلى كتابة الحديث من سنة 179 هـ حينما كان عمره ست عشرة سنة، واستمر مقيما في بغداد يأخذ عن شيوخ الحديث فيها حتى سنة مائة وست وثمانين، وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة، ثم إلى الحجاز واليمن وغيرها، واستمر ملازما لشيخه هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي حتى سنة وفاته 183.

قال صالح بن أحمد قال أبي: كتبت عن هشيم سنة 179، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين واثنين وثمانين وثلاث. ومات في سنة ثلاث وثمانين. كتبنا عنه كتاب الحج نحوا من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتبا صغارا، فقال صالح: يكون ثلاثة آلاف،

قال: أكثر، ثم ارتحل في طلب العلم إلى الحجاز وغيره وقد ذكر ابن كثير تفصيل رحلاته الحجازية في تاريخه البداية والنهاية جزء 10 ص 326 وكان من أبرز الشخصيات التي التقى بها الإمام أحمد أثناء رحلاته وفي إقامته، الإمام الشافعي . فقد أخذ عنه، واستفاد منه كثيرا، وكان الشافعي يجله ويقدره ويعول عليه في معرفة صحة الحديث أحيانا، ورشحه الإمام الشافعي عند الرشيد لقضاء اليمن فأبى أحمد، وقال له: جئت إليك لأقتبس منك العلم تأمرني أن أدخل لهم في القضاء، وكان ذلك في آخر حياة الرشيد، ثم رشحه الشافعي مرة ثانية لقضاء اليمن عند الأمين فأبى أحمد وكان ذلك 195 هـ.

ودخل الشافعي يوما على أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله كنت اليوم مع أهل العراق في مسألة كذا فلو كان معي حديث عن رسول الله ﷺ. فدفع أحمد إليه ثلاثة أحاديث فقال له: جزاك الله خيرا. وقال الشافعي لأحمد يوما: أنتم أعلم بالحديث، والرجال، فإذا كان الحديث الصحيح فعلموني إن شاء يكون كوفيا أو شاميا حتى أذهب إليه إذا كان صحيحا، وهذا من كمال دين الشافعي وعقله حيث سلم هذا العلم لأهله؛ وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وأي شيء بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال (أخبرنا) و(حدثنا). وقال أبو زرعة الرازي:

حفظ أحمد بن حنبل بالمذاكرة على سبعمائة ألف حديث، وفي لفظ آخر قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذكراته فأخذت عليه الأبواب.

كان الإمام أحمد يقول: - فاتني مالك فأخلف الله علي بسفيان بن عيينة؛ وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله علي إسماعيل ابن علية. وكان ملازما لكتابة الحديث فانشغل بذلك عن كل شيء حتى عن الزواج فلم يتزوج إلا بعد الأربعين. وقيل له: يا أبا عبد الله قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، فأنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقد روى المزني: أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان: عربي لا يعرب كلمة وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: خرجت من بغداد ما خلفت بها أحدا أورع ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل، ولم يزل على ذلك مكبا على الحديث والإفتاء وما فيه نفع المسلمين، والتف حوله أصحابه يأخذون عنه الحديث والفقه وغيرهما، وألف المسند في مدة ستين سنة تقريبا، وكان قد ابتدأ بجمعه في سنة 180 هـ أول ما بدأ بطلب الحديث، وسيأتي الكلام على المسند إن شاء الله تعالى، وألف في التفسير، وفي الناسخ والمنسوخ، وفي التاريخ، وفي المقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وألف المناسك الصغير والكبير، وفي حديث شعبة، وألف كتاب الزهد، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، وكتاب الصلاة، وكتاب السنة وكتاب الورع والإيمان، وكتاب العلل والرجال، وكتاب الأشربة، وجزءا في أصول السنة، وفضائل الصحابة، وله قصائد متناثرة، وأجزاء في بعض الأصول والمسائل، كما نقل عنه مجموعة من المسائل، منها مسائل الإمام أحمد برواية

أبي داود السجستاني صاحب السنن وهي مطبوعة نشرها السيد محمد رشيد رضا بمطبعة المنار وتقع في 328 صفحة. وهي أجوبة على بعض المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد في الفقه؛ ومنها مسائل ابنه عبد الله بن أحمد، ومسائل إسحاق بن إبراهيم رواية ابن منصور المروزي وهي مخطوطة وتوجد في المكتبة الظاهرية بدمشق وغير ذلك من مؤلفاته ..

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون لله ما أثبته لنفسه وما صح عن رسوله ﷺ إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجرؤ أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، علي إن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق

القرآن، فأظهر القول بذلك عام 212 هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدا بل ترك الناس أحرارا فيما يذهبون إليه، فلما كان 218 هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام 218 هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين فما رأيت أحدا يقول بهذه المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفذاذ: يحيى بن معين وعلي بن المديني ويزيد بن هارون وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالتهم وإمامتهم في حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم -: محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي. لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفته بصلابته وشدته في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل. وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل وصولهم فعادوا إلى بغداد، وألقي الإمام أحمد في الحبس. ويقال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام 218.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك. وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلسا مع ابن أبي دؤاد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي أحضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعا جليلا كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم

بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطا، ونصب كرسيا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى: {ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾} [الرحمن: ١ - ٢] ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى: {يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾} [يس: ١ - ٢] ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيدوه للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، وأستدل بقوله تعالى: {وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى} [السجدة: ١٣] الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول: أعطوني دليلا من كتاب الله أو كلام رسوله ﷺ، فقال المعتصم قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها.

قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين [(1)]. فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن شهدني: خذ بنابي الخشبتين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبتين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال:"**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث**- [(2)]. الحديث. فبم تستحل دمي وأنا لم آت شيئا من هذا. يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك

(1) والعقابان بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس.
(2) صحيح البخاري الديات (6484)، صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (1676)، سنن الترمذي الديات (1402)، سنن النسائي تحريم الدم (4016)، سنن أبي داود الحدود (4352)، سنن ابن ماجه الحدود (2534)، مسند أحمد بن حنبل (382/1)، سنن الدارمي الحدود (2298).

إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق ابن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت فقالوا صليت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر . وجرحه يثعب دما وكان ذلك في رمضان سنة 218. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما ولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريبا.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة 232 بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة 234 وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة 218 وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة 234 حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلانا عاما في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفتين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونه بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لونا آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره فقام إلى الباب ففتحه فإذا به أمام رجلين وامرأتين أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبي صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبي: نعم إنك تؤوي في بيتك علويا من أعداء أمير المؤمنين وقد جئنا لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلفتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله فحلف، وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبي: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت وفتشت

المرأتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدا شيئا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئا.

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من علي بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك.

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا.

ومضت الأيام في إدبارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاود فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافهها

رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماما في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقمت إليه فإذا به يبكي فلما رآني قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جئني بالميزان وبالدراهم ثم أخذ يزن المال ويقول: وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقها كلها فلما فرقها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعا لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذي سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسامراء ضيفا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وأن لا يحمله علي شيء يكرهه.

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع.

أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعارا لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتز في حجرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ.

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يوما مشهودا في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة

كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئا منها.

أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضربة خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيرا بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقى رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حينا حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأما مرضه ووفاته فإنه مرض تسعة أيام قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: استكملت سبعا وسبعين سنة فحم من ليلته وهو محموم يتنفس تنفسا شديدا، وقال صالح: وكنت قد عرفت علته وكنت أمرضه إذا اعتل.

وجاء الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبه وأتى ابن علي بن الجعد فحجبه، وكثر الناس فقال لي: أي شيء ترى؟ قلت: تأذن لهم فيدعون لك قال: أستخير الله تعالى فأذن لهم فجعلوا يدخلون عليه أفواجا، ويسلمون عليه ويرد عليهم بيده، ويسألونه عن حاله، ويدعون له حتى تمتلئ الدار، ثم يخرجون ويدخل فوج آخر، وكثر الناس، وامتلأ الشارع، وأغلقنا باب الزقاق، وجاء رجل من جيراننا قد خضب فسر به، وقال: إني لأرى الرجل يجيء شيئا من السنة فأفرح به فدخل فجعل يدعو له فيقول أبي: ولجميع المسلمين.

وجاء رجل فقال: تلطف لي بالإذن عليه فإني قد حضرت ضربه يوم الدار، وأريد أن استحله. فقلت له، فأمسك فلم أزل به حتى قال: أدخله فأدخلته فقام بين يديه وجعل يبكي وقال: يا أبا عبد الله أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك وإن رأيت أن تحلني فعلت. قال: على ألاَّ تعود لمثل ذلك قال: نعم قال: فإني جعلتك في حل فخرج يبكي وبكى من حضر من الناس ثم قال: وجه فاشتر تمرا وكفر عني كفارة يمين فأخبرته بأني قد فعلت قال: الحمد لله. ثم قال اقرأ علي الوصية فقرأتها فأقرها وكنت أنام إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله، وجعل يحرك لسانه ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها، ولم يزل يصلي قائما أمسكه فيركع ويسجد وأرفعه في ركوعه ولم يزل عقله ثابتا.

وتسامع الناس بمرضه وكثروا وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وباب الزقاق المرابطة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب وجاءه صاحب ابن طاهر فقال: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال: هذا مما أكرهه وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره، وأصحاب الخير يكتبون بخبره إلى العسكر. والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال: ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع فقال له رجل: لا تغتم لهم يا أبا عبد الله فأشار بيده فظننا أن معناه إني لم أرد هذا المعنى. وكان يصلي قاعدا ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر ويرفع يده في إيماء الركوع واشتدت علته يوم الخميس ووضأته فقال: خلل الأصابع، وثقل ليلة الجمعة فلما كان يوم الجمعة الموافق اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام 241 توفي صدر النهار لساعتين منه فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتلأت السكك والشوارع وقال صالح: وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقلت: أقرئ الأمير السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان يكره، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته.

وقد كانت الجارية غزلت له ثوبا عشاريا قوم بثمانية وعشرين

درهما ليقطع منه قميصين فقطعنا له لفافتين وأخذ منه فوران لفافة أخرى فأدرجناه في ثلاث لفائف واشترينا له حنوطا وفرغ من غسله وكفناه، وحضر نحو مائة من بني هاشم ونحن نكفنه، وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير، وقال صالح: وجه الأمير ابن طاهر فقال: من يصلي عليه؟ قلت: أنا، فلما صرت إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوي صفوف الناس فجاءني ابن طاهر فقبض هذا على يدي ومحمد بن نصر على يدي وقالوا: الأمير. فمانعتهم فنحياني وصلى ولم يعلم الناس بذلك فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر، ومكث الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة سوى ما كان في الأطراف والحواري والسطوح والمواضع المتفرقة، ومن كان في السفن في الماء وقد حزر من حضر جنازته فكانوا سبعمائة ألف وقيل: ثمانمائة ألف وقيل: بلغوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وقيل غير ذلك مما يدل على أنهم جمع غفير وكان . يقول في حال صحته: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز.

وقد صنفت في ترجمته مصنفات مستقلة منها: المناقب لأبي الفرج بن الجوزي في مجلد، ومنها لأبي إسماعيل الأنصاري في مجلدين، ومنها لأبي بكر البيهقي في مجلد، ومنها لأبي زهرة مجلد، ومنها لأحمد الدومي في مجلد، وغير ذلك عدا ما في غضون كتب التاريخ والتراجم من ذكر مناقبه وثناء الناس عليه رحمه الله وسائر

أئمة المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم [1].

مواقف من حياة الإمام أحمد:

فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟:

عن عبد الله بن الإمام أحمد قال، قلت لأبي : أي رجل كان الشافعي، فإني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟

إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر:

وعن صالح بن الإمام أحمد قال: لقيني يحيى بن معين فقال: أما يستحيي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال: رأيته مع الشافعي والشافعي راكب، وهو راجل آخذ بزمام دابته. فقلت لأبي ذلك، فقال : إن لقيته فقل: يقول لك أبي: إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر.

ففيه يقول الشافعي:

وعن أبي حميد بن أحمد البصري قال: كنت عند أحمد بن حنبل

(1) المصادر: - القاضي أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة. - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب. أبو زهرة: أحمد ابن حنبل. الدكتور عبد الله العبد المحسن التركي : أصول مذهب الإمام أحمد.
- عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة. أحمد عبد الجواد الدومي : أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا - ولتر م. باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق : أحمد بن حنبل والمحنة.
أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأماني ، ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد. عبد القادر بن أحمد بن بدران: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل.
عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية.

نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث. فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه يقول الشافعي وحجته أثبت شيء فيه.

(ثم قال: أي أحمد) قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا فأجاب فيها، فقلت: من أين قلت؟ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى فنزع في ذلك حديثا للنبي ﷺ، وهو حديث نص.

إمام عالم من قريش:

وكان أحمد - رحمه الله يقول: إذا سئلت في مسألة لا أعرف فيها خبرًا قلت فيها: يقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قريش.

رجل لم تر عيناك مثله:

وعن داود بن علي الأصبهاني قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال: تعالى حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله... فأراني الشافعي.

إذا كان صحيحا:

كان ذلك رأي أحمد بن حنبل في الشافعي، ولا غرو فأن يكون التلميذ معجبا بأستاذه معترفا له بالفضل، ولكن الشافعي نفسه لم يمنع تتلمذ أحمد عليه من أن يعترف به بالفضل والعلم بالسنة فيقول له: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحا فأعلموني إن يكن كوفيا أو بصريا أو شاميا، أذهب إليه إذا كان صحيحا.

وكان الشافعي، حين يحدث عن أحمد، لا يسميه تعظيما له بل يقول: «حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة أو أخبرنا الثقة».

ذلك يوضح لنا بعض ما كان عليه أسلافنا من أدب جم، وخل عال لا ينال منه الاختلاف، ولا يؤثر فيه تباين الاجتهادات، وتلك آداب

الرجال الذين تخرجوا في المدرسة المحمدية، فما عاد للهوى عليهم من سلطان؛ وكتب التراجم والطبقات والمناقب والتاريخ حافلة بما لا يحصى من المواقف النبيلة، والمناظرات الطريفة بين كبار الأئمة والتي كان الأدب سداها، والخلق الإسلامي الرفيع لحمتها، وحري بنا ونحن نعيش الشتات في كل أمورنا أن نعود إلى فيء تلك الدوحة المباركة، ونلتقي على الآداب الكريمة التي خلفها لنا سلفنا الصالح إن كنّا جادين في السعي لاستئناف الحياة الإسلامية الفاضلة.

ونحن لا ننكر أن هناك مواقفًا لم تلتزم فيها هذه الآداب، أو خلت من تلك السمات الخيرة التي ذكرناها، ولكنها كانت مواقف من أولئك المقلدين أو المتأخرين الذين أشربوا روح التعصب، ومردوا على التقليد، ولم يدركوا حقيقة الروح العلمية العالية الكامنة وراء أسباب اختلاف الفقهاء، ولم يلهموا تلك الآداب الرفيعة التي كانت وليدة النية الصادقة في تحري الحق، وإصابة الهدف الذي رمى إليه الشارع الحكيم، ويبدو أنهم كانوا من أولئك الذين قال فيهم الإمام الغزالي: فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزّة بالإعراض عن السلاطين أذلّة بالإقبال عليهم.

والمطلوب سيد نفسه لا ينزع إلا عن الحق، الطالب باع نفسه فلا يشدوا إلا بما يطيب لشاريه، فحولوا الاختلاف الذي كان نعمة أثرت الفقه الإسلامي وأثبت واقعية هذا الدين ورعايته لمصالح الناس إلى عذاب أليم، وصار عاملا من أخطر عوامل الفرقة والتناحر بين المسلمين.. بل تحول إلى نقمة بددت الكثير من طاقات الأمة فيما لا جدوى منه، وشغلتها بما لا ينبغي أن تنشغل به.

والاختلاف الذي تعرضنا لبعض جوانبه في الصفحات السابقة وألمحنا إلى ما كان في رجاله من آداب رفيعة هو الاختلاف الذي وضع فيه الكاتبون كتبهم في «أسباب اختلاف الفقهاء» قديما وحديثا، أما الخلاف الذي تلا تلك القرون الخيرة فهو خلاف من نوع آخر، كما أن له أسبابا أخرى مختلفة.

بين أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال : مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال : ضعه مع أهل زمانه . وسئل عن رجل يريد أن يحفظ حديث رجل واحد بعينه قيل له: حديث من ترى له؟ قال: يحفظ حديث مالك[1].

وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك:

ذكر عبد الغني المقدسي في كتابه محنة الإمام أحمد بسنده إلى أبي علي حنبل قال: حضرت أبا عبد الله - أي أحمد بن حنبل - وأتاه رجل في مسجدنا، وكان الرجل حسن الهيئة كأنه كان مع السلطان، فجلس حتى انصرف من كان عند أبي عبد الله، ثم دنا منه فرفعه أبو عبد الله لما رأى من هيئته، فقال الرجل: يا أبا عبد الله! اجعلني في حل، قال أحمد: من ماذا؟ ! قال: كنت حاضراً يوم ضربت، وما أعنت ولا

(1) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، 1 / 32- 35.

تكلمت، إلا أني حضرت ذلك.

فأطرق أبو عبد الله ثم رفع رأسه إليه فقال: أحدث لله توبةً ولا تعد إلى مثل ذلك الموقف، فقال له: يا أبا عبد الله! أنا تائب إلى الله تعالى من السلطان، قال له أبو عبد الله: فأنت في حل وكل من ذكرني إلا مبتدع، قال أبو عبد الله: وقد جعلت أبا إسحاق - المعتصم - في حل، ورأيت الله عز وجل يقول :{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}
[النور: ٢٢] وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قضية مسطح.

ثم قال أبو عبد الله: العفو أفضل، وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك، لكن لتعف وتصفح عنه فيغفر الله لك كما وعدك.

كثر بكاؤك الليلة فما السبب؟:

ساق المقدسي - رحمه الله، بسنده إلى أبي علي الحسن بن عبد الله الخرقي قال: بت مع أحمد بن حنبل ليلةً، فلم أره ينام إلا يبكي إلى أن أصبح، فقلت: يا أبا عبد الله كثر بكاؤك الليلة فما السبب؟ قال أحمد: ذكرت ضرب المعتصم إياي ومر بي في الدرس قوله تعالى:{ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى: ٤٠] فسجدت وأحللته من ضربي في السجود.

رجل صالح ابتلي فينا فما نعمل؟!:

ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة عن أبي محمد فوزان قال: جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال له: نكتب عن محمد بن منصور الطوسي؟! فقال: إذا لم تكتب عن محمد بن منصور فعمن يكون ذلك؟! قالها مراراً، فقال الرجل: إنه يتكلم فيك، فقال أحمد - رحمه الله تعالى: رجل صالح

ابتلي فينا فما نعمل؟!.

وما أعجب ! مواقف الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى، اقرؤوا هذا الكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل، انظروا مواقفه مع من عاداه ومع من ضربه ومع من سبه وشتمه، فرحم الله الإمام أحمد.

يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك:

كان . يقول: طوبى لمن أحمل الله تعالى ذكره وكان يقول: رأيت رب العزة في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم وكان . إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره قلت: وكذلك كان يحيى بن معين وعبد الله بن داود والله أعلم.

وكان . يقول: تزوج يحيى بن زكريا عليهما السلام مخافة النظر، وكان . يضرب به المثل في اتباع السنة واجتناب البدعة، وكان لا يدع قيام الليل قط، وله في كل يوم وليلة ختمة وكان يسر ذلك عن الناس وقال أبو عصمة . بت ليلة عند أحمد . فجاءني بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء كما هو فقال: يا سبحان الله رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل، وكان يلبس الثياب النقية البياض ويتعهد شاربه وشعر رأسه وبدنه، وكان مجلسه خاصاً بالآخرة لا يذكر فيه شيء من أمر الدنيا وكان يأتي العرس والإملاك والختان، ويأكل، وتعرت أمه من الثياب، فجاءته زكاة فردها، وقال: العري لهن خير من أوساخ الناس، وأنها أيام قلائل ثم نرحل من هذه الدار، وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء في قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وكانوا في بعض الأوقات يطبخون له في فخارة عدساً وشحماً، وكان أكثر إدامه الخل، وكان إذا مشى في

الطريق لا يمكن أحداً يمشي معه، ولما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر إليه وقال هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده، وكان يحيي الليل كله من منذ كان غلاماً وكان من أصبر الناس على الوحدة لا يراه أحد إلا في المسجد أو جنازة أو عيادة، وكان يكره المشي في الأسواق، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما ضرب بالسياط ضعف بدنه فكان يصلي مائة وخمسين ركعة كل يوم وليلة، وحج . خمس حجات ثلاثاً منها ماشياً وكان ينفق في كل حجة نحو عشرين درهماً ولما قدم للسياط أيام المحنة أغاثه الله تعالى برجل يقال له: (أبو الهيثم العيار) فوقف عنده وقال يا أحمد أنا فلان اللص ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت، وأنا أعرف أني على الباطل فاحذر أن تتقلق وأنت على الحق من حرارة السوط، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه ولما دخل أحمد على المتوكل قال المتوكل لأمه يا أماه قد نارت الدار بهذا الرجل ثم أتوا بثياب نفيسة فألبسوها له فبكى وقال: سلمت منهم عمري كله حتى إذا دنا أجلي بليت بهم وبدنياهم ثم نزعها لما خرج، وكان . يواصل الصوم فيفطر كل ثلاثة أيام على تمر وسويق، وقال الفضيل بن عياض . : حبس الإمام أحمد . ثمانية وعشرين شهراً، وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم، وتولى الواثق فاشتد الأمر على أحمد وقال لا أسكن في بلد ألحد فيه فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وولي المتوصل فرفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه وكتب إلى الآفاق برفع المحنة

وإظهار السنة، وأن القرآن غير مخلوق وخمدت المعتزلة وكانوا أشر الطوائف المبتدعة [1].

الزم التقوى قلبك... :

حدث علي بن المديني قال: قال لي أحمد بن حنبل:

- إني لأحب أن أصحبك إلى مكة، وما يمنعني من ذاك إلى أني أخاف أن أملك أو تملني. قال: فلما ودعته قلت له: - يا أبا عبد الله توصيني بشيء؟

قال: الزم التقوى قلبك وانصب الآخرة أمامك.

يا أبت ما هذا الكتاب؟:

حدث صالح بن أحمد بن حنبل قال: دخلت على أبي في أيام الواثق - والله يعلم في أي حالة نحن - وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليها، قد أتت عليه سنون كثيرة حتى قد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه:

(بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق، وما عليك من الدَّين، وقد وجهتُ إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك، وتوسع بها على عيالك، وما هي من صدقة ولا زكاة، وإنما هو شيء ورثته من أبي).

فقرأت الكتاب ووضعته. فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟

فاحمر وجهه وقال: رفعته منك. ثم قال: تذهب بجوابه، فكتب إلى الرجل:

(1) الشعراني، الطبقات الكبرى، 52/1.

(وصل كتابك إليَّ ونحن في عافية، فأما الدَّين: فإنه لرجل لا يرهقنا، وأما عيالنا: فهم في نعمة والحمد لله).

فذهبت بالكتاب إلى الرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال:

- ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلاً في دجلة كان مأجوراً، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف.

فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك، فردّ عليه الجواب بمثل ما ردّ، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت [1].

عليٌّ قاسم الجنّة والنار:

سئل أحمد بن حنبل عن قول الناس: عليٌّ قاسم الجنّة والنار، قال: هذا صحيح، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وعلى آله قال لعليّ بن أبي طالب: " لا يحبّك إّلا مؤمنٌ ولا يبغضك إّلا منافقٌ، فالمؤمن في الجنّة والمنافق في النار " .

حتى أنتفع به كما انتفعت:

قال أبو عبد الله بن الجرّاح: قصدني أحمد بن حنبل فسألني أن اخرج إليه شيئاً من العلم، فأخرجت إليه كتاب العقل لداود بن المحبّر، فانتخب منه أحاديث وردّ الكتاب، فسألته عن ذلك فقال: لم أر فيه أحاديث صحاحاً، قال ابن الجرّاح: كلّه صحيح، قال أحمد: ومن أين عرفت؟ قال: لأني استعملته فوجدته كلّه صحيحاً، فقال ردّ الكتاب إليّ حتى أنتفع به كما انتفعت.

أحمد بن حنبل يكتب شعر أبي نواس

(1) مجلة حضارة الإسلام - السنة 8- العدد 9- ذو القعدة/387- شباط/ 1968.

ولكن قل علي رقيب:

قال أحمد بن يحيى ثعلب: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلاً تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سعرت بين يديه، فما زلت أرفق به، وتوسلت بالشيبانية إليه فقلت: أنا من مواليك يا أبا عبد الله، وذكرت له عبد الله بن الفرج، قال أبو العباس: وعبد الله بن الفرج هذا من صالحي أهل البلد فقرم إلى حديثي وانبسط إلي وقال: في أي شيءٍ نظرت؟ فقلت: في علم اللغة والشعر، فقال: مررت بالبصرة وجماعة يكتبون الشعر عن رجل، فقيل لي هذا أبو نواس، فتخللت الناس ورآني، فلما جلست أمل علينا:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ... ولا أن ما يخفي عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب

ثم أطرق، فعلمت أنه قد مل، فسلمت وانصرفت.

قال محمد بن العباس: فحدث أبي بهذا عبد الله بن المعتز وأنا حاضر أسمع فأنشده الأبيات، فقال لنا عبد الله: هذه الأبيات لأبي نواس من زهدياته [1].

أنت وأبوك في طرفي نقيض:

قرأ عبد الله بن أحمد بن حنبل في الصلاة: اقرأ باسم ربك الذي خلق؛ فقيل له: أنت وأبوك في طرفي نقيض، زعم أبوك أن القرآن

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 359/1.

ليس بمخلوق، وأنت تزعم أن الرب مخلوق.

ولم صارا أحمقين؟:

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: لو جاءني رجل. فقال: إنيّ حلفت بالطلاق ألاَّ أكلم في هذا اليوم من هو أحمق وكلم رافضيا أو نصرانيا لقلت له حنثت، فقال له ابن الديناري: أعزك الله ولم صارا أحمقين؟ قال لأنهما خالفا الصادقين.

أما الصادق الأول: فعيسى عليه السلام قال للنصارى: إني عبد الله وقال: أن اعبدوا الله فقالوا: لا وعبدوه جهلا وحمقا. والصادق الثاني: الإمام علي. فإنه قال عنه ﷺ أنه قال عن أبي بكر وعمر: "**هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما**".

الطعام كان من غيب الله:

قيل: اجتمع أربعة من الأئمة الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور ومحمد بن الحكم. عند أحمد بن حنبل يتذاكرون فصلوا صلاة المغرب، وقدموا الشافعي ثم ما زالوا يصلون في المسجد إلى أن صلوا العتمة، ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعي: مم تضحك يا أبا عبد الله؟ قال: خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا قال الشافعي: فما سببه؟ قال أحمد: قالت لي أم عبد الله أنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض حسن الوجه عظيم الهيئة ذكي الرائحة فقال: يا أحمد بن حنبل، فقلنا: لبيك، فقال: هاكم خذوا هذا فسلم إلينا زنبيلاً أبيض، وعليه مندل طيب الرائحة وطبق مغطى منديل آخر وقال: كلوا من رزق ربكم واشكروا له، فقال الشافعي: يا أبا عبد الله، فما في الزنبيل والطبق، فقال: عشرون رغيفاً

قد عجنت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكى من المسك ما رأى الراؤون مثله، وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضعه بين أيديهم فتعجبوا من شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل من ذلك الطعام ما احتاج إلى طعام غيره مدة شهر، فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه، وأدخله إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان ملكاً من الملائكة قال صالح بن حنبل: ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لا تحتسب . وأعاد علينا من بركاتهم [1].

أفتحله لنا أم تحرمه علينا؟:

وروي أن أخت بشر بن الحارث قصدت أحمد بن حنبل فقالت: إنا قوم نغزل الليل ومعاشنا منها، وربما تمر بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد ونحن على السطح فنغزل في ضوئها الطاقة والطاقتين، أفتحله لنا أم تحرمه علينا؟ فقال لها: من أنت؟قالت: أخت بشر، قا ل آه يا آل بشر لا عدمتكم، لا أزال أسمع الورع الصافي من قبلكم [2].

يؤكل الطعام لثلاث:

وقال ابن مفلح في طبقات الحنابلة في ترجمة علي بن محمد المصري قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يؤكل الطعام لثلاث: مع

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 147/1.
(2) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 50/1.

الإخوان بالصدور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة. انتهى.

هذا الحديث يكفيني:

حكي أن الإمام أحمد بن حنبل . سمع شخصا من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة فسار إليه ودخل عليه فوجده يطعم كلبا وهو مشتغل به قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلي ثم قال: حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال:"**من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامه فلم يلج الجنة وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه** - قال: فقال الإمام أحمد: رحمه الله - هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلا إلى أهله.

من غير بيت بشر:

وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت إني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار فهل على ذلك شيء فقال يجب أن تبيني فلما انصرفت قال أحمد لابنه: اذهب فانظر أين تدخل، فرجع فقال: دخلت دار بشر فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر [1].

لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم:

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر يقول: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم فقال لي: دخلت يوما على أحمد بن حنبل فإذا هو مغموم مكروب فقلت: ما

(1) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 316/1، 216/2.

لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير، قلت: وما الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت إلا أنه بقى في صلبي موضع يوجعني هو أشد علي من ذلك الضرب، قال: قلت اكشف لي عن صلبك، قال: فكشف لي فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط، فقلت: ليس لي بذي معرفة ولكن سأستخبر عن هذا، قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس وكان بيني وبينه فضل معرفة فقلت له: ادخل الحبس في حاجة قال: أدخل، فدخلت، وجمعت فتيانهم وكان معي دريهمات فرقتها عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي، ثم قلت: من منكم ضُرب أكثر؟ قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربا وأشدهم صبرا، قال: فقلت له أسألك عن شيء فقال: هات، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضرب على الجوع للقتل سياطا يسيرة إلا أنه لم يمت وعالجوه وبرأ إلا أن موضعا في صلبه يوجعه وجعا ليس له عليه صبر قال: فضحك، فقلت: مالك، قال: الذي عالجه كان حائكا قلت إيش الخبر؟ قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميته لم يقلعها، قلت: فما الحيله؟ قال: يبط صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته قال فخرجت من الحبس، فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته فقصصت عليه القصة قال ومن يبطه؟ قلت: أنا، قال: أو تفعل؟ قلت: نعم، قال: فقام فدخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان وعلى كتفه فوطة فوضع إحداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال استخر الله فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت أرني موضع الوجع فقال ضع إصبعك عليه فإني أخبرك به، فوضعت إصبعي وقلت ها هنا موضع الوجع قال: ههنا أحمد الله على العافيه فقلت ها هنا قال هاهنا أحمد الله على العافيه

فقلت هاهنا قال هاهنا أسأل الله العافيه قال فعلمت أنه موضع الوجع فال فوضعت المبضع عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم أغفر للمعتصم حتى بططته فأخذت القطعه الميتة ورميت بها وشددت العصابة عليه وهو لا يزيد على قوله اللهم اغفر للمعتصم قال: ثم هدأ وسكن ثم قال كأني كنت معلقا فأصدرت قلت: يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم قال إني أفكرت فيما تقول وهو ابن عم رسول الله ﷺ فكرهت أن آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة هو مني في حل [1].

هذه مشية الخدام في دار السلام:

سمعنا أبا يحيى زكريا بن يحيى السمسار يقول: رأيت أحمد بن حنبل في المنام وعلى رأسه تاج مرصع بالجوهر وفي رجليه نعلان من ذهب وهو يخطر بهما قال: قلت أبا عبد الله ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدناني من نفسه، وتوجني بيده هذا التاج وقال: هذا بقولك القرآن كلام الله غير مخلوق قال: قلت فما هذه الخطرة التي لم أعرفها لك في دار الدنيا قال هذه مشية الخدام في دار السلام [2].

قال الحسن بن محمد: رأيت أحمد بن حنبل . في النوم فقال: يا أبا علي لو رأيت صلاتنا على النبي ﷺ في الكتب كيف تزهو بين يدينا؟ ولذا قال سفيان الثوري: لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلا الصلاة

(1) محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، 1397- 1977، ص 166.

(2) أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، معجم السفر، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة، ص 48.

على رسول الله ﷺ فإنه يصلي عليه ما دام اسمه في ذلك الكتاب ﷺ. وقال عبد الله بن عبد الحكم: رأيت الشافعي . في النوم فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: رحمني وغفر لي وزفني إلى الجنة كما تزف العروس، ونثر علي كما ينثر على العروس، فقلت: بماذا بلغت هذه الحالة؟ فقال لي قائل: بقولك في (كتاب الرسالة) من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، قلت: فكيف ذلك؟ قال: وصلى الله على محمد عدد ما ذكره الذاكرون وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون فلما أصبحت نظرت إلى الرسالة فوجدت الأمر كما رأيت ﷺ. وذكر في جلاء الأفهام من هذا أشياء كثيرة. وفي حديث ابن عباس مرفوعا:"**جاءني جبريل عليه السلام فقال: إنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله وأسحقه، فقلت آمين**"[1]. ومن حديث كعب بن عجرة . مرفوعا:"**أن جبريل عرض لي فقال بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين**"[2]عن أبي هريرة مرفوعا:"**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي**".

وعن الحسين بن علي -رضوان الله عليهما عن النبي ﷺ قال:"**البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي**"[3]وما أحسن قول الإمام الصرصري في ذلك: من لم يصل عليه إن ذكر اسمه فهو البخيل وزده وصف جبان وإذا الفتى في العمر صلى مرة في سائر الأقطار والبلدان صلى عليه الله عشرا فليزد عبد ولا يجنح إلى نقصان وأخرج النسائي عن جابر . قال: قال رسول الله ﷺ :"**ما اجتمع قوم ثم تفرقوا**

(1) رواه الترمذي وحسنه.
(2) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، والترمذي وحسنه.
(3) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه والترمذي وزاد في سنده علي بن أبي طالب وقال: حديث حسن صحيح غريب.

عن غير ذكر الله عز وجل وصلاة على النبي ﷺ إلا قاموا عن أنتن من جيفة[1]، إلا أنه قال :"**إلا قاموا عن أنتن جيفة**- قال الإمام أبو عبد الله المقدسي: هذا على شرط مسلم [2].

اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء:

رؤي الإمام أحمد بن حنبل . في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وألبسني نعلين من ذهب وقال: يا أحمد ادعني بالدعوات التي كنت تدعوني بها في الدنيا فقلت: اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء ولا تسألني عن شيء فقال: يا أحمد قم فادخل الجنة [3].

ان كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك ستري:

قال بعضهم رأيت النبي ﷺ في المنام فسألته عن أحمد فقال: اسأل عنه موسى فسألته فقال: هو من الصديقين وقال بعضهم: رأيت زبيدة في المنام وكنيتها أم العزيز وشعرها أبيض فسألتها عن ذلك فقالت: لما جردوا الإمام أحمد للضرب زفرت جهنم زفرة فلم يبق أحد في القبور إلا ابيض شعره ولما ضربه الجلاد أول ضربة بالسوط شق خاصرته فقال: اللهم اعم بصره ثم رآه بعد ذلك وهو أعمى، فسأله عن ذلك فقال: حتى تخرج الروح قبل أن تقول القرآن مخلوق، فقال الإمام أحمد: اللهم إن كان صادقا فرد عليه بصره، فرد الله بصره وفي

(1) رواه أبو داود الطيالسي.

(2) محمد بن أحمد بن سالم السفار ينى الحنبلي ، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية، 1423 هـ - 2002 م، ص18.

(3) عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 107/1.

السوط الأول قال: بسم الله وفي الثاني قال لا حول ولا قوة إلا بالله وفي الثالث قال القرآن كلام الله غير مخلوق وفي الرابع لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ثم انقطعت حاشية سراويله فقال: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم إني على صواب فلا تهتك ستري فرفعت سراويله.

من أنت؟ :

قال معروف الكرخي رأيت رجلا في المنام قلت له: من أنت؟ قال: موسى بن عمران، قلت: موسى عمران الذي كلم الله، قال: نعم ثم رأيت ثلاثة نزلوا من سقف البيت فقلت: من هؤلاء؟ قال عيسى بن مريم ونبيكم محمد وأحمد بن حنبل وحملة العرش والملائكة يشهدون القرآن كلام الله غيري مخلوق.

رأيت النبي ﷺ في المنام:

قال الشافعي . رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وأقرئه مني السلام وقل له إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم فيرفع الله لك علما يوم القيامة [1].

فأفاضه على سائر جسده:

وحكي أن الشافعي . لما كان بمصر ، رأى في المنام سيد المرسلين ﷺ، وهو يقول له: بشر أحمد بن حنبل بالجنة، على بلوى تصيبه فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجب إلى ذلك، بل يقول هو منزل غير مخلوق. فلما أصبح الشافعي رضي الله تعالى عنه، كتب صورة ما رآه في منامه، وأرسله مع الربيع إلى بغداد إلى أحمد

(1) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 470/2.

فلما وصل بغداد، قصد منزل أحمد واستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال له: هذا كتاب أخيك الشافعي، فقال له: هل تعلم ما فيه؟ قال: لا ففتحه وقرأه وبكى. وقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ثم أخبره بما فيه، فقال: الجائزة، وكان عليه قميصان أحدهما على جسده، والآخر فوقه. فنزع الذي على جسده ودفعه إليه. فأخذه ورجع إلى الشافعي. فقال له الشافعي: ما أجازك؟ قال: أعطاني القميص الذي على جسده. فقال: أما أنا فلا أفجعك فيه، ولكن أغسله وائتني بمائه، فغسله وأتاه بالماء، فأفاضه على سائر جسده [1].

والله لرفْسَتُهُ لي أحب إليّ من سفرتي:

قال أحمد بن منصور الرمادي: خرجت مع أحمد (يعني ابن حنبل) ويحيى ابن معين إلى عبد الرزاق ابن همام الصنعاني خادمًا لهما، قال: فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين: أريد أن أختبر أبا نعيم، فقال أحمد: لا تُرِدْ فالرجل ثقة، قال يحيى: لا بد لي، فأخذ ورقة فكتب فيها ثلاثين حديثًا وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم فخرج وجلس على دكان طين (مكان مرتفع) وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه ويحيى عن يساره وجلستُ أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي؛ اضرب عليه، ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم ساكت فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي فاضرب عليه ثم قرأ العشر الثالث ثم قرأ الحديث الثالث فتغير أبو نعيم وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى فقال: أمّا هذا - وذراع أحمد بيده - فأورع من أن يعمل

(1) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 119/1.

مثل هذا، وأما هذا - يريدني - فأقل من أن يفعل ذلك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، وأخرج رجله فرفس يحيى فرمى به من الدكان وقام فدخل داره فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمنعك وأقل لك إنه ثَبْتٌ، قال: والله لرفْسَتُهُ لي أحب إليّ من سفرتي.

فاتهمه على الإسلام:

قال الإمام أحمد بن حنبل . لما سئل عن رجل تنقص معاوية، وعمرو بن العاص أيقال له رافضى؟ فقال: " إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيئة سوء، ما انتقص أحدٌ أحداً من الصحابة إلا وله داخلة سوء ". وفى رواية أخرى قال: " إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام " [1].

لا حتى أموت:

عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: لما حضرت أبي الوفاة فجلست عنده والخرقة بيدي أشد بها لحييه، قال : فجعل يغرق ثم يفيق ويفتح عينيه ويقول: بيده هكذا لا بعد لا بعد لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبه إيش هذا الذي لهجت به في هذا الوقت؟! فقال: يا بني أما تدري؟! قلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قائم بحذائي عاض على أنامله يقول: يا أحمد فتَّني! فأقول: لا حتى أموت.

متى يجد العبد طعم الراحة؟:

عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل أنه جاءه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله قصدتك من خراسان أسألك عن مسألة! قال له: سل؛ قال: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

(1) البداية والنهاية، 142/8.

إنما تحفة المؤمن حفرته:

قال المروزي: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : كأنك بالموت وقد فرق بيننا، ما أعدل بالفقر شيئاً؛ أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء، إني لأتمنى الموت صباحاً ومساءً؛ أخاف أن أفتن في الدنيا؛ قال مسروق : إنما تحفة المؤمن حفرته.

العلم خزائن يقسم الله لمن أحب:

قال أحمد بن حنبل : العلم خزائن يقسم الله لمن أحب، لو كان يخص بالعلم أحداً لكان بيت النبي ﷺ أولى؛ كان عطاء بن أبي رباح حبشياً، وكان يزيد بن أبي حبيب نوبياً أسود، وكان الحسن مولى للأنصار، وكان ابن سيرين مولى للأنصار.

لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد:

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عيناه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً، وقال : قال محمد بن واسع: لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد.

ولعنتي تبلغ السابع من الولد:

قال ابن القيم: ذكر الإمام أحمد عن وهب: أن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل : " إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد ".

من كلام الإمام أحمد:

- قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن الغناء فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ ثم ذكر قول مالك: إنما يفعله عندنا الفساق.

- قال أبو غذاء: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يعجبني أن يكون للرجل ركعات من الليل والنهار معلومة فإذا نشط طولها، وإذا لم ينشط خففها.

- قال أحمد بن حنبل - رحمه الله: هب المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟

- قال أحمد بن حنبل: ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

- " أصول السُّنَّةِ عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال، والخصومات في الدين.

- والسنة عندنا: آثار رسول الله ﷺ.

- والسنة تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن.

- ومن السنة اللازمة التي مَن ترك منها خصلة لم يَقبلها ويؤمن بها، لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها.

ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حَديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر، ومثل أحاديث الرؤية كلها، وإن نَبت عن

الأسماع، واستوحش منها المستمع، فإنما عليه الإيمان بها، وألا يردَّ منها حَرفًا واحدًا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات.

وأن لا يخاصم أحدًا ولا يُناظره، ولا يتعلم الجدل، فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن، وغيرها من السنن، مكروه منهي عنه، ولا يكون صاحبه إن أصاب بكلامه السنة: من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم، ويؤمن بالآثار.

والقرآن كلام الله، وليسَ بمخلوق، ولا تضعف أن تقول: ليس بمخلوق، فإن كلام الله منه، وليس منه شيء مخلوق، وإياك ومناظرة من أحدث فيه، ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه، فقال: لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق، وإنما هو كلام الله، وليس بمخلوق.

والإيمان بالرؤية يوم القيامة، كما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث الصحاح.

والإيمان بالميزان كما جاء، وتوزن أعمال العباد كما جاء في الأثر.

وأنَّ الله تبارك وتعالى يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان.

والإيمان بالحوض، وأن لرسول الله ﷺ حوضًا يوم القيامة ترد عليه أُمته، عرضه مثل طوله مَسيرة شهر، آنيته كعدد نجوم السماء على ما صحت به الأخبار من غير وجه.

والإيمان بعذاب القبر، وأن هذه الأمة تُفتن في قبورها وتُسأل عن الإيمان، والإسلام، ومن ربه، ومن نبيه؟ ويأتيه منكر ونكير كيف شاء الله عز وجل، وكيف أراد.

والإيمان بشفاعة النبي ﷺ، وبقوم يخرجون بعدما احترقوا وصاروا فحمًا، فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة كما جاء في الأثر، كيف شاء الله، وكما شاء.

والإيمان أن المسيح الدجال خارج، مكتوب بين عَينيه: كافر، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كائن، وأن عيسى ابن مريم ينزل فيقتله بباب لُد.

والإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص، كما جاء في الخبر: " **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** "[1].

وخيرُ هذه الأمة بعد نبيها، أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، نقدم هؤلاء الثلاثة، كما قدمهم أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا في ذلك.

ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طالب، وطَلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، كلهم يصلح للخلافة، وكلهم إمام.

ثم من بعد أصحاب الشورى، أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، على قدر الهجرة والسابقة أولاً فأول.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء، أصحاب رسول الله صلى الله عليه

(1) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (4682)، والترمذي في كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها: (1162)، وأحمد في مسنده: (2 / 250، 472)، وصححه ابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق: (4176)، والحاكم في كتاب الإيمان: (1 / 3)، ووافقه الذهبي.

وسلم القرن الذي بعث فيهم.

كل من صحبه سنة، أو شهرًا، أو يومًا، أو ساعة، أو رآه ساعةً فهو من أصحابه، له من الصّحْبَةِ على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه، وسمع منه، ونظر إليه.

فأدناهم صحبة هو أفضل من القَرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال.

كان هؤلاء الذين صحبوا النبي ﷺ ورأوه وسمعوا منه.

ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين ولو عملوا كل أعمال الخير.

والسمع والطاعة للأئمة. وأمير المؤمنين، البَر والفاجر، من ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمي أمير المؤمنين.

والغزو ماضٍ مع الأمراء إلى يوم القيامة، البَر والفاجر لا يترك.

وقسمة الفَيء، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماضٍ ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائزة ونافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه، برًا كان أو فاجرًا.

وصلاة الجُمعة خلفه وخلف من ولي جائزة تامة، ركعتان من أعادهما فهو مبتدع، تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برهم وفاجرهم، فالسنة: أن تصلي معهم ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع، وتدين بأنها

تامة ولا يكن في صدرك من ذلك شك.

ومن خرج على إمام المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة، بأي وجه كان، بالرضى أو بالغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن مات الخارج عليه، مات ميتة جاهلية.

ولا يَحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحدٍ من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق.

ولا يشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنةٍ ولا نار، يرجو للصالح ويخاف عليه، ويخاف على المسيء المذنب ويرجو له رحمة الله.

ومن لقي الله بذنب تجب له به النار، تائبًا غير مُصِرٍّ عليه، فإن الله عز وجل يتوب عليه، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

ومن لقيه وقد أقيم عليه حدّ ذلك الذنب في الدنيا فهو كفارته كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ [1].

ومن لقيه مُصرًّا غير تائب من الذنوب التي قد استوجبت بها

(1) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار: (18)، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها: (1709)، والترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء أن الحدود كفارةٌ لأهلها: (1439)، والنسائي في كتاب البيعة، باب البيعة على فراق المشرك: (4178)، وأحمد في مسنده: (5 / 314، 320)، والدارمي في كتاب السير، باب في بيعة النبي ﷺ: (2457)، عن عبادة بن الصامت قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: (بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه)، فبايعناه على ذلك. (واللفظ للبخاري).

العقوبة، فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافرًا عذّبه ولم يَغفر له.

والرجم حق على من زنى وقد أُحصن إذا اعترف، أو قامت عليه بينة. وقد رجم رسول الله ﷺ، وقد رَجم الأئمة الراشدون.

ومن انتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، أو أبغضه لحدثٍ كان منه، أو ذكر مساوئه، كان مبتدعًا حتى يترحم عليهم جميعًا ويكون قلبه لهم سليمًا.

والنفاق هو الكفر، أن يكفر بالله، ويعبد غيره، ويظهر الإسلام في العلانية، مثل المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وهذه الأحاديث التي جاءت نرويها كما جاءت ولا نفسرها.

مثل:"**لا تَرجعوا بعدي كفاراً يَضرب بعضكم رقابَ بعض**"[1].

ومثل:"**إذا التَقى المسلمان بسيفيهما فالقاتِل والمَقتول في النار**"[2].

ومثل:"**سباب المسلم فُسوق وقِتاله كفر**"[3].

(1) أخرجه البخاري واللفظ له، في كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل (ويلك): (6166)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ (لا ترجعوا بعدي كفارًا..) إلخ: (66)، وأبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (4686)، والنسائي في كتاب تحريم الدم، باب تحريم القتل: (4125)، وأحمد في مسنده: (2 / 85، 87، 104).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..): (31)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (2888).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن.. إلخ: (48)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ (سباب المسلم..) إلخ: (64)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشتم: (1983)، والنسائي في كتاب تحريم الدم، باب قتال

ومثل:"**أَيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باءَ بها أحَدهما**"[1].

ومثل:"**... كُفْرٌ بالله تَبروٌّ من نَسَب وإنْ دَقّ**"[2].

ونحوه من الأحاديث مما قد صح وحُفظ، فإنا نسلم له، وإن لم يعلم تفسيرها، ولا يتكلم فيه، ولا يجادل فيه، ولا نُفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت ولا نردها إلا بأحقّ منها.

والجنة والنار مخلوقتان قد خُلِقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ، فمن زعم أنهما لم تخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار.

ومن مات من أهل القبلة موحدًا يُصلَّى عليه، ويستغفر له، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرًا كان أو كبيرًا، وأمره إلى الله عز وجل "[3].

المسلم: (4105).

(1) أخرجه البخاري واللفظ له في كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه.. إلخ: (6104)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه: يا كافر: (60).

(2) رواه الدارمي في كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه: (2864)، وأبو بكر المروزي في (مسند أبي بكر الصديق) برقم: (90)، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد)، كتاب الإيمان، باب فيمن ادعى غير نسبه.. إلخ: (1 / 97).

(3) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي: (1 / 156- 164).

رسالة الإمام أحمد إلى الخليفة المتوكل في مسألة القرآن [1]:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

حدث صالح قال: كتب عبيد الله بن يحيى إلى أبي رحمة الله عليه يخبره: أن أمير المؤمنين أمرني أن أكتب إليك أسألك عن أمر القرآن، لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة. فأملى على أبي رحمه الله:

إلى عبيد الله، أحسن الله عاقبتك أبا الحسين في الأمور كلها، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته، قد كتبت إليك رضي الله عنك بالذي سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرني، وإني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين فقد كان الناس في خوض من الباطل، واختلاف شديد يغتمسون فيه حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، فصرف الله ذلك كله، وذهب به أمير المؤمنين.

ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما ودعوا الله لأمير المؤمنين، فأسأل الله أن يجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك

(1) هذه الرسالة جواب على مسألة الخليفة العباسي أمير المؤمنين المتوكل، وهو جعفر بن المعتصم (206هـ - 247هـ)، حيث كتب وزيره عبيد الله بن يحيى بن حاقان (263هـ) إلى الإمام أحمد يخبره أن أمير المؤمنين أمره أن يكتب إليه يسأله عن القرآن، لا مسألة امتحان - أي اختبار واستظهار لما في قلبه - لكن مسألة معرفة وتبصر، وبها أملى الإمام أحمد الجواب بهذه الرسالة. ومن ميزات هذه الرسالة أنها جمعت قول الإمام أحمد - بلفظ نفسه - في هذه المسألة العظيمة، وأنها جاءت في خلاص الناس من شرك تلك المحن، وثالثها عناية العلماء بهذه الرسالة بكثرة رواتها ونقلتها.

لأمير المؤمنين، ويزيد في نيته ويعينه على ما هو عليه.

وقد ذكر عن عبد الله بن عباس ـ رحمة الله عليه ـ أنه قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم [1].

وذكر عبد الله بن عمرو: أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا. قال: فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان. فقال:"**أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، وانظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه** ـ [2].

وروي عن أبي هريرة . عن النبي ﷺ قال:"**لا تماروا في القرآن، فإن مراء فيه كفر** ـ [3].

وقال عبد الله بن عباس : قدم على عمر بن الخطاب . رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا.

فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه، فانطلقت إلى

(1) هذا الخبر عنه رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (10217) في كتاب فضائل القرآن من طريق جعفر عن ليث عن عطاء عنه به. وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية 3 / 297، من طريق مسدد به وذكر محقق الكتاب الأعظمي أن البوصيري سكت عليه.

(2) صحيح مسلم العلم (2666)، سنن ابن ماجه المقدمة (85)، مسند أحمد بن حنبل (2/196).

(3) مسند أحمد بن حنبل (205/4).

منزلي مكتئبا حزينا، فبينما أنا كذلك إذ أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، وأخذ بيدي فخلا بي، وقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني أستغفر الله عز وجل وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت. قال: لتحدثني ما الذي كرهت مما قال الرجل، قال: إنما قلت يا أمير المؤمنين متى يتسارعوا هذه المسارعة يتحقوا، ومتى يتحقوا

يختصموا، ومتى يختصموا يختلفوا، ومتى يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك، والله إن كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها [1].

وروي عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول:" **هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي-** [2].

وروي عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ :"**إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه - يعني القرآن-** [3].

وروي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال:" **ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه - يعني القرآن-** [4].

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: جردوا القرآن ولا تكتبوا

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (20368)، وأبو يعقوب البسوي في المعرفة بالتاريخ
1 / 516- 517، كلاهما من طريق معمر عن علي بن بذيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به، وهذا إسناد كله ثقات، وذكره ابن الأثير في النهاية 1 / 414.
(2) سنن الترمذي فضائل القرآن (2925)، سنن أبو داود السنة (4734)، سنن ابن ماجه المقدمة (201)، مسند أحمد بن حنبل (390/3)، سنن الدارمي فضائل القرآن (3354).
(3) سنن الترمذي فضائل القرآن (2911)، مسند أحمد بن حنبل (268/5).
(4) سنن الترمذي فضائل القرآن (2911)، مسند أحمد بن حنبل (268/5).

فيه شيئا إلا كلام الله [1].

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: ” إن هذا القرآن كلام الله فضعوه على مواضعه ” [2].

وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد إذا قرأت كتاب الله وتدبرته ونظرت في عملي كدت أن أيأس وينقطع رجائي. قال: فقال له الحسن: ” إن القرآن كلام الله وأعمال بني آدم إلى الضعف

(1) رواه عبد الرزاق في المصنف رقم (7944) عن سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن ابن مسعود به. وأخرجه أيضا ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (10301) عن وكيع عن سفيان به. ورواه أيضا برقم (10302) عن سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، قال عبد الله به. وقال في المجمع 7 / 161: وعن أبي الزعراء قال: قال عبد الله:
” جرّدوا القرآن لا تلبسوا به ما ليس منه ” . رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي الزعراء، وقد وثقه ابن حبان، وقال البخاري: ” لا يتابع في حديثه ” . ا هـ. ووثقه أيضاً العجلي وابن سعد في الطبقات كما في التهذيب 6 / 61. والله أعلم.

(2) رواه أحمد في الزهد عن يحيى بن غيلان، ثنا رشدين، ثنا يونس، عن ابن شهاب، عن عمر رضي الله عنه به وزاد: ” ولا تتبعوا أهواءكم ” . وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة من وجهين بمعناه رقم 117- 118: الأول: قال حدثني أبو معمر، ثنا جرير، عن ليث، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء عن عمر رضي الله عنه بلفظ: ” إن هذا القرآن كلام الله عز وجل، فلا أعرفنَّ ما عطفتموه على أهوائكم ” . وأخرجه هكذا الدارمي في الرد على الجهمية ص 90، وأبو بكر الآجري في الشريعة ص 76 من طريق أبي إسحاق الفزاري عن الحسين بن عبد الله النخعي عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عمر به. والثاني: قال: حدثني عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن هانئ عن عمر ببعضه وهو: ” أن القرآن كلام الله عز وجل ” . ورواه الدارمي في سننه 1 / 533 من طريق إسحاق، ثنا جرير به. والآجري في الشريعة ص 77، من طريق عثمان وأبي شيبة به، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات 1 / 591- 592 من كلا الطريقين وفي الاعتقاد بنفس الإسناد
ص 104، والحديث حسن بمجموع طرقه وله شواهد كثيرة عن جماعة من الصحابة ذكر بعضها البيهقي في الأسماء والصفات 1 \ 591- 601. والله أعلم.

والتقصير فاعمل وأبشر ".

وقال فروة بن نوفل الأشجعي: " كنت جارا لخباب وهو من أصحاب النبي ﷺ فخرجت معه يوما من المسجد وهو آخذ بيدي، فقال: يا هناة تقرب إلى الله بما استطعت؛ فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه ".

وقال رجل للحكم بن عتيبة: ما حمل أهل الأهواء على هذا؟ قال: الخصومات.

وقال معاوية بن قرة - وكان أبوه ممن أتى النبي صلى الله عليه وسلم -:"**إياكم وهذه الخصومات فإنها تحبط الأعمال**".

وقال أبو قلابة، وكان أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ: " لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون ".

ودخل رجلان - من أصحاب الأهواء - على محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا. لتقومان عني، أو لأقومنه. قال: فقام الرجلان فخرجا. فقال بعض القوم: يا أبا بكر، ما كان عليك أن يقرءا عليك آية من كتاب الله؟ فقال محمد بن سيرين: " إني خشيت أن يقرءا علي آية، فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي " فقال محمد: " لو أعلم أني أكون مثل الساعة لتركتهما ".

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني: " يا أبا بكر، أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول بيده: ولا نصف كلمة ".

وقال ابن طاووس لابن له - وتكلم رجل من أهل البدع -: أدخل أصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع ما يقوله. ثم قال: اشدد، اشدد.

وقال عمر بن عبد العزيز: " من جعل دينه عرضا للخصومات أكثر التنقل ".

وقال إبراهيم النخعي: " إن القوم لم يدخر عنهم شيء خبئ لكم لفضل عندكم ".

وكان الحسن البصري يقول: " شر داء خالط قلبا، يعني الهوى ".

وقال حذيفة بن اليمان - وكان من أصحاب النبي ﷺ : " اتقوا الله معاشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا، أو قال: مبينا " [1].

وإنما تركت ذكر الأسانيد، لما تقدم من اليمين التي حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين، لولا ذلك ذكرتها بأسانيدها.

وقد قال الله جل ثناؤه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ

(1) أخرج البخاري أكثره في صحيحه في كتاب الاعتصام بالسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ رقم6853 من طريق الأعمش عن إبراهيم عن همام عن حذيفة. أما بلفظ الإمام أحمد فأخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة ص25 من طريق يحيى بن يحيى ثنا سليم بن أخضر عن عوف بن إبراهيم عن حذيفة رضي الله عنه به. وأخرجه بمثل لفظ البخاري من طريقه أيضا، وأخرجه ابن وضاح القرطبي في (البدع والنهي عنها) ص10، أخبرنا أسد عن محمد بن حازم عن الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحازمي عن حذيفة به. ومن وجه آخر أيضا عن ابن المبارك عن عبد الله بن عون عن إبراهيم عن حذيفة به، وكذا رواه ابن عبد البر في (الجامع) 2 /119 عن ابن مسعود أيضا في 2 / 97 واللالكائي في (أصول السنة) رقم 119، وأبو نعيم في (الحلية) 1 / 280 والبغوي في (شرح السنة) 1 / 214 وغيرهم، رحمهم الله.

يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦] وقال: {أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ} [الأعراف: ٥٤] وأخبر تبارك وتعالى بالخلق، ثم قال: والأمر، فأخبر أن الأمر غير الخلق.

وقال تبارك وتعالى: {ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (٤)} [الرحمن: ١ - ٤] فأخبر تبارك وتعالى أن القرآن من علمه. وقال: {وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)} [البقرة: ١٢٠] وقال: {وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥)} [البقرة: ١٤٥] وقال: {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ (٣٧)} [الرعد: ٣٧] [1] فالقرآن علم الله.

وفي هذه الآيات دليل على أن الذي جاءه ﷺ هو القرآن لقوله: {وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ} [البقرة: ١٢٠].

وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: " القرآن كلام الله ليس بمخلوق " [2]. وهو الذي أذهب إليه، ولست

(1) في هذه الآيات استدل الإمام على أن الذي أوتيه الرسول هو العلم وهو من علم الله وهو القرآن. فكيف يكون ما هو من علم الله مخلوقاً؟! وفي آية الرعد كذلك نص بتنزيله حكما عربيا، وهل يكون بهذا مخلوقا؟!.

(2) هذه الجملة العظيمة تواتر نقلها عن سلفنا الصالح تواتراً كثيراً حتى أُفردت في أجزاء مستقلة وضمن مؤلفات السنة الكبار ففيه من المستقل: رسالة الحربي السابقة، ورسالة جعفر بن إدريس القزويني وغيرهما. أما داخل المؤلفات الجامعة لمقالات أهل السنة في أصول الاعتقاد فهو مما اشتهر وكثر نقله. ومن المؤلفات الكبار الحاوية لتواتر هذه الجملة الرد على الجهمية للأئمة: أحمد بن حنبل، وعثمان الدارمي، والبخاري، وكتاب الشريعة لأبي بكر الآجري ص 72- 96. وكتاب (السنة) رواية أبي بكر الخلال الجزء السادس

بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان من كتاب الله، أو في حديث عن النبي ﷺ وشرعه، أو عن أصحابه - رحمة الله عليهم - أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود.

وإني أسأل الله أن يطيل بقاء الأمير، وأن يثبته ويمده منه بمعونة، إنه على كل شيء قدير [1].

* * *

والسابع من المخطوط من ورقة (56- 192). و(السنة) لعبد الله بن أحمد (1 / 106- 171)، وكتاب (الإبانة الكبرى) لابن بطة العكبري الحنبلي من (ص 495- 615)، (وشرح أصول اعتقاد أهل السنة) للالكائي الجزء الثاني منه بتمامه، (والأسماء والصفات) للبيهقي
(1 / 585)، إلى نهاية المجلد الأول تقريباً، و(ذم الكلام) لأبي إسماعيل الهروي في الباب السادس عشر، باب إنكار أئمة الإسلام ما أحدثه المتكلمون في الدين من الأغاليط وصعاب الكلام والشبهة والمجادلة وزايغ التأويل والمهازلة ورأيهم فيهم على الطبقات من أول الجزء الثاني إلى الورقة 247. و(الاعتقاد) للبيهقي ص 43- 54، في باب القول في القرآن. إلى بقية الحديث والسنن في أثناء أبواب التوحيد، وذم الرأي والخصومة في الدين، وصفات الله، رحم الله مؤلفيها وأجزل مثوبتهم، آمين.

(1) إبراهيم بن إسحاق الحربي، رسالة في أن القرآن غيرمخلوق، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، 1995، ص 47- 61، مجلة البحوث الإسلامية، 51 /175- 194.

الإمام مالك

أعلام الحديث

الإمام مالك

مالك بن أنس: دار مع الإمامة، وهجر الدنيا لأنه إمام دار الهجرة، أبدع في الأثر فثار عليه أهل البدع، العقل الغزير علمه أن الوقار ملك، وأن العلم نور، وأن الإمامة مطلب، أسرته يمانية، ونشأته حجازية، وخلافته عراقية، ومدرسته مغربية.

مالك بن أنس في خدمة العلم كـ أنس بن مالك في خدمة المعلم، تشابهت قلوبهم، لبى نداء الواجب فما أبطأ، ونطق بالحكمة فما أخطأ، ثم قدم للأمة كتاب الموطأ.

خافه أعداء الملة وخصوم الشريعة، فنادوا : (يا مالك! ليقضِ علينا ربك) سكن الدار، وجاور الأنصار، ونشر الآثار.

أرسل إلى العالم " الموطأ "، فنشر في " التمهيد "، ورتب في " الاستذكار " ونثر في " المدونة "، وضبط في " الموافقات "، علومه باسقاتٌ لها طلعٌ نضيد، جادل أبا حنيفة، وعلم الشافعي، وورث علمه أحمد.

أما العقيدة : فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأما الحديث : فثقة الراوي، وعدالة الشيخ، وشهرة المتن، وأما الفقه: فموافقة الأصل، واطّراح الشواذِّ، واتباع المشهور.

وأما الزهد : فإظهار النعمة، واجتناب الحرام، ومخالفة الهوى، واطرّاح الدنايا.

مالك بن أنس: هو الإيجاز في بلاغة، والبساطةفي عمق، والتواضع في هيبة، رآه أبو جعفر فكبر، وقال: وطئ لنا العلم فقال له: سهل لنا الحكم.

قال له القضاء :{هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣] قال :{مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ} [يوسف: ٢٣] وأتته الدنانير فصاح :{وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [الأحزاب: ٣٣] وطلبه المنصب، فنادى :{فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم} [النمل: ٣٦] (1).

بُشِّر أنس بن مالك بن أبي عامر ذات يوم ببشرى سعيدة، فقد رزقه الله بمولود أسماه (مالكًا) كان ذلك الحدث السعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على بقعة من أطهر بقاع الأرض وهي المدينة المنورة، البلد الذي هاجر إليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فاستنارت بهم وازدانت.

فتح مالك عينيه على الحياة، فوجد التقدير والمهابة يعم المدينة وأهلها، وكيف لا وقد حوى ترابها جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفن فيها، وضمت أرجاؤها حلقات العلم التي تنتشر في كل مكان.

نشأ الطفل في أسرة تشتغل بالعلم، فجده (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين فشجعه ذلك على حفظ القرآن الكريم، فأتم حفظه وأتقن تلاوته، لكنه لم يكتفِ بذلك بل إنه أراد حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب إلى أمه وقال لها: يا أماه إني أحب رسول الله ﷺ وأريد أن أحفظ أحاديثه، فكيف لي بذلك؟! ابتسمت أمه ابتسامة

(1) عائض بن عبد الله القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم، 4 / 10.

صافية، وضمته إليها، ثم ألبسته ثيابًا جميلة وعممته وقالت له: اذهب إلى (ربيعة الرأي) - وكان فقيهًا كبيرًا - وتعلم من أدبه قبل علمه.

فجلس الطفل الصغير - مالك بن أنس - يستمع إلى شيخه وينهل من علمه، وبعد انتهاء الدرس يسرع بالجلوس تحت ظلال الأشجار ليحفظ ما سمعه من معلمه؛ حتى لا ينساه، وقد رأته أخته ذات مرة وهو على هذه الحال؛ فذهبت إلى أبيها وقصت عليه ما شاهدته، فقال لها: يا بنيتي إنه يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وكان مالك بن أنس كغيره من الأطفال الصغار يحب اللعب؛ فشغله ذلك عن الدرس والعلم قليلاً إلى أن حدث له موقف كان له أثر كبير في حياته، فقد سأله أبوه يومًا في مسألة هو وأخوه النضر، فأصاب النضر، وأخطأ مالك في الرد على السؤال؛ فغضب منه والده، فكانت هذه الحادثة سببًا في عزمه على الجد والاجتهاد في العلم، فذهب من فوره إلى (ابن هرمز) وهو عالم كبير، فأخذ يتلقى العلم عليه سبع سنوات، وكان شديد الحرص على الاستفادة منه خلالها.

قال (ابن هرمز) لجاريته في يوم من الأيام: انظري من بالباب، فلم تر إلا (مالكًا) فرجعت إلى الشيخ وقالت له: لا يوجد إلا ذلك الغلام الأشقر (تعني مالكًا) فقال لها: دعيه يدخل فذلك عالم الناس!! وتعلم منه مالك كيف يرد على أصحاب البدع والضلالات، وأراد مالك المزيد، فذهب إلى نافع (مولى عبد الله بن عمر) أحد الرواة العظام الذين رووا عن ابن عمر أحاديث الرسول ﷺ وكان ينتظره في شدة الحر يترقب خروجه من منزله، ثم يصطحبه إلى المسجد، حتى إذا ما انتهى (نافع) من أداء الصلاة ومكث برهة؛ انتهز الصبي الصغير الفرصة وسأله في الحديث والفقه، فنهل من علمه وأخذ عنه ما في

رأسه من نور رسول الله ﷺ.

ثم لازم مالك بن أنس المحدث الكبير (ابن شهاب الزهري) ليتعلم على يديه، وحرص على ألا يفوته درس من دروس هذا الشيخ، حتى يوم العيد نفسه وهو اليوم الذي يلهو فيه الصبيان ويمرحون، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من بالباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.. قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئًا؟ قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني.. قال لي: هات، فأخرجت ألواحي، فحدثني بأربعين حديثًا فقلت: زدني، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث (أي يكفيك هذه الأحاديث إن كنت حفظتها) فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجذب الألواح من يدي، ثم قال حدث، فحدثته بها، فردها إليَّ.. أي الألواح.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكًا في العلم والفقه، والحفظ، والعزة ولم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء أنه أهل لذلك، يقول الإمام مالك: (ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعًا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقال له رجل: فلو أنهم نهوك؟ قال مالك: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه).

اشتهر الإمام مالك بكتابه (الموطأ) وهو كتاب حديث وفقه معًا، جمع فيه ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم رتبه على أبواب الفقه كالطهارة والصلاة والزكاة، وقد عمل في هذا الكتاب نحو أربعين عامًا، وقد تلقاه الناس بالقبول، وسمى مالك كتابه بهذا الاسم لأنه مهد به للناس ما اشتمل عليه من الحديث والفقه، أو لأن العلماء المعاصرين له بالمدينة واطئوه ووافقوه عليه، وقد طُبِعَ الكتاب كثيرًا في مصر والهند.

يروى في فضله ومناقبه الكثير ولكن أهمها ما روي [عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة].

إنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام وهو المذهب المالكي، وصاحب كتب الصحاح في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ. يقول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل ابن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر الحميري ثم الأصبحي المدني حليف بني تيم من قريش فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية وأعمامه هم أبو سهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر.

ولد مالك على الأصح في سنة 93هـ عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ ونشأ في صون ورفاهية وتجمل

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

عن ابن عيينة قال مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وعن ابن عيينة أيضا قال : كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحا ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم.

- روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة فقال: فلم أر أحدا إلا تعرف وتنكر إلا مالكا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

روي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة] ويروى عن ابن عيينة قال: كنت أقول هو سعيد بن المسيب حتى قلت كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبد الله وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة.

قال القاضي عياض هذا هو الصحيح عن سفيان رواه عنه ابن مهدي وابن معين وذؤيب بن عمامه وابن المديني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل كلهم سمع سفيان يفسره بمالك أو يقول وأظنه أو أحسبه أو أراه أو كانوا يرونه.

وذكر أبو المغيرة المخزومي أن معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم لا يجدون أعلم من عالم بالمدينة فيكون على هذا سعيد بن المسيب ثم بعده من هو من شيوخ مالك ثم مالك ثم من قام بعده بعلمه وكان أعلم أصحابه.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب والفقهاء السبعة والقاسم وسالم وعكرمة ونافع وطبقتهم ثم زيد بن أسلم وابن شهاب وأبي الزناد ويحيى بن سعيد وصفوان بن سليم وربيعة بن أبي عبد الرحمن وطبقتهم فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب وعبد العزيز بن الماجشون وسليمان بن بلال وفليح بن سليمان وأقرانهم فكان مالك هو المقدم فيهم على الإطلاق والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

قال أبو عبد الله الحاكم : ما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد من علماء المدينة دون مالك واعترفوا له وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا كالليث عالم أهل مصر والمغرب، والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، والثوري وهو المقدم بالكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة إلى أن قال: وحمل عنه قبلهم يحيى بن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة فسأل مالكا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

يروي أبو مصعب فيقول: سمعت مالكا يقول دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وقد نزل على فرش له وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي : أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا ابني وإنما يفزع من هيبتك ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس قلت: لا والله يا أمير المؤمنين قال بلى ولكنك تكتم ثم قال : والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملهنم عليه. فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول ﷺ تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة!!

مواقف من حياة الإمام مالك:

أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال : مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك؛ لأنه ليس من أهل الحديث، فقال : ضعه مع أهل زمانه [1].

وأظنك صاحب بدعة:

من أعظم مواقف الحكمة التي وقفها الإمام مالك موقفه مع من سأله عن الاستواء. فقد جاء إليه رجل وقال: يا أبا عبد الله{ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ } [طه: ٥] كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما

(1) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى - (1 / 361).

وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض, وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء [1]، ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: " الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة " وأمر به فأُخْرِجَ [2].

وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر:

ومن مواقف الإمام مالك الحكيمة ما ردّ به على بعض العُبَّاد حينما كتب إليه يعظه ويحضه على الانفراد والعزلة عن الناس، ويحضه على العمل، فكتب إليه مالك: " إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربّ رجل فُتحَ له في الصلاة ولم يُفتَحْ له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتحَ لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر " [3].

ما تصنعون بربيعة وهو نائم؟:

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة . قال: قال رسول الله ﷺ :"**يوشك أن يضرب الناس بأكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة**- قال: وهذا حديث حسن قال عبد الرزاق وسفيان بن عيينة أنه مالك بن أنس ولقد حدث يوما عن ربيعة الرأي بن عبد الرحمن فاستزاد القوم من حديثه فقال: ما تصنعون بربيعة

(1) العرق إثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثرة. انظر: المعجم الوسيط، مادة (رحض) 1 / 334.

(2) أبو نعيم في الحلية 6 / 325، وانظر: سير أعلام النبلاء 8 / 100، 101، 106، ومجموع فتاوى ابن تيمية 5 / 26، 5 / 144.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 8 / 114.

وهو نائم في تلك الطاق فأتى ربيعة فقيل له: أنت ربيعة الذي يحدث عنك مالك قال: نعم فقيل له: فكيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالا من دولتهم خير من حمل علم.

فتوى لم توافق غرض السلطان :

وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له إنه لا يرى إيمان بيعتكم هذه بشيء فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو رفعة وكأنما كانت تلك السياط حليا حلي به وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان والله أعلم (1).

وليتني لم أفت بالرأي:

وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذو ة المقتبس قال حدث القعنبي قال دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكي فقلت: يا أبا عبدالله ماالذي يبكيك فقال لي يا بن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني ؟! والله لوددت أني ضربت بكل مسألة أفتيت فيها برأي ى بسوط سوط وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي، أو كما قال.

وروي أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 230.

مستكره طلاق فضربه بالسياط ولم يترك رواية الحديث وقال مالك :
ما كان رجل صادقا في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

نسب المرء داره:

وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال: له هل لك من دار؟ فقال: لا ولكن أحدثك فيه حديثا سمعت ربيعة بن عبد الرحمن يقول نسب المرء داره.

فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول ﷺ :

سأله الرشيد: هل لك دار؟ فقال: لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتر بها دارا فأخذها، ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك ينبغي أن تخرج معنا قال: عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال: أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل، لأن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم وقد قال رسول الله ﷺ :"**اختلاف أمتي رحمة**- وأما الخروج معك، فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون** - وقال عليه الصلاة والسلام :"**المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد** - وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها يعني إنك إنما كلفتني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلي فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول ﷺ فهكذا كان زهد مالك في الدنيا [1].

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة 1 / 232.

إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيهنبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة:

لما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ما روي عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك : ما أحسنه فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه ا نبي الله صلى الله عليهوسلم بحافر دابة

والعلم يؤتى ولا يأتي:

وروي عنه أنه قال دخلت على هارون الرشيد فقال لي يا أبا عبدالله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ قال فقلت أعز الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم اعززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي فقال صدقت أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى:

ومن كلامه لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه فإنه ذل وإهانة للعلم ولما صنف كتاب الموطأ في الحديث عمل علماء المدينة الموطآت على منواله فقيل لمالك قد شاركك الناس في مثل هذا التصنيف فلم تكلف هذا القدر نفسك قال إئتوني بها أنظرها فلما نظر فيها قال عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى فكان كذلك ولم

يبق لموطآت الآخرين اسم ولا رسم إلا ما يذكر من موطأ ابن أبي ذئب وأما موطأ مالك فهو مخدوم طوائف الأنام وبضاعة الاجتهاد لعلماء الإسلام والقبول بقدر النية.

ما أشكل عليك فاسأل عنه مالك بن أنس :

وكان من عباد وقته وأصحاب عبدالله بن المبارك أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقلت : يا رسول الله قد مضى عصرك وانقضى فإن وقع لي شك وشبهة في الخاطر في أمر من أمور الدين فممن أتحققه قال: ما أشكل عليك فاسأل عنه مالك بن أنس.

ورأيت مالكا قائما بين يديه:

وروي أيضا عن مطرف أن أبا عبدالله من موالي الليثيين قال تشرفت بزيارة رسول الله ﷺ أي في النوم فرأيته جالسا في المسجد وحوله رجال كالحلقة ورأيت مالكا قائما بين يديه وعنده ﷺ مسك يعطيه مالكا قبضة قبضة ومالك ينثره على الناس فعبرت هذه الرؤيا بظهور العلم النبوي أولا في مالك ثم بواسطته في الآخرين.

مالك وارث سريري:

وروي أيضا عن محمد بن رمح التجيبي المصري أستاذ مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وقلت: نحن مختلفون في مالك وليث أيهما أعلم فقال رسول الله ﷺ : مالك وارث سريري ففهمت حينئذ المراد به أنه وارث علمي [1].

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة 1 / 236.

اقتلوا هذا الزنديق:

وروي عن يحيى بن خلف بن الربيع الطرطوسي وكان من صلحاء عصره وعباد دهره أنه قال : حضرت يوما عند مالك فأتى رجل وقال: ما نقول في القرآن أهو مخلوق أم لا ؟ فقال الإمام : اقتلوا هذا الزنديق فإنه سيتولد في كلامه فتن كثيرة وقد عمت البلوى بعد مالك في هذه المسألة وقتلت جماعات كثيرة من أهل السنة على عدم القول بها.

وكذا روي عن جعفر بن عبد الله أنه قال : كنا عند مالك فسأله رجل عن تفسير قوله تعالى :{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥} [طه: ٥] كيف هذا الاستواء؟ فأظهر مالك الملال الكثير من هذا السؤال وأطرق مليا وتفكر كثيرا حتى عرق جبينه ثم قال الكيف منه معقول والاستواء منه مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم أمر بإخراجه.

فافهم:

وروي عن أبي عروبة وهو من أولاد الزبير . قال: كنا جلوسا عند مالك يوما فإذا رجل أتى وذكر نقائص الصحابة ومساوئهم فقال مالك اسمع ثم تلا هذه الآية :{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: ٢٩] حتى بلغ إلى :{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩] ثم قال : من كان في باطنه س يئ الظن بالصحابة ويعيش عدوا لهم فهو داخل في هذا اللفظ فافهم.

أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟:

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبي ﷺ، وذلك في بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك ابن أنس - رضي الله تعالى عنه: احمل إليَّ كتابك الذي صنعت

- يعني
" الموطأ " - أسمعه عليك، فقال مالك ليحيى: أَقرِئْهُ السلام، وقل له؛ العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلماً على الخليفة، فسلم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أني سألتك أمرَاً من الأمور سهلا فأبيت علي، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك في هذا الموضع، فلا تكنْ أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو في حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرني الزهري، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ: {لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [النساء: ٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لي رخصة - يعني في ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام -: " لا أدري "، قال زيد: وقلمي رطب ما جف، حتى غشي النبي ﷺ الوحي، ثم سرى عنه، فقال: " اكتب يا زيد: {غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ} [النساء: ٩٥]، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعثَ فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبي ﷺ أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا:

واجتمع القاضي أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضي أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة في الصلاة؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال : يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتاً إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال : على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبي يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكاً، ورضي عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم [1].

خذ بيد سيدك إليك:

قال الشافعي .: قلت: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه.

قال الشافعي رحمه الله: فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي القبلة في البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء. قال الشافعي . فما لبث مالك . حتى أقبل هو والغلام حاملاً طبقا فوضعه من يده وسلم

(1) العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، 204/2- 205.

الإمام عليَّ ثم قال للعبد: اغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الإناء وأراد أن يغسل عليَّ أولاً فصاح عليه مالك قال: الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف.

قال الشافعي . فاستحسنت ذلك من الإمام مالك . وسألته عن شرحه فقال: إنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدىء بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه.

قال الشافعي . فكشف الإمام . الطبق فكان فيه صفحتان في إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء.

قال الشافعي . فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال: حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع عليَّ مالك الباب فقال لي: الصلاة يرحمك الله فرأيته حاملاً إناء فيه ماء فتبشع عليَّ ذلك فقال لي لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض.

قال الشافعي . فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله ﷺ والناس لا يعرف بعضهم بعضا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه.

قال الشافعي . فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطأ. قال الشافعي فأمليت عليهم حفظاً منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وأبن القاسم قال الربيع وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبي ﷺ.

قال الشافعي . فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده، فقال: العراق فقلت: أي العراق؟ فقال لي: الكوفة، فقلت: من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار رسول الله ﷺ فقال لي أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة ..

وقال الشافعي . فقلت: ومتى عزمتم تظعنون فقال لي في غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة في طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل في طلب العلم فقال لي: العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه [1].

قال الشافعي . فلما أزمعت على السفر زودني الإمام مالك . فلما كان في السحر سار معي مشيعا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت بم تكتري وليس معك ولا معي شيء؟ فقال لي: انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع عليَّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 1 / 86.

هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكترى لي بأربعة دنانير ودفع إليَّ باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت إليه ناصحا فقلت له أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا عليَّ صلاتي قط وخرج معجبا ينفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا: اللهم لا قال ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا اذهب إليه فقل له بم تخل في الصلاة.

قال الشافعي . فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة فقلت: بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا اذهب إليه فقل له ما الفرضان وما السنة فأتى إليَّ فقال ما الفرضان وما السنة فقلت له أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الاحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إليَّ أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالا : اذهب إليه وقل له أجب الشيخين.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى فلما أتاني علمت إني مسؤول عن شيء من العلم فقلت: من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي . : فقاما من مجلسهما إليَّ فلما سلما عليَّ قمت

غليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن وقال: أحرمي أنت فقلت : نعم فقال : أعربي أم مولى ؟ فقلت: عربي فقال: من أي العرب؟ فقلت: من ولد المطلب قال من ولد من ؟ قلت: من ولد شافع، قال : رأيت مالكا ؟ قلت: من عنده أتيت قال لي نظرت في الموطأ ؟ قلت: أتيت على حفظه، فعظم ذلك عليه ودعا بداوة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسئلة وجعل بين كل مسئلتين بياضا ودفع إليَّ الدرج وقال: أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعي . فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك إليك. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم سألني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد إن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل إلا راكبا. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه، فقلت له: قدم فقدم إلي بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي باطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن وما هم فيه فبكيت وقلت : أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل عليَّ محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال : لا يروعك

يا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض وإني أخرج زكاتها في كل عام فأسرَّ بها الصديق

وأكبت بها العدو [1].

أطع أباك ولا تعص أمك:

قال رجل للإمام الليث بن سعد إن أبي ببلاد السودان وقد كتب إلي أن أذهب إليه فمنعتني أمي قال أطع أباك ولا تعص أمك فسأل الإمام مالك عن ذلك فقال أطع أباك ولا تعص أمك قال مؤلفه رحمه الله تعالى الذي فهمته من قول الإمام عنه أن طاعة الأم أمر لازم وأولى لأن قوله: أطع أباك مصلحة، وقوله: لا تعص أمك أمر بترك المفسدة وترك المفاسد أولى من جلب المصالح إلا في مسألة: جلب المصلحة أولى من دفع المفسدة وذلك فيما لو ماتت في جوفها ولد يرجى حياته فشق جوفها مفسدة وإخراج الولد مصلحة فإخراج الولد هنا واجب قال في الروضة في باب الهبة: يسن للولد أن يعدل في هبته لأبويه كما يسن للوالد أن يعمل في هبته لأولاده أي البارين فإن أراد الولد أن يزيد أحد أبويه على الآخر فالأم أولى.

حضر أبو حنيفة درس الإمام مالك ولم يعرفه فألقى الإمام مالك سؤالا على أصحابه فأجابه أبو حنيفة فقال: من أين الرجل؟ قال: من أهل العراق قال: من أهل بلد النفاق والشقاق، فقال: تأذن لي أن أقول شيئا من القرآن قال: نعم فقرأ: { وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ } [التوبة: ١٠١] فقال الإمام مالك: ما قال الله هكذا فقال أبو حنيفة: كيف قال الله؟ قال ومن أهل المدينة، فقال: الحمد لله الذي حكمت على نفسك ووثب من مجلسه فلما عرفه أكرمه [2].

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 1 / 87.
(2) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 1 / 221، 2 / 315.

يا غلام من أين لك هذا؟:

كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه جالساً بين يدي الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، فجاء رجل فقال لمالك: إني رجل أبيع القماري [1]، وإني بعت في يومي هذا قمرياً فرده علي المشتري، وقال: قمريك لا يصيح، فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح، فقال له الإمام مالك: طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها وكان الإمام الشافعي يومئذ ابن أربع عشرة سنة، فقال لذلك الرجل: أيما أكثر: صياح قمريك أم سكوته؟ فقال: لا بل صياحه، فقال: لا طلاق عليك. فعلم بذلك الإمام مالك، فقال: يا غلام من أين لك هذا؟ فقال: لأنك حدثتني عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت: يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطباني، فقال ﷺ :"**أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**". وقد علم رسول الله ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح، وقد قال ﷺ :"**لا يضع عصاه**" على المجاز، والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداومته، ولما كان صياح قمري هذا أكثر من سكوته، جعلته كصياحه دائماً. فتعجب الإمام رضي الله تعالى عنه من احتجاجه، وقال له: أفت فقد آن لك أن تفتي فأفتى من ذلك السن [2].

من كلام الإمام مالك:

وقال الإمام مالك .: ما ظهر من هذا الدين فهو حق، وما بطن منه باطل لقوله تعالى: (ليظهره على الدين كله) فهؤلاء إن اعتقدوا بأن الخلوة بالأحداث والنظر إليهم مباح فقد كفروا، ويجب على ولاةَ

(1) والقُمْريّ: ضرب من الطير، الذكر قُمْرِيّ والأنثى قُمْرِيّة، والجمع القَماريّ.
(2) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 2 / 352.

الأمور - أيدهم الله - قتلهم، وتطهير الأرض منهم إن لم يتوبوا. وإن اعتقدوا أنه حرام فقد فسقوا وتسقط عدالتهم فيجب على وُلاة الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيزهم التعزيز البالغ، وزجرَهم وردعهم عن ذلك فإن لم يرجعوا عن هذا قاتلوهم. وأما الذي حلفوه أنه لا يعاشر أهل السنة فإنه لا يجب بمعاشرة أهل السنة كفارة عليه فإنه مكره على اليمين انتهى. ثم أجاب بجواب آخر فقال: لاشك أن أهل السنة صفوة هذه الأمة فمن تابعهم، واقتدى بهم فقد سلك طريق الحق، وسبيل الناجحين ومن ضل عن طريقهم فقد ضل عن الهدى، وسلك طريق الهالكين. وهؤلاء قوم ارتكبوا بِدْعاً، ومحرماتٍ وأموراً منكرات لم يردعن أحد من أئمة السلف بجواز ما يفعلونه إن أصروا على ذلك، فهي من الكبائر الموبقات، وإن اعتقدوا إباحة؛ فربما يؤدي إلى الكفر؛ لأنه من القواعد أنه من اعتقد إباحة محرمٍ فقد كفر؛ فيجب عليهم التوبة من ذلك، والرجوع إلى الحق، واتباع الهدى، فإن لم يفعلوا وجب على ولاة الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيرهم التعزير البليغ، وزجرهم عن ذلك ورجوعهم إلى طريق الحق. وأما من أكره الحلف فلا كفارة عليه إذا رجع وتابع أهل السنة [1].

- وقال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

- خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟ قال: معرفة الله.

- ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله - عز وجل -.

(1) المشتولي، سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنسوان، 1 / 62.

- إن الصديقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة.

- ما من أعمال البر شيء إلا دونه عقبه؛ فإن صبر صاحبها أفضت به إلى رَوْح، وإن جزع رجع.

- كم من رجل يحب أن يلقى أخاه ويزوره فيمنعه من ذلك الشغل، والأمر يعرض له، عسى الله أن يجمع بينهما في دار لا فرقة فيها.

ثم قال : وأنا أسأل الله أن يجمع بيننا وبينكم في ظل طوبى ومستراح العابدين.

- قيل له: ادع لنا ربك، قال: إنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطأ الحجارة.

- إن لله - تعالى - عقوبات في القلب، والأبدان : ضنكاً في المعيشة، ووهناً في العبادة، ومسخطة في الرزق.

- سمع مالك رجلاً يقول: لو أعطاني الله - تعالى - بيتاً صغيراً لرضيت به.

فقال له مالك: ليتك يا ابن أخي زهدت في الدنيا كما زهدت في الجنة.

- الخوف من العمل ألا يتقبل أشد من العمل.

- كفى بالمرء شراً ألا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين.

- وجد في بعض الكتب: سبحوا الله - أيها الصديقون - بأصوات حزينة.

- قال لقمان لابنه: يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة.

- ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار، أو هرة.

- أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثير له.

- مثل الدنيا مثل الحية، مسُّها لَيِّنٌ، وفي جوفها السم القاتل، يحذرها ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان.

- قال موسى - عليه السلام -: يا رب أين أبغيك! قال: أبغني عند المنكسرة قلوبهم.

- ما أشد فطام الكبير.

- لو استطعت أن لا أنام لم أنم؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرَّقْتُهم في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس! النارَ النارَ.

- ما عاقب الله - تعالى - قلباً بأشد من أن يسلب منه الحياء.

- لم يبق لي من رَوْح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، وتهجد بالقرآن، وبيتٌ خالٍ يُذْكَر الله فيه.

- الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض.

- وسئل عن الإيمان فقال: قول وعمل. قيل: أيزيد وينقص؟ قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آيٍ من القرآن أن الإيمان يزيد، فقيل: أَينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه وكُفّ عنه، فقيل: فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.

- وكان يقول: القرآن كلام الله، وكلام الله من الله، وليس من الله شيء مخلوق، ومن قال: القرآن مخلوق، فهو كافر، والذي يقف، أشد منه، يُسْتَتَاب وإلا ضُربت عنقه.

- وسأله أبو السَّمح قال: أيُرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، يقول الله عز وجل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال لقومٍ آخرين: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)} [المطففين: ١٥].

- وسأله الوليد بن مسلم عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقال: أَمِرّوها كما جاءت بلا كيف [1].

- وكان يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء.

- وسُئِل الإمام مالك: مَنْ أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أبو بكر، فقيل: ثم مَنْ؟ قال: عمر، قيل: ثم مَنْ؟ قال: عثمان، قيل: ثمَّ؟ فقال: هاهنا وقف الناس، رسول الله ﷺ أَمَّرَ أبا بكر على الصلاة، واختار أبو بكر عُمرَ، وجَعلها عمرُ إلى ستةٍ فاختاروا، فوقف الناس هاهنا [2].

- وكان يقول: إن أهل السنة، الذين ليس لهم لقب يعرفون به؛ لا جَهْمي ولا قَدَري ولا رافضيّ.

(1) (ترتيب المدارك): (1 / 170- 171)، و(شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة): (1 / 398). وانظر بعض أحاديث الرؤية في (حادي الأرواح) لابن القيم: (296- 330)، و(شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز تحقيق د عبد الله التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط: (1 / 215- 218).

(2) (ترتيب المدارك): (1 / 175).

- وليس لمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ في الفيء حقٌّ، قد قسم الله الفيءَ على ثلاثة أصناف، فقال: {لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ} [الحشر: ٨]، وقال: {وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩]، وقال: {وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ} [الحشر: ١٠] وإنما الفَيْء لهؤلاء الثلاثة الأصناف.

- وقال: أهل الأهواء بئس القوم، لا يُسَلَّم عليهم واعتزالهم أحب إليَّ.

- وكان رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

وخَيُر أمورِ الدِّينِ ما كَانَ سُنَّةً :: وشرُّ الأمور المُحدَثاتُ البَدائعُ(1)

رسالة الليث بن سعد الى الإمام مالك:

ولعل من أفضل وأحسن أمثلة أدب الاختلاف تلك الرسالة العلمية الرائعة التي بعث بها فقيه مصر وامامها وعالمها الليث بن سعد الى الإمام مالك، يعرض عليه فيها وجهة نظره في أدب جم رفيع حول كثير مما كان الإمام مالك يذهب اليه ويخالفه فيه الليث بن سعد، ونظرا لطول الرسالة نقتطف منها ما يشير الى ذلك الادب الرفيع الذي اختلف فيه ظله سلف هذه الامة، وكرام علمائها، يقول الليث بن سعد:

سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلاَّ هو.

أما بعد: عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة.

(1) أدب الاختلاف في الإسلام 1 / 29.

قد بلغني كتابُك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمَّه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيرًا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها.

وذكرت أنه قد أنشَطك ما كتبتُ إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيت فينا جميلاً، إلاَّ أني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأَن الناس تبعٌ لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن.

وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحدًا يُنسب إليه العلم أكره لشَواذِّ الفتيا، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا، ولا آخذ لفُتْياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظهراني أصحابه، وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا به تبعًا لهم فيه، فكما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قول الله تعالى :{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾}

[التوبة: ١٠٠]. فإن كثيراً من أولئك السابقين الأوَّلين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاءَ مرضاة الله، فجنَّدوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرْانَيْهم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموهم شيئًا علموه ... وكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما قد عرفت، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوي الرأى من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فَرقد، وغير كثير ممن هو أسَنُّ منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه.

وذاكرتُك أنت وعبدالعزيز بن عبدالله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت؛ تكرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حَسَنةٌ في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة، رحمه الله، وغفر له، وجزاه بأحسن ما عمله... إلى أن قال في ختام رسالته. وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهِبَ مثلك مع استئناسي بمكانك، وإن نَأَتْ الدارُ، فهذه منزلتك عندي، ورأيى فيك فاسْتيقِنْه، ولا تترك الكتابَ إليَّ بخبرك وحالك وحال ولدِك وأهلك، وحاجةٍ إن كانت لك، أو لأحدٍ يُوصَلُ بك، فإنِّي أسرُّ بذلك.

كتبت إليك، ونحن صالحون، معافون، والحمد لله.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولينا، وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليك، ورحمة الله»[1].

(1) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه

- إن الإمام مالكا عليه رحمة الله يقول: «لا يؤخذ هذا العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ: "**ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به**".

- وقال أيضا: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين (وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ) فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال كان أمينا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه [1].

العلم ينقص ولا يزيد ولم يزل العلم ينقص بعد الأنبياء والكتب.

والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري.

أعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع.

ما تعلمت العلم إلا لنفسي وما تعلمت ليحتاج الناس إلي وكذلك كان الناس.

ليس هذا الجدل من الدين بشيء.

عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة ، 1388هـ /1968م، 103/3.

(1) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، 1 / 29.

لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه وإن كان أروى الناس وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به[1].

* * *

(1) المصدر: جماع العلم للشافعي: (242)، تاريخ خليفة بن خياط: 1 / 432، 2 / 719، طبقات خليفة: 275، المعارف لابن قتيبة: 498- 499، المنتخب من كتاب ذيل المذيل للطبري: 106، 107، مشاهير علماء الامصار: ت (1110)، الحلية: 6 / 316، الفهرست لابن النديم مع تراجم أصحابه: 280- 284، أنساب العرب لابن حزم: 1 / 435 436، الفهرست للطوسي: ت (740)، الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء: 9- 63، طبقات الشيرازي: 67، ترتيب المدارك: 1 / 102- 254، المبهمات في الحديث للنووي: 34 / 2، جزء فيه الأحاديث التي خولف فيها مالك بن أنس: تخريج الدارقطني 255 / 1 269 / 2، تذكرة الحفاظ لابن عبد الهادي: 49 / 2، صفة الصفوة: 2 / 177- 180، الكامل لابن الاثير، 6 / 147، تهذيب الأسماء واللغات للنووي: 2 / 75- 79، وفيات الأعيان 4 / 135- 139، تهذيب الكمال: 1297، تذكرة الحفاظ: 1 / 207- 213، العبر للذهبي: 1 / 272، مرآة الجنان لليافعي: 1 / 373- 377، البداية والنهاية: 10 / 174- 175، الديباج المذهب: 1 / 55- 139، تهذيب التهذيب: 10 / 5، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 2 / 96- 97، شرح البخاري للقسطلاني: 1 / 6، مفتاح السعادة طاش كبري زاده: 2 / 12، 84- 88، التاريخ الكبير: 7 / 310، التاريخ الصغير 2 / 220، الطبقات الكبرى للشعراني: 45، شذرات الذهب: 2 / 12- 15، تهذيب التهذيب: 4 / 14 / 2- 1 / 2، الكاشف: 3 / 112، تاريخ ابن معين: 2 / 543- 546، الأنساب: 1 / 287، اللباب: 1 / 69، الرسالة المستطرفة: 13، مروج الذهب: 3 / 350، طبقات الحفاظ: 89، تاريخ الخميس: 2 / 333، طبقات القراء: 2 / 35. كتاب جامع الأصول - (1 / 180).

عبد الله بن المبارك

أعـلام الحديـث

عبد الله بن المبارك

في مدينة مرو سنة 118هـ ولد عبد الله بن المبارك ونشأ بين العلماء نشأة صالحة، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة العربية، وحفظ أحاديث كثيرة من أحاديث رسول الله ﷺ ودرس الفقه، وأنعم الله عليه بذاكرة قوية منذ صغره، فقد كان سريع الحفظ، لا ينسى ما يحفظه أبدًا، يحكي أحد أقربائه واسمه صخر بن المبارك عن ذلك فيقول: كنا غلمانًا في الكتاب، فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فأطال خطبته، فلما انتهى قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاتها، أسمعنا إن كنت حفظتها كما تدَّعي، فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها ولم يخطئ في لفظ منها.

وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل عبد الله إلى بلاد الإسلام الواسعة طلبًا للعلم، فسافر إلى العراق والحجاز.. وغيرهما، والتقى بعدد كبير من علماء عصره فأخذ عنهم الحديث والفقه، فالتقى بالإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان، وكان عبد الله كلما ازداد علمًا، ازداد خوفًا من الله وزهدًا في الدنيا، وكان إذا قرأ كتابًا من كتب الوعظ يذكره بالآخرة وبالجنة والنار، وبالوقوف بين يدي الله للحساب، بكى بكاء شديدًا، واقشعر جسمه، وارتعدت فرائصه، ولا يكاد يتكلم أحد معه.

وكان عبد الله يكسب من تجارته مالا كثيرًا، وها هو ذا يعطينا درسًا بليغًا في السلوك الصحيح للمسلم، وذلك حين أتاه أحد أصدقائه واسمه أبو علي وهو يظن أن الزهد والتجارة لا يجتمعان قائلاً لعبد

الله: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا؟! فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأُكْرِم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به، وكان عبد الله بن المبارك لا يبخل على أحد بماله، بل كان كريمًا سخيًّا، ينفق على الفقراء والمساكين في كل سنة مائة ألف درهم.

وكان ينفق على طلاب العلم بسخاء وجود، حتى عوتب في ذلك فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثِّ العلم.

وكان ابن المبارك يحبُّ مكة، ويكثر من الخروج إليها للحج والزيارة، وكان كلما خرج من مكة قال:

بُغْضُ الحياةِ وخوْفُ اللَّهِ أخرجنِي	**وَبيعُ نَفْسي بما لَيسَتْ لَهُ ثَمَنَا**
إني وزنْتُ الَّذي يبْقَي لِيعْدلَه	**ما ليس يبْقي فَلا واللَّهِ ما اتَّزَنَا**

وكان عبد الله بن المبارك يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيرًا ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه في الغزو، وكان يرى أن الجهاد فريضة يجب أن يؤديها المسلمون كما أداها الرسول ﷺ ويروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه الفضيل بن عياض يحثُّه على قتال الأعداء، ويدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام قائلاً له:

يا عابدَ الحرَميْن لو أبْصَرْتَنا	**لَعلِمْتَ أنَّكَ في العبَادةِ تَلْعَبُ**
من كان يَخْضبُ خدَّه بدُمُوعِهِ	**فنحوُرنا بدمائنا تتخضَّب**
أوْ كان يُتْعبَ خيلَه في باطلٍ	**فخيولُنا يوم الصبيحة تَتْعبُ**
ريح العبير لكم، ونحن عبيرُنا	**وهَجُ السَّنَابك والغبارُ الأطيبُ**

وأحبَّ عبد الله بن المبارك أحاديث رسول الله ﷺ حبًّا عظيمًا وكان لا يجيب أحدًا يسأله عن حديث منها وهو يمشي، ويقول للسائل: ليس هذا من توقير العلم.

وكان حفَّاظ الحديث في الكوفة إذا اختلفوا حول حديث قالوا:

مروا بنا إلى هذا الطبيب نسأله - يقصدون عبد الله بن المبارك -.

ولقد اجتمع نفر من أصحابه يومًا وقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والشعر، والفصاحة والزهد، والورع، والإنصاف، وقيام الليل، والعبادة، والفروسية، والشجاعة، والشدة في بدنه، وترك الكلام في ما لا يعنيه.. حتى أجهدهم العدُّ.

ولقد قدر الناس عبد الله بن المبارك وزادت مهابته لديهم على مهابة هارون الرشيد.. رُوي أن هارون الرشيد قدم ذات يوم إلى الرقَّة فوجد الناس يجرون خلف عبد الله بن المبارك لينظروا إليه، ويسلموا عليه، فنظرت زوجة هارون الرشيد من شباك قصرها، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟! قالوا: عالم من خراسان قدم الرقَّة يقال له عبد الله بن المبارك فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بالشرطة والأعوان.

وفي يوم من أيام شهر رمضان سنة 181هـ توفي عبد الله بن المبارك وهو راجع من الغزو، وكان عمره ثلاثة وستين عامًا، ويقال: إن الرشيد لما بلغه موت عبدالله، قال: مات اليوم سيد العلماء.

قال محمد بن المثنى: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما رأت عيناي مثل أربعة: ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري، ولا أشد تقشفًا من شعبة، ولا أعقل من مالك، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك.

نشأته:

نشأ ابن المبارك في أسرة متواضعة؛ فقد كان أبوه أجيرًا بسيطًا يعمل حارسًا لبستان أحد الأثرياء، غير أن والده هذا كان سبب رخائه أورثه المال رذاذًا، ثم صار على يده وابلاً ثجَّاجًا.

إن المتأمل لهذا المال الذي وصف بأنه رذاذ ليعلم أنه سبب الخير كله، فقد اكتسبه " والده المبارك " بجد وجهدٍ وكفاح وصبر، فكان ثمرة يانعة مقنعة لرجل ورع، حريص على أداء حق العمل، فلم يرض إلا أن يشغل كل وقته في العمل تحريًّا للأجر الحلال، فلم يتطلع يومًا للأكل من البستان، وهو ما يكتشفه صاحب البستان ويتعجب له.

ففي إحدى زياراته طلب منه رمانة يأكلها، فجاءه بواحدة، فوجدها حامضة لم تنضج، فرماها، وطلب منه أخرى، فكانت كذلك، فغضب وصاح: أما تعرف الناضج من غيره؟ تظل هذا العمر معي ولا تستطيع أن تقدم أحسن ما لديك؟!

فقال مبارك - صادقًا -: وكيف أعرف وأنا لم أذق شيئًا منه!!

فتعجب صاحب البستان، وقال: ألا تتمتع ببعض ما هو تحت

يديك؟!

قال مبارك: لم تأذن لي في ذلك :: : فكيف أستحل ما ليس لي؟!

سكت الرجل مندهشًا وقال له: فقد أذنت، من الآن فكل!

من هنا نعرف لأي أبٍ ينتمي عبد الله، إنه ينتمي لأب صالح ولصلاح الأب جائزة عظمى يجدها عند لقاء ربه، ويبقى أثرها في الأبناء!! وهو ما نجده في القصص القرآني الحكيم من قصة الغلامين اليتيمين قال تعالى: {وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾} [الكهف: ٨٢].

فكان صلاح الأب سببًا في استخراج الكنز، وكذلك كان الحال مع عبد الله بن المبارك، فسنة الله لا تتخلف، كان الأب صالحًا فاستخرج عبد الله كنزًا تمثل في مال صار على يديه وابلاً ثجاجًا، وحصّل علما وأدبًا وفقها مازالت تتوارثه الأجيال!

رحلاته في طلب العلم:

ارتحل ابن المبارك إلى الحرمين والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان.

لقد أثمرت رحلات ابن المبارك لأنه قد ارتسم لنفسه منهاجًا يسير عليه، فلم يكن همه من ارتحاله جمع العلم مهما كان مصدره، بل كان التحقق من مصدره أساس منهجه؛ فقد سأله أبو إسحاق قائلاً: " يا أبا عبد الرحمن الحديث الذي جاء إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك. فقال عبد الله: يا أبا إسحاق

عن من هذا؟ قال: قلت: هذا من حديث شهاب بن خراش. قال: ثقة عن من قال؟ قلت: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة قال: عن من؟ قلت: قال رسول الله ﷺ. قال: يا أبا إسحاق إن بين الحجاج ابن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي ولكن ليس في الصدقة اختلاف ".

فهو حين يتوقف أمام هذا الحديث، لا ينكر ما فيه من البر، إلا أنه لا ينسب الحديث إلى النبي ﷺ مادام لم يتوفر لديه السند إلى رسول الله وإن كان الحجاج ثقة!!

منزلته عند العلماء:

لأجل هذه الدقة التي توفرت لدى ابن المبارك والتزم بها، كان اهتمام الإمام مالك به.. فقد روي عن يحيى بن يحيى الليثي قال: كنا عند مالك، فاستؤذن لعبد الله بن المبارك بالدخول، فأذن له، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ثم أقعده بلصقه، وما رأيت مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارئ يقرأ على مالك، فربما مر بشيء فيسأله مالك: ما مذهبكم في هذا؟ أو ما عندكم في هذا؟ فرأيت ابن المبارك يجاوبه، ثم قام فخرج، فأعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا مالك: هذا ابن المبارك فقيه خراسان.

ولنا أن نستعيد ما قاله والي المدينة حين جاءه الإمام الشافعي يحمل كتابًا من والي مكة ليتمكن الشافعي من لقاء الإمام مالك؛ حيث قال والي المدينة للشافعي: " يا فتى! لو كلفتني المشي من جوف المدينة راجلاً حافيًا كان أهون عليَّ من المشي إلى باب مالك.. وليتنا إذا ركبنا ووقفنا على بابه يفتح لنا الباب ". لنعلم من هذا منزلة عبد الله بن المبارك عند الإمام مالك!!

أما منزلته عند ابن عيينة فهي شيء فوق ذلك كله؛ حيث قال: " نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلاً على ابن المبارك إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه ".

طيب خلق وسعة علم:

كان ابن المبارك رجلاً يحفظ حق أساتذته ويجل شيوخه، فلم يكن يُحدث في وجود أحد منهم، ولكن محبيه طلبوا ذلك في وجود حماد بن زيد وهو من هو في ذلك العصر، فما عسى ابن المبارك أن يفعل؟!

يقول إسماعيل الخطبي: بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد، فقال أصحاب الحديث لحماد: سل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا. فقال: يا أبا عبد الرحمن، تحدثهم؛ فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدث وأنت حاضر؟! فقال: أقسمت عليك لتفعلن. فقال: خذوا. حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدث بحرف إلا عن حماد.

لقد وجد ابن المبارك نفسه أمام قسم حماد، ولكن ما فعله يشهد له بسعة العلم ودماثة الخلق!!

وقد سُمع ابن المبارك يقول إعظامًا لقدر حماد بن زيد:

أيها الطالب علمًا :: ائت حماد بن زيد
فاستفد حلما وعلما :: ثم قيده بقيد

وإن كان شعره هذا يشهد بالعلم لحماد بن زيد، فقد أحسن عندما قال عن أبي حنيفة:

رأيت أبا حنيفة كل يوم :: يزيد نبالة ويزيد خيرًا
وينطق بالصواب ويصطفيه :: إذا ما قال أهل الجور جورًا

:: :

لقد كان ابن المبارك خير من يعترف لأساتذته بالفضل وحسبه أن قال: " لولا أن الله عز وجل أغاثني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس ".

شجاعته:

وكان من الشجاعة بالمكان الجهير، وله في ساحة الجهاد نوادر ذائعة، فقد كان في سرية ببلاد الروم خرجت للاستطلاع لا للقتال، ففاجأتها قوة ضخمة من الأعداء، واصطف الفريقان ونهض فارس رومي يدعو للمبارزة وفقًا لما كان معهودًا إذ ذاك، فتقدم إليه بطل مسلم، فلم يستطع نزاله، وخر شهيدًا، وتقدم ثانٍ فكانت النتيجة هي النتيجة، وتخوف المسلمون وذعروا من رهبة هذا الصائل الفاتك. وغلا الدم في رأس ابن المبارك، فخف إليه، واشتد الصراع بين الفارسين، وكل منهما يبدي من أساليب الصيال ما في طوقه كرًّا وفرًّا، في واقعة شديدة، لم ير الناس أرهب منها! ثم حصلت المفاجأة حين طعن ابن المبارك غريمه طعنة أصابت منه مقتلاً فسقط على الأرض، وكبر المسلمون، ورجع ابن المبارك وقد غطى وجهه حتى لا يشتهر بين الناس.

لقد كان الإمام العالم يعرف فضل الجهاد، وهو الذي أرسل إلى أخيه الفضيل بن عياض برسالة يقول فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا :: لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه : فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل :: فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا : وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا :: قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوي وغبار خيل الله في : أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا :: ليس الشهيد بميت لا يكذب

وفي الأبيات تضمين لحديث رسول الله ﷺ :"**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**-.

سخاؤه:

أما عن سخائه فحدث ولا حرج، فمواقف سخائه كثيرة مبثوثة في كتب التراث نذكر منها ما رواه محمد بن علي بن الحسن بن شقيق عن أبيه قال: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج، اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك. فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها في صندوق، ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرفها؟ فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجهم قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسُرُّوا، دعا بالصندوق

ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته، عليها اسمه.

ومنها أنه جاء رجل إلى ابن المبارك فسأله أن يقضي دينًا عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألته قضاءه؟ قال: سبعمائة درهم. وإذا عبد الله قد كتب له أن يعطيه سبعة آلاف درهم، فراجعه الوكيل، وقال: إن الغلات قد فنيت، فكتب إليه عبد الله: إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضًا قد فنى، فأجز له ما سبق به قلمي.

ولكثرة إنفاقه عوتب ابن المبارك فيما يفرق من المال في البلدان دون بلده، قال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم.

وفاته:

قال الفسوي في " تاريخه ": سمعت الحسن ابن الربيع يقول: شهدت موت ابن المبارك، مات لعشر مضت من رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة، ومات سحرًا، ودفناه بهيت، ولبعض الفضلاء:

مررت بقبر ابن المبارك زائرًا	::	**فأوسعني وعظًا وليس بناطق**
وقد كنتُ بالعلم الذي في جوانحي	::	**غنيًا وبالشيب الذي في مفارقي**
ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً	::	**إذا هي جاءت من رجال الحقائق**

وعن عبد الرحمن بن عبيد الله يقول: كنا عند الفضيل بن عياض فجاء فتى في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومئة، فنعى إليه ابن

المبارك، فقال فضيل: (إنا لله وإنا إليه راجعون، أما إنه ما خلف بعده مثله).

مواقف من حياة عبد الله بن المبارك:

أكلت فرسي حرامًا:

- كان عبد الله بن المبارك في غزوة فنزل عند نهر ونصب رمحه وربط فرسه وتوضأ وشرع يصلي فلما سلم وجد فرسه أنها انفلتت وأكلت من الزرع.

فقال: أكلت فرسي حرامًا فلا ينبغي لي أن أغزو عليها فتركها لصاحب الزرع واشترى غيرها وغزا عليها.

ليس كل خلاف يُستراح له:

- وعندما ناظره أهل الكوفة في النبيذ وجعلوا يستدلون على حله بأقوال وشرب بعض أهل الكوفة له، قال: " دعوا عند الاختلاف الاحتجاج بالرجال "، أوكما قال؛ ولله در الأول حين قال:

ليس كل خلاف يُستراح له إلا خلافاً له حظ من النظر.

سلم منك الروم وسلم منك فارس، ولم يسلم منك أخوك

- وجلس رجل في مجلس عبد الله بن المبارك فاغتاب أحد المسلمين، فقال له عبد الله بن المبارك: يا أخى هل غزوت الروم؟! قال: لا. قال: هل غزوت فارس؟! قال: لا. فقال عبدالله بن المبارك: سلم منك الروم وسلم منك فارس، ولم يسلم منك أخوك!!

والكذب للرافضة:

- وقال رحمه الله تعالى: " الدين لأهل الحديث، والكلام والحيل لأهل الرأي، والكذب للرافضة " يعني للشيعة.

احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك:

- وفي السير: أن ابن المبارك.. كان كثيراً ما يسافر إلى الرقة.. وينزل في خان فيها..

فكان شاب يأتي إليه.. ويقوم بحوائجه.. ويسمع منه الحديث..

فقدم عبد الله الرقة مرة.. فلم ير ذلك الشاب..

فسأل عنه.. فقالوا: إنه محبوس.. لدين ركبه..

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم..

فلم يزل عبد الله يستقصي.. حتى دُلَّ على صاحب المال.. فدعا به ليلاً وأعطاه عشرة آلاف درهم.. وحلفه أن لا يخبر أحداً.. ما دام عبد الله حياً.. وقال له: إذا أصبحت.. فاخرج الرجل منفلما خرج الفتى من الحبس.. قيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا.. وكان يسأل عنك.. فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة.. فلما قابله.. قال له عبد الله: يا فتى.. أين كنت؟ لم أرك في الخان! قال: كنت محبوساً بدين..

قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني.. ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس..

فقال له عبد الله: احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك.. ثم فارقه ومضى..

إلا رأيت أنه خيرٌ منك:

- وروى الخطابي أن الإمام الفذ عبد الله بن المبارك قدم خراسان فقصد رجلاً مشهوراً بالزهد والورع فلما دخل عليه لم يلتفت إليه

الرجل ولم يأبه به ولم يهتم به، فخرج من عنده عبد الله ابن المبارك فقال له بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال " لا، قالوا: هذا أمير المؤمنين في الحديث... هذا عبد الله بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلي ابن المبارك مسرعاً يعتذر إليه ويتنصل مما حدث وقال يا أبا عبد الرحمن: أعذرني وعظني، قال إ بن المبارك: نعم إذا خرجت من منزلك فلا يقعن بصرك علي أحد إلا رأيت أنه خيرٌ منك ".

الذي فعلت له لا يخفى عليه:

- ويقول الحسن بن الربيع عن جهاد الإمام الجليل عبد الله بن المبارك " خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارسا من العدو كان فعل بالمسلمين فكبر له المسلمون، فدخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد، فتتبعته حتى سألته بالله أن يرفع لثامه، فعرفته فقلت: أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم الذي يسره الله على يدك؟ فقال الذي فعلت له لا يخفى عليه ".

كلام... بالقرآن!:

- قال عبد الله بن المبارك: خرجت حاجاً إلى ببت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من

صوف فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت: { سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ } [يس: ٥٨] قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت: {وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ} [الرعد: ٣٣] فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدين قالت: {سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا } [الإسراء: ١] فعلمت أنها قد قضت

حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت:{ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا} [مريم: ١٠] فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين قال :{هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ} [الشعراء: ٧٩] فقلت فبأي شيء تتوضئين قالت:{فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا} [النساء: ٤٣] فقلت لها إن معي طعاماً فهل لك في الأكل قال :{ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ} [البقرة: ١٨٧] فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت :{وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٥٨] فقلت قد أبيح لنا الإفطار في السفر قالت :{وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ} [البقرة: ١٨٤] فقلت لم لا تكلميني كما أكلمك قالت:{مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨} [ق: ١٨] فقلت فمن أي الناس أنت قالت :{وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦} [الإسراء: ٣٦] فقلت قد أخطأت فاجعليني في حل قالت:{ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ} [يوسف: ٩٢] فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة قالت :{وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ} [البقرة: ١٩٧] قال فأنخت ناقتي قالت:{قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ} [النور: ٣٠] فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت :{ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ} [الشورى: ٣٠] فقلت لها أبصري حتى أعلقها قالت :{فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ} [الأنبياء: ٧٩] فعلقت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت :{سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤} [الزخرف: ١٣ - ١٤] قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع وأصيح فقالت :{ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ} [لقمان: ١٩] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت:{فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ} [المزمل: ٢٠] فقلت لها لقد أوتيت خيراً

كثيراً قالت :{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ} [البقرة: ٢٦٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت ألك زوج قالت :{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ} [المائدة: ١٠١] فسكت ولم أكملها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت :{ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا} [الكهف: ٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت وما شأنهم في الحج قالت :{وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦} [النحل: ١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت :{وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا} [النساء: ١٢٥]، {وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا} [النساء: ١٦٤]، {يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ} [مريم: ١٢] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت:{فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ} [الكهف: ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي وقالت :{كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤} [الحاقة: ٢٤] فقلت الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت :{ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

أنا مع النبي ﷺ وأصحابه بينهم:

- وحدث الحسن بن عيسى بن ماسرحس، قال سمعت عبد الله ابن المبارك، وقد قيل له : يا أبا عبد الرحمن إنك تكثر القعود في البيت وحدك، فقال: ليس أنا وحدي، أنا مع النبي ﷺ وأصحابه بينهم - يعني النظر في الكتب.

وقوم طلبوا الدنيا:

- وحدث أبو حنيفة بإسناد له والمازني قالا: ولي إسماعيل بن علية الصدقاتِ بالبصرة، فكتب إلى عبد الله بن المبارك يصف له ما وقع فيه، ويقول له: أحب أن تبعث إلى إخوننا من القُراءِ لنشغلهم، فكتب إليه عبد الله بن المبارك: القراء ضربانِ: قوم طلبوا هذا الأمر لله، فأولئك لا حاجةَ لهم في لقائك، وقوم طلبوا الدنيا، فأولئك أضر على الناس من الشرط، وكتب إليه:

يا جاعلَ الدين له بازيا ... يصيدُ أموالَ المساكينِ
احتلتَ للدنيا ولذاتها ... بحيلةٍ تذهبُ بالدينِ
وصرتَ مجنوناً بها بعدما ... كُنتَ دواءً للمجانينَ
أينَ رواياتك فيما مضى ... عنِ ابن عونٍ وابنِ سيرينِ
أينَ أحاديثك والقولُ في ... لزومِ أبواب السلاطينِ
تقولُ أُكرِهْتُ وماذا كَذاَ ... زَلّ حِمارُ العلْم في الطِّين

فلم أدر من أيهم أعجب:

- قال عبد الله بن المبارك: لما أفضت الخلافة إلى هارون، وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فأرادها على نفسها، فقالت: لا أصلح لك؛ إن أباك قد أطاف بي، فأغري بها. قال: فبعث إلى أبي يوسف فقال: جارية من جواري المهدي أردتها فتحصنت مني وذكرت أن أبي قد وقع بها، فعندك في هذا شيء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، لا تصدقها، ليست بمأمونة على نفسها.

قال عبد الله بن المبارك: فلم أدر من أيهم أعجب، من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرج من وطء جارية لأبيه رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيها، قال: تهتك حرمة أبيك واقض شهوتك وصيره في رقبتي.

يا طبيب أعندك دواء المذنوب؟!:

- وعن عبد الله بن المبارك قال مررت في سياحتي بالشام بطبيب يصف لكل ما يحب فقلت له : يا طبيب أعندك دواء المذنوب ؟ فقال: نعم فلم تفترق الناس ؟! قال لي : يا هذا عليك بورق الفقر، وعروق الصبر، واهليلج الصاف، وبليلج الرضا، وغارقون الكتمان، وسقمون الأحزان، فأمر اسهم بماء الأجفان، ودعهم في طاجن القلق، وأوقد تحتهم نار الفَرق، وصفّهم بمنخل الأرق، واشربهم على الحَرق فإنه شفاؤك، وأنشد:

يا طبيباً بذكره يتداوى ::: وصفوه لكل داء غريب
ليس حزني عليك شيء عجيب ::: إنما الصبر عنك شيء عجيب

هذا حرام فهل عملت غيره؟!:

- وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله حججت في بعض السنين فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال : إذا رجعت إلى بغداد فأقرئ بهرام المجوسي مني السلام وقل له: الله تعالى راض عنك فلما رجعت إليه قلت هل لك من خير عند الله قال: زوجت ابني ببنتي وصنعت وليمة فقلت: هذا حرام، فهل عملت غيره ؟ قل تزوجت أنا ببنتي وصنعت وليمة فقلت : له هذا حرام، فهل عملت غيره ؟ قال جاءتني مسلمة وأصلحت مصباحا من سراجي فلما صارت في الباب أطفأته ثم

رجعت أشعلته أيضا ثم أطفأته في الباب وهكذا ثلاث مرات في الرابعة أشعلته ومضت فتبعتها إلى منزلها وقلت : لعلها جاسوسة فسمعت أولادها يقولون: قد أضرنا الجوع فقالت: استحييت من الله أن أطلب من غيره فرجعت وأخذت طعاما وحملته إليهم فقلت له : أبشر فإن النبي ﷺ يقرئك السلام ويقول إن الله راض عنك فأسلم وحسن إسلامه.

أي شيء يقول العاطس إذا عطس؟:

- وعطس رجل عند عبد الله بن المبارك فلم يحمد الله عز وجل، فقال له ابن المبارك: أي شيء يقول العاطس إذا عطس؟ قال الحمد لله. فقال ابن المبارك: يرحمك الله. فعجب الحاضرون من حسن أدبه.

هذا والله الملك لا ملك هارون:

- وقدم هارون الرشيد الرقة، فانحفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغيرة، فأشرفت أم ولد الرشيد من قصر الخشب، فلما رأت الناس قالت: من هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان، يقال له عبد الله بن المبارك. فقالت: هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان.

فرجع من أنطاكية إلى الشام ماشياً:

- وذكر غيره أن عبد الله بن المبارك استعار قلماً من الشام، فعرض له سفر فسافر إلى انطاكية، وكان قد نسي القلم معه فتذكره هناك فرجع من انطاكية إلى الشام ماشياً حتى رد القلم إلى صاحبه وعاد.

ألست صاحبي بالأمس؟:

- وعن عبد الله بن المبارك المجمع على دينه وعلمه وورعه، أنه قال: خرجت إلى الجهاد ومعي فرس فبينما أنا في بعض الطريق إذ صرع الفرس، فمر بي رجل حسن الوجه طيب الرائحة، فقال: أتحب أن تركب فرسك؟ قلت: نعم. فوضع يده على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخره، وقال: أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله وبعظمة عظمة الله وبجلال جلال الله، وبقدرة قدرة الله، وبسلطان سلطان الله وبلا إله إلا الله وبما جرى به القلم من عند الله وبلا حول ولا قوة إلا بالله إلا انصرفت. قال: فانتفض الفرس وقام، فأخذ الرجل بركابي وقال: اركب فركبت ولحقت بأصحابي، فلما كان من غداة غد وظهرنا على العدو فإذا هو بين أيدينا، فقلت: ألست صاحبي بالأمس؟ قال: بلى. فقلت: سألتك بالله من أنت؟ فوثب قائماً فاهتزت الأرض تحته خضراء، فإذا هو الخضر عليه السلام. قال ابن المبارك رضي الله تعالى عنه: فما قلت هذه الكلمات على عليل إلا شفي بإذن الله تعالى.

أترضى حالك هذه للموت؟:

- وقال عبد الله بن المبارك، قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية لرجل من إخوانه كان يجالسه: أترضى حالك هذه للموت؟ قال: لا، قال: فهل أنت مجمع على الانتقال إلى حال ترضاها للموت؟ قال: ما سخت نفسي بذلك بعد، قال: ويحك، فهل بعد الموت دار فيها معتمل؟ قال: لا، قال: فهل تأمن أن يأتيك الموت على حالك هذه؟ قال: لا، فقال: ما رأيت مثل هذه الحال رضي بها عاقل، فاتق الله يا أخي واعمل قبل أن تندم.

من شعر الحكمة لعبد الله بن المبارك:

- كتب عبد الله بن المبارك وكان يرابط في ثغر من ثغور المسلمين إلى الفضيل بن عياض يقول: -

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادقٌ لا يكذب
لا يستوي وغبار أهل الله في ... أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

- وقال:

أيضمن لي فتي ترك المعاصي ... وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا ... ولم يتجرّعوا غضض المعاصي

- وقال:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل بدل الدين غير الملوك ... وأحبار سوءٍ ورهبانها

- وقال:

لله درّ القنوع من خلق! ... **كم من وضيع به ارتفعا؟!**
يضيق الفتى بحاجته ... **ومن تأسى بدونه اتسعا**

- وقال:

العلم كنز وذخره لا تعادله ... **نعم القرين إذا ما عاقل صحبا**
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه ... **لا تعدلن به داراً ولا ذهبا**
اشدد يديك به تحمد مغبته به ... **تنال الغنى والدين والحسبا**
قد يجمع المرء مالاً ثم يسلبه ... **عما قليل فيلقى الذل والحربا**

- وقال:

يا عُدولَ البلادِ أنتم ذِئابٌ ... **سَترتكم عن العيونِ الثّيابُ**
غيرَ أنَّ الذئابَ تصطادُ وحشاً ... **ومباآتُها القِفارُ اليَبابُ**
ويَصيدُ العدولُ مالَ اليتامى ... **باقتناصٍ كما يصيدُ العُقابُ**
عَمّروا موضِعَ التصنعِ منهم ... **ومحلُّ الإخلاصِ منهم خرابُ**

- وقال:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره ... **وقد فتحت لك الحانوت بالدين**
بين الأساطين حانوت بلا غلق ... **تبتاع بالدين أموال المساكين**
صيرت دينك شاهيناً تصيد به ... **وليس يفلح أصحاب الشواهين**

- وقال رجل لعبد الله بن المبارك: أَوْصِنيِ فقال: احفظْ لِسانَك، ثم أَنشده قوله:

احْفَظْ لسانَك إنَّ اللسانَ ∴ حَرِيصٌ على المَرْءِ فِي قَتْلِه
وإِنَّ اللسانَ برِيدُ الفُؤادِ ∴ دَلِيلُ الرجالِ عَلى عَقْلِهِ

- ومن قوله:

هُمومُكَ بالعَيْشِ مَقرونَةٌ ∴ فما تَقْطَعُ العَيْشَ إلاَّ بهَمّ
حَلاَوَةُ دُنْيَاكَ مَسمَومَةٌ ∴ فما تَأْكُلُ الشَّهْدَ إلاَّ بِسَمّ

- وقال:

إلى الله أَشْكو لا إلى الناسِ أَنَّني ∴ أَرَى صَالحَ الأَخلاقِ لا أَسْتَطيعُها
أَرَى خَلَّةً في إِخْوَةٍ وعَشيرةٍ ∴ وذِي رَحِمٍ، ما كُنْتُ مّمِن يُضيعُها
فلوْ طَاوَعَتْني بالمكَارِمِ قُدْرَةٌ ∴ لَجَادَ عَلَيْها بالنَّوالِ رَبِيعُها

- وقال:

دُنْيَا تَدَاوَلها العِبَادُ ذَميمةً ∴ شِيبَتْ بأَكْرَهَ منْ نَقِيعِ الحَنْظَلِ
وبَنَاتُ دَهْرٍ لا تَزَالُ مُلِمَّةً ∴ فيها فَجَائعُ مِثْلَ وَقْعِ الجَنْدَلِ

- وقال:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ∴ فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ∴ وأهل الأمن في الدنيا هجوع

- وودع عبد الله بن المبارك رجلا، فقال:

ونحن ننادي أنّ فرقة بيننا ∴ فراق حياةٍ لا فراق ممات

- وقال:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا :: **منه بعروته الوثقى لمن دانا**
لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل :: **وكان أضعفنا نهباً لأقوانا**

- وقال:

يد المعروف غنم حيث كانت :: **تحملها شكور أو كفور**
ففي شكر الشكور لها جزاء :: **وعند الله ما كفر الكفور**

ومن أقواله الحكيمة:

- اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدريّ في الوجه.

- التعزّز على الأغنياء تواضع.

- لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب.

- ومر عبد الله بن المبارك برجل واقف بين مقبرة ومزبلة فقال: يا رجل، إنك بين كنَزين: كنزِ الأموال، وكنز الرجال.

- وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك، وبادر القيام، فجذب ثوبه وقال: أما لك إلى الله حاجة.

- ووذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك فقال: لو كنت مغتاباً لاغتبت أمي، لأنها أحق بحسناتي إليها.

- وقال عبد الله بن المبارك، قال سفيان: كان يقال: إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل لك.

- وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً.

- فساد الدين إلى ثلاث طوائف، أخطرها علماء السوء، الأئمة المضلون، الرؤوس الجهال، الذين يفتون بغير علم فيَضِلوا ويُضِلوا.

- من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

- رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وفي رواية:

رأيتُ الذنوب تميت القلوبَ ... ويورث الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانُها
وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوء ورهبانُها
وباعوا النفوسَ فلم يربحوا ... ولم يغل في البيع أثمانُها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي العقل إنتانُها

اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

- وعن عبد الله بن المبارك قال: إن رجلا حكيمًا جمع الأحاديث فاختار منها أربعين ألفا ثم اختار منها أربعة آلاف ثم اختار منها أربعمائة ثم اختار منها أربعين، ثم اختار منها أربع كلمات ، إحداهن: لا تثقن بامرأة على كل حال، والثانية: لا تغتر بالمال على كل حال، والثالثة: لا تحمل معدتك ما لا تطيقه، والرابعة: لا تجمع من العلم ما لا ينفعك.

- وعن عبد الله بن المبارك قال: حدثنا وهيب قال: ما اجتمع قوم في مجلس أو ملأ إلا كان أولاهم بالله الذي يفتتح بذكر الله حتى يفيضوا في ذكره، وما اجتمع قوم في مجلس أو ملأ إلا كان أبعدهم من الله الذي يفتتح بالشر حتى يخوضوا فيه، وفي الحديث: " طوبى لمن كان مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر وويل لمن كان مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير ".

- وقيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لمْ تجلس معنا؟! قال: اذهب اجلس مع الصحابة والتابعين؛ قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟! قال: اذهب انظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم؛ ما أصنع معكم؟! أنتم تغتابون الناس! فإذا كانت سنة مئتين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، وفر من الناس كفرارك من أسد وتمسك بدينك
يسلم لك.

- وقام رجل إلى ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن في أي شيء اجعل فضل يومي؟ في تعلم القرآن أو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم؛ قال: فاجعله في طلب العلم الذي يعرف به القرآن.

- رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

- رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تُعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

- عن ابن المبارك قال: كان رجل ذا مال لم يسمع بعالم إلا أتاه حتى يقتبس منه فسمع أن في موضع كذا وكذا عالماً فركب السفينة وفيها امرأة فقالت: ما أمرك يا هذا؟ قال: إني مشغوف بحب العلم فسمعت أن في موضع كذا عالماً آتيه، قالت: يا هذا كلما زيد في علمك يزيد في عملك أو تزيد في علمك والعمل موقوف؟ فانتبه الرجل ورجع وأخذ في العمل.

- عن عبد الله بن المبارك قال: جئت على سفيان عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان فبكيت فالتفت إلي فقال: ما شأنك؟! فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم.

- عن أبي صالح الأنطاكي قال: سمعت ابن المبارك يقول: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث، إما يموت فيذهب علمه؛ وإما يَنسى، وإما يصحب السلطان فيذهب علمه [1].

(1) مصادر الترجمة: طبقات خليفة: 323، تاريخ خليفة: 146، التاريخ الكبير: 5 / 212، التاريخ الصغير: 2 / 225، المعارف: 511، الجرح والتعديل: 5 / 179، الولاة والقضاة: 368، حلية الأولياء: 8 / 162، الانتفاء: 132، تاريخ بغداد: 10 / 152، طبقات الشيرازي: الورقة: 26، ترتيب المدارك: / 300، صفوة لصفوة: 4 / 134- 147، وفيات الاعيان: 3 / 32، تهذيب الكمال: 730، تهذيب التهذيب: 2 / 177 / 2 تذكرة

* * *

الحفاظ : 1 / 174، العبر : 1 / 280، الديباج المذهب : 130، غاية النهاية : 1 / 446، تهذيب التهذيب: 5 / 382، النجوم الزاهرة: 2 / 27، خلاصة تذهيب الكمال: 211، الطبقات الكبرى للشعراني: 50، شذرات الذهب: 1 / 295.

الإمام الطبرانى

أعلام الحديث

الإمام الحجة حافظ الدنيا الطبراني

الإمام، الحافظ، الثقة، الرحال، الجوال، محدث الإسلام، علم المعمرين، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي، الشامي، الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة.

ولد بمدينة عكا، في شهر صفر، سنة ستين ومائتين.

بدأ في سماع الحديث مبكرا، فبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم في الثالثة عشر من عمره، بدأ في سماع الحديث منذ سنة ثلاث وسبعين، رحل كثيرًا في طلب الحديث ، وظلت رحلته في طلب الحديث علي مدار ستة عشر عاما، وكتب عمن أقبل وأدبر، وبرع في هذا الشأن، وجمع وصنف وعمر دهرًا طويلا، وازدحم عليه المحدثون، ورحلوا إليه من الأقطار.

وخلال رحلته العلمية التقي خلالها أصحاب يزيد بن هارون، وروح بن عبادة، وأبي عاصم، وحجاج بن محمد، وعبد الرزاق، ولم يزل يكتب حتى كتب عن أقرانه.

وسمع الحديث من هاشم بن مرثد الطبراني، وأحمد بن مسعود الخياط، وأحمد بن عبد الله اللحياني وعمرو بن ثور، وإبراهيم بن أبي سفيان صاحبي الفريابي، وسمع من نحو ألف شيخ أو يزيدون.

وممن روى عنهم: أبي زرعة الدمشقي، وإسحاق بن إبراهيم الدبري، وإدريس بن جعفر العطار، وأحمد بن زياد الرقي الحذاء، وإبراهيم بن سويد الشبامي، وإبراهيم بن محمد بن بزة الصنعاني،

والحسن بن عبد الأعلى البوسي أصحاب عبد الرزاق، وبكر بن سهل الدمياطي، وحبوش بن رزق الله المصري، وأبي الزنباع روح بن الفرج القطان، والعباس بن الفضل الأسفاطي، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وعبد الله بن الحسين المصيصي، وعبد الرحيم بن عبد الله البرقي، سمع منه: السيرة لكنه وهم، وسماه أحمد باسم أخيه، وعلي بن عبد الصمد ما غمه، وأبي مسلم الكجي، وإسحاق بن إبراهيم المصري القطان، وإدريس بن عبد الكريم الحداد، وجعفر بن محمد الرملي القلانسي، والحسن بن سهل المجوز، وزكريا بن حمدويه الصفار، وأبي عبد الرحمن النسائي، وعبيد الله بن رماحس، وهارون بن ملول وغيرهم كثير.

وسمع: بالحرمين، واليمن، ومدائن الشام ومصر، وبغداد، والكوفة، والبصرة، وأصبهان، وخوزستان، وغير ذلك، ثم استوطن أصبهان، وأقام بها نحوًا من ستين سنة ينشر العلم ويؤلفه، وإنما وصل إلى العراق بعد فراغه من مصر والشام والحجاز واليمن، وإلا فلو قصد العراق أولا لأدرك إسنادًا عظيمًا.

وحدث عنه: أبو خليفة الجمحي، والحافظ بن عقدة، وأحمد بن محمد بن إبراهيم الصحاف، وابن مندة، وأبو بكر بن مردويه، وأبو عمر محمد بن الحسين البسطامي، وأبو نعيم الأصبهاني، وأبو الفضل محمد بن أحمد الجارودي، وأبو سعيد النقاش، وأبو بكر بن أبي علي الذكواني، وأحمد بن عبد الرحمن الأزدي، والحسين بن أحمد بن المرزبان، وأبو الحسين بن فاذشاه، وأبو سعد عبد الرحمن بن أحمد الصفار، ومعمر بن أحمد بن زياد، وأبو بكر محمد بن عبد الله الرباطي، والفضل بن عبيد الله بن شهريار، وعبد الواحد بن أحمد الباطرقاني، وأحمد بن

محمد بن إبراهيم الأصبهاني، وعلي بن يحيى بن عبدكويه، ومحمد بن عبد الله بن شمة، وبشر بن محمد الميهني، وخلق كثير.

ومن مؤلفاته:

- المعجم الكبير:

وهو مرتب على مسانيد الصحابة بحسب حروف المعجم، عدا مسند أبي هريرة فإنه أفرده في مصنف مستقل لكثرة أحاديثه، وهو أكبر معاجم الدنيا، ويقال بأن فيه ستين ألف حديث، وقيل ثمانين ألفا، ولكننا، كما يقول الشيخ السعد حفظه الله، لا نستطيع أن نحدد عدد أحاديثه بالضبط، لأن هناك جزءا مفقودا منه.

ورغم ذلك فإن عدد المرفوعات عند أحمد أكبر من عددها عند الطبراني، فالمسند، هو أكبر كتاب في المرفوعات، وأما إذا ضم إلى هذه المرفوعات، الآثار عن الصحابة وما قيل في أوصافهم ووفياتهم وما إلى ذلك، فإن عدد أحاديث معجم الطبراني الكبير أكبر.

- المعجم الأوسط: وهو مرتب على أسماء شيوخ الطبراني، وهم حوالي ألفين، ويقال بأن فيه ثلاثين ألف حديث، وهو من مظان الغريب، وقد أثر عن الطبراني أنه قال: هذا الكتاب روحي (أي المعجم الأوسط).

- المعجم الصغير:

وقد خرج فيه عن ألف من شيوخه، مقتصرا غالبا على حديث واحد لكل منهم.

ومن أبرز معالم منهج الطبراني: في هذه المعاجم الثلاثة أنه قسَّم الصحابة إلى قسمين:

قسم له رواية، وقسم ليس له رواية، فهو معجم صحابة.

فما كان فيه من صحابة ليس لهم رواية، فإن الطبراني يعرف بهم من خلال كتب السير والمغازي.

وأما من لهم رواية: فهم إما: مكثرون من الرواية، وهؤلاء لا يخرج لهم إلا النزر اليسير وربما لا يخرج لهم أصلا، لأنه أفردهم بمسانيد خاصة كأبي هريرة .، ومن أبرز الأمثلة على عدم استيعابه لأحاديث المكثرين: أنه لم يخرج لأنس . إلا نحو 40 حديثا فقط، وقد يسهب أحيانا في ذكر أحاديث المكثرين كعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو .، ولكن الأصل في معجمه، عدم الإسهاب في ذكر رواية المكثرين , وجدير بالذكر أن الطبراني، يورد الأحاديث دون ترتيب، إلا في الصحابة المكثرين ممن لهم تلاميذ كثر، وهؤلاء التلاميذ بدورهم مكثرون، فإنه يرتب أحاديث الصحابي تبعا لمن رووا عنه، فيرتب أحاديث ابن عباس ، على سبيل المثال، طبقا للرواة عنه، كعكرمة وسعيد بن جبير.

مقلون من الرواية: وهؤلاء يحرص كل الحرص على استيفاء مروياتهم.

وعادة ما يبدأ بتعريف الصحابي وذكر اسمه كاملا ، وكنيته ، وأوصافه ، وهل يخضب أم لا، وما إلى ذلك ، ثم يذكر فضائله ، إن ورد فيها أحاديث، ويذكر مغازيه، ثم يورد أحاديثه، وما سبق ذكره من الصفات، يورده الطبراني مسندا، فكل قول يرويه في ترجمة أحد الصحابة مسندا إلى قائله، هو حديث، ولو كان لراو متأخر ، كقول يونس بن بكير: توفي معاذ . سنة 18 هـ.

بدأ بذكر أحاديث الخلفاء الأربعة .، ومن ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة .، فلم يلتزم الترتيب الأبجدي في ذكر العشرة .، ومن ثم أتبعهم بذكر أحاديث بقية الصحابة مبتدئا بأحاديث من عرفت أسماؤهم من رجال الصحابة .، ثم أحاديث من عرفت كناهم ، ثم أحاديث المبهمين من رجال الصحابة ، ثم أحاديث من عرفت أسماؤهن من الصحابيات ، ثم من عرفت كناهن ، ثم المبهمات من الصحابيات.

اعتمد على الحرف الأول فقط في ترتيبه الأبجدي لأسماء من يروي عنهم، سواءا كانوا من الصحابة، كما في معجمه الكبير ، أو من شيوخه كما في معجمه الأوسط، فهو قد يقدم أنس . على آبي اللحم .، على سبيل المثال ، رغم أن (آب)، مقدمة على (أن) إذا أخذنا في الاعتبار الترتيب الأبجدي كاملا.

كما رتب الطبراني أحاديث معاجمه على الأبواب الفقهية أحيانا ، وليس دائما.

- كتاب السنة.
- كتاب الدعاء.
- كتاب الطوالات.
- كتاب مسند شعبة.
- مسند سفيان.
- كتاب مسانيد الشاميين.
- كتاب التفسير.
- كتاب الأوائل.
- كتاب الرمي.
- كتاب المناسك.
- كتاب النوادر.
- كتاب دلائل النبوة.
- كتاب عشرة النساء.
- مسند عائشة.
- مسند أبي هريرة.
- مسند أبي ذر.
- معرفة الصحابة.
- العلم.
- الرؤية.
- فضل العرب.
- الجود.
- الفرائض.
- مناقب أحمد.
- كتاب الأشربة.
- كتاب الألوية في خلافة أبي بكر وعمر.

وكانت للطبراني مكانة كبيرة لدي العامة والخاصة علي حد سواء فقد جعل له ولاة الأمر راتبا شهريا يستعين به علي شئون الحياة فقد قال أبو بكر بن مردويه في (تاريخه): لما قدم الطبراني قدمته الثانية سنة عشر وثلاث مائة إلى أصبهان قبله أبو علي أحمد بن محمد بن رستم العامل، وضمه إليه، وأنزله المدينة، وأحسن معونته، وجعل له معلوما من دار الخراج فكان يقبضه إلى أن مات.

وقد كنى ولده محمدا أبا ذر، وهي كنية والده أحمد.

مواقف من حياته:

كنت أنام على البواري :

وقد أكثر الطبراني من رواية الحديث فقد قال أبو بكر بن أبي علي: سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه، فقال: كنت أنام على البواري، ثلاثين سنة.

حتى يحضر الطبراني:

قال أبو نعيم الحافظ: سمعت أحمد بن بندار يقول: دخلت العسكر سنة ثمان وثمانين ومائتين، فحضرت مجلس عبدان، وخرج ليملي، فجعل المستملي يقول له: إن رأيت أن تملي، فيقول: حتى يحضر الطبراني.

قال: فأقبل أبو القاسم بعد ساعة متزرا بإزار مرتديا بآخر، ومعه أجزاء، وقد تبعه نحو من عشرين نفسا من الغرباء من بلدان شتى حتى يفيدهم الحديث.

قام واعتذر إليه وندم:

قال أبو زكريا يحيى بن مندة: سمعت مشايخنا ممن يعتمد عليهم يقولون: أملى أبو القاسم الطبراني حديث عكرمة في الرؤية، فأنكر عليه ابن طباطبا العلوي، ورماه بداوة كانت بين يديه، فلما رأى الطبراني ذلك واجهه بكلام اختصرته، وقال في أثناء كلامه: ما تسكتون تشتغلون بما أنتم فيه حتى لا يذكر ما جرى يوم الحرة. فلما سمع ذلك ابن طباطبا، قام واعتذر إليه وندم.

وكان هذا كالمغفل:

ثم قال ابن مندة: وبلغني أن الطبراني كان حسن المشاهدة، طيب المحاضرة، قرأ عليه يوما أبو طاهر بن لوقا حديث: كان يغسل حصى جماره فصحفه، وقال: خصي حماره، فقال: ما أراد بذلك يا أبا طاهر.

قال: التواضع، وكان هذا كالمغفل.

وإياك يا أبا القاسم:

قال الطبراني يوما لابن مندة: أنت ولدي، قال: وإياك يا أبا القاسم، يعني: وأنت.

فخرجت ولم أعد إليه بعد:

قال ابن مندة: سمعت الطبراني يقول: لما قدم أبو علي بن رستم بن فارس، دخلت عليه، فدخل عليه بعض الكتاب، فصب على رجله خمس مائة درهم، فلما خرج الكاتب أعطانيها، فلما دخلت بنته أم عدنان، صبت على رجله خمس مائة، فقمت، فقال: إلى أين؟

قلت: قمت لئلا يقول: جلست لهذا، فقال: ارفع هذه أيضا، فلما كان آخر أمره، تكلم في أبي بكر وعمر ببعض الشيء، فخرجت ولم أعد إليه بعد.

فوددت أن الوزارة لم تكن:

قال أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي: سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذاكرة أبي القاسم الطبراني وأبي بكر الجعابي

بحضرتي، فكان الطبراني يغلب أبا بكر بكثرة حفظه، وكان أبو بكر يغلب بفطنته وذكائه حتى ارتفعت أصواتهما، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هات، فقال: حدثنا أبو خليفة الجمحي، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بحديث، فقال الطبراني: أخبرنا سليمان بن أيوب، ومني سمعه أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك، فخجل الجعابي، فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت أنا الطبراني، وفرحت كفرحه، أو كما قال.

أبو القاسم ببلدكم وأنت لا تسمع منه:

قال أب و جعفر بن أبي السري: لقيت ابن عقدة بالكوفة، فسألته يوما أن يعيد لي فوتا، فامتنع، فشددت عليه، فقال: من أي بلد أنت؟

قلت: من أصبهان.

فقال: ناصبة ينصبون العداوة لأهل البيت.

فقلت: لا تقل هذا فإن فيهم متفقهة وفضلاء ومتشيعة.

فقال: شيعة معاوية؟

قلت: لا والله، بل شيعة علي، وما فيهم أحد إلا وعلي أعز عليه من عينه وأهله، فأعاد علي ما فاتني، ثم قال لي: سمعت من سليمان ابن أحمد اللخمي؟ فقلت: لا، لا أعرفه.

فقال: يا سبحان الله!! أبو القاسم ببلدكم وأنت لا تسمع منه، وتؤذيني هذا الأذى، بالكوفة ما أعرف لأبي القاسم نظيرا، قد سمعت منه، وسمع مني، ثم قال: أسمعت (مسند) أبي داود الطيالسي؟

فقلت: لا.

قال: ضيعت الحزم، لأن منبعه من أصبهان. وقال: أتعرف إبراهيم بن محمد بن حمزة؟ قلت: نعم. قال: قل ما رأيت مثله في الحفظ.

هذا تعنت على حافظ حجة:

قال أبو عبد الله الحاكم: وجدت أبا علي النيسابوري الحافظ س يئ الرأي في أبي القاسم اللخمي، فسألته عن السبب، فقال: اجتمعنا على باب أبي خليفة، فذكرت له طرق حديث (أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء)، فقلت له: يحفظ شعبة عن عبد الملك بن ميسرة، عن طاووس، عن ابن عباس؟

قال: بلى، رواه غندر، وابن أبي عدي.

قلت: من عنهما؟

قال: حدثناه عبد الله بن أحمد، عن أبيه، عنهما، فاتهمته إذ ذاك، فإنه ما حدث به غير عثمان بن عمر عن شعبة.

قلت: هذا تعنت على حافظ حجة.

وقد أثني عليه كثير من أرباب العلم والحديث فقد قال أبو بكر بن أبي علي المعدل: الطبراني أشهر من أن يدل على فضله وعلمه، كان واسع العلم كثير التصانيف.

كم عدد الجذوع التي في السقف؟:

وقيل: ذهبت عيناه في آخر أيامه، فكان يقول: الزنادقة سحرتني، فقال له يوما حسن العطار - تلميذه - يمتحن بصره: كم عدد الجذوع

التي في السقف؟

فقال: لا أدري، لكن نقش خاتمي سليمان بن أحمد.

قلت: هذا قاله على سبيل الدعابة.

وليس بالغفاري:

قال: وقال له مرة: من هذا الآتي يعني: ابنه ـ؟

فقال أبو ذر: وليس بالغفاري.

وقد عاش الطبراني مائة عام وعشرة أشهر.

وتوفي الطبراني لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستين وثلاث مائة بأصبهان، ومات ابنه أبو ذر في سنة تسع وتسعين وثلاث مائة عن نيف وستين سنة.

ورثاه الصاحب بقوله:

قَد وَجَدْنا في مُعْجَمِ الطبراني ... ما فَقَدْنا في سائِرِ البُلْدانِ
بِأسانِيدَ لَيْس فيها ... ومُتونٍ إذا رُفِعْنَ مِتانِ [1]

* * *

(1) ذكر أخبار أصبهان : 1 / 335- 336، طبقات الحنابلة : 2 / 49- 51، الأنساب : 8 / 199- 200، المنتظم : 7 / 54، معجم البلدان : 4 / 18- 19، وفيات الاعيان : 2 / 407، تذكرة الحفاظ: 3 / 912- 917، دول الإسلام: 1 / 223، ميزان الاعتدال: 2 / 195، العبر : 2 / 315- 316، مرآة الجنان : 2 / 372، البداية والنهاية : 11 / 270، غاية النهاية في طبقات القراء : 1 / 311، لسان الميزان : 3 / 73- 75، النجوم الزاهرة : 4 / 59- 60، طبقات الحفاظ : 372- 373، طبقات المفسرين للداوودي: 1 / 198- 201، شذرات.
الذهب : 3 / 30، هدية العارفين : 1 / 396، الرسالة المستطرفة : 38، 135- 136 وغيرها، تهذيب ابن عساكر: 6 / 242- 244.

ابن حبان

أعلام الحديث

الإمام الحافظ ابن حبان

هو الإمام العلاّمة الحافظ القاضي أحد الأئمة الرحالين والمصنفين. أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سهيد بن هديَّة بن مرة بن سعد بن يزيد التميمي الدارمي البستي، يعرف بابن حبان ﷺ - رحمه الله - بـأبي حاتم [1] البستي نسبة إلى مدينة بُسْت[2].

بدأ في طلب العلم والحديث في سن مبكرة من عمره فطاف البلاد ورحل إلى الآفاق طلباً للعلم والعلماء، فشدَّ الرحال إلى البصرة ومصر والموصل ونسا وجرجان وبغداد ودمشق ونيسابور وعسقلان، وبيت المقدس وطبرية وهراة، وغيرها من المدن، وقد بلغ مجموع شيوخه قرابة ألفي شيخ، كما صرح في مقدمة كتابه [3] فقال: " لعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ من اسبيجاب إلى ا لاسكندرية ".

(1) الأنساب 248/1، ومعجم البلدان 328/2، والكامل 566/8، واللباب 105/1، وسير أعلام النبلاء 92/16، وتذكرة الحفاظ 920/3، وتاريخ الإسلام وفيات 354، والعبر 94/2، والوافي بالوفيات 317/2، والبداية والنهاية 248/11، وشذرات الذهب 16/3، وهدية العارفين 44/6).

(2) بالضم مدينة كبيرة بين سجستان وغزنين وهراة، خرج من هذه المدينة كبار العلماء أمثال: أبو سليمان الخطابي صاحب كتاب " معالم السنن "، وإسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل أبو محمد القاضي، وأبو الفتح البستي الشاعر الكاتب صاحب التجنيس.

(3) التقاسيم والأنواع 152/1.

وقد علق الذهبي [1] على ذلك فقال: " كذا فلتكن الهمم ".

أبدع رحمه الله في شتى العلوم فإلى جانب تبحره في علم الحديث، كانت له معرفة واسعة في علم الفقه، مع القدرة الفائقة على استنباط المسائل والأحكام من النصوص، وأبدع أيضاً في علم العربية وعلم الطب والنجوم وغيرها، ويظهر ذلك واضحاً من خلال الثروة العلمية الهائلة من المصنفات التي خلفها لنا.

وقد أثني عليه الكثير من العلماء والفقهاء فقد قال فيه أبو سعد الإدريسي: " كان على قضاء سمرقند زماناً، وكان من فقهاء الدين، وحفاظ الآثار عالماً بالطب وبالنجوم وفنون العلم ".

وقال الحاكم: " كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال ".

وقال أبو بكر الخطيب: " كان ابن حبان ثقة نبيلاً فهماً ".

وقال ياقوت الحموي: " أخرج من علوم الحديث ما عجَزَ عنه غيره، ومن تأمل تصانيفه تأمُّل منصف علم أنّ الرجل كان بحراً في العلوم ".

وقد تتلمذ في الفقه على يد شيخه إمام الأئمة، وأخذ عنه طريقته في استنباط الأحكام والمسائل الفقهية، ويظهر ذلك جلياً في كتابه " التقاسيم والأنواع " الذي يبيّن مدى تمسك ابن حبان بمنهج شيخه في الاستنباط، وتقليده الكامل له، لكن مع تصرفه الخاص الذي يمليه عليه عقله وأسلوبه، رحم الله ابن حبان وشيخه ورحمنا جميعاً.

(1) سير أعلام النبلاء 94/16.

شيوخه:

تلقي ابن حبان العلم علي أيدي الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين منهم:

1- أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بن راشد البغدادي الصوفي الكبير، أبو محمد، وثقه الخطيب وغيره وكان صاحب حديث وإتقان (ت 306هـ) [1].

2- أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي (أبو يعلى الموصلي) محدث الموصل وصاحب المسند والمعجم
(ت 307هـ) [2].

3- الحسن بن سفيان بن عامر بن عبد العزيز، أبو العباس الشيباني الخراساني النسوي، صاحب المسند (ت 303هـ) وقد حضر دفنه ابن حبان انظر [3].

4- الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود، أبو عروبة السلمي الحراني الجزري، مفتي أهل حَرّان ومصنف كتاب " الطبقات " و" تاريخ الجزيرة " (ت 318هـ).

5 -ابن خزيمة إمام الأئمة وشيخ خراسان.

(1) تاريخ بغداد 132/5، وسير أعلام النبلاء 152/14.
(2) سير أعلام النبلاء 174/14، وتذكرة الحفاظ 707/2.
(3) سير أعلام النبلاء 157/14، وتذكرة الحفاظ 703/2.

6- السَرّاج: هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مهران، أبو العباس السراج الثقفي مولاهم الخراساني النيسابوري، صاحب " المسند الكبير " (ت 313هـ).

7- عبد الله بن محمد بن سلم، أبو محمد المقدسي الفريابي الأصل، وصفه ابن المقرئ بالصلاح والدين، توفي سنة اثني عشر وثلاث مئة [1].

8- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن شيرويه بن أسد، أبو محمد القرشي المطلبي النيسابوري، صاحب التصانيف (ت 305هـ).

9- عمران بن موسى بن مجاشع، أبو إسحاق الجرجاني السختياني، مصنف " المسند " (ت 305هـ).

10- عمر بن سعيد بن أحمد بن سعد بن سنان، أبو بكر الطائي المنبجي.

11- عمر بن محمد بن بُجير، أبو حفص الهمداني البُجَيري السمرقندي محدث ما وراء النهر ومصنف " المسند " و" التفسير " وغيرها (ت 311هـ).

12- الفضل بن الحُبَاب، أبو خليفة الجمحي البصري الأعمى، لقي الأعلام وكتب علماً جمّاً، وكان ثقة صادقاً مأموناً أديباً فصيحاً مفوَّهاً، رُحِل إليه من الآفاق، (ت 305هـ).

13- محمد بن الحسن بن قتيبة، أبو العباس اللخمي العسقلاني، كان مسند أهل فلسطين، ذا معرفة وصدق (ت 310هـ).

(1) سير أعلام النبلاء 157/14، وتذكرة الحفاظ 703/2، والوافي بالوفيات 187/2، الأنساب 452/3،.

14- النسائي: هو أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي صاحب " السنن " كان من بحور العلم (ت 303هـ).

تلامذته:

1- الحاكم: هو محمد بن حمدوُيه بن نعيم بن الحكم، أبو عبد الله ابن البَيّع الضبي الطهماني النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف (ت 405هـ).

2- الدارقطني: هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني، من بحور العلم، وأئمة الدنيا في الحفظ والفهم والورع، صاحب " السنن " و" العلل " وغيرها (ت 385هـ).

3- ابن منده: هو أبو عبد الله محمد بن المحدث أبي يعقوب إسحاق ابن محمد بن يحيى بن منده العبدي الأصبهاني، صاحب كتاب " معرفة الصحابة " و" التوحيد " وغيرها (ت 395هـ).

وغير ذلك من العلماء ممّا حوته كتب التراجم والأعلام.

آثاره العلمية:

يعد ابن حبان - رحمه الله - أحد العلماء البارزين المكثرين في التصنيف، إذ له عدد كبير من المصنفات، يغلب عليها التصنيف في الحديث والجرح والتعديل، وقد أبدع فيها،

وقد استقصى هذه المصنفات عدد من الباحثين المعاصرين ذكروا منها:

1- أسامي من يعرف بالكنى.

2- أنواع العلوم وأوصافها.

3- التقاسيم والأنواع.

4- الثقات.

5- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء.

6- علل أوهام أصحاب التواريخ.

7- علل حديث مالك.

8- علل مناقب الزهري.

9- غرائب الأخبار.

10- الفصل والوصل.

11- ما انفرد به أهل مكة من السنن.

12- ما انفرد فيه أهل المدينة من السنن.

13- ما خالف فيه الثوري شعبة.

14- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين.

15- مشاهير علماء الأمصار.

16- المعجم على المدن.

17- الهداية إلى علم السنن.

وغير ذلك من المصنفات ممّا ورد في كتب التراجم والأعلام.

كانت وفاة ابن حبان - رحمه الله - سنة 354ه - في شهر شوال بسجستان بمدينة بُست [1].

* * *

(1) الأنساب : 2 / 209- 210، معجم البلدان : 1 / 415- 419، إنباه الرواة : 3 / 122، الكامل لابن الاثير: 8 / 566، اللباب: 1 / 151، المختصر في أخبار البشر: 2 / 105- 106، تذكرة الحفاظ : 3 / 920- 924، ميزان الاعتدال : 3 / 506- 508، العبر : 2 / 300، دول الإسلام: 1 / 220، الوافي بالوفيات: 2 / 317- 318، مرآة الجنان: 2 / 357، طبقات السبكي: 3 / 131- 135، البداية والنهاية: 11 / 259، لسان الميزان: 5 / 112- 115، النجوم الزاهرة : 3 / 342- 343، طبقات الحفاظ : 374- 375، شذرات الذهب : 3 / 16، هدية العارفين : 2 / 44- 45، الرسالة المستطرفة: 20- 21، 2 / 287.

الدارقطني

أعلام الحديث

الإمام الحافظ الدارقطني

هو الإمام الحافظ المجود، شيخ الإسلام، علم الجهابذة، فريد عصره، وقريع دهره، ونسيج وحده، وإمام وقته أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله البغدادي، المقرئ المحدث، من أهل دار القطن ببغداد.

ولد سنة ست وثلاثمئة، وقيل: سنة خمس وثلاثمئة.

وكان والد الدارقطني رجل علم، ومن المحدثين الثقات، فلا بد أن يحرص على تعليم ولده وهو صغير، كما أنه بدأ الكتابة وهو صبي، فقد قال عن نفسه كتبت في أول سنة خمس عشرة وثلاثمئة، وكان يحضر مجلس البغوي منذ نعومة أظافره، فقد نقل عن يوسف القواس قوله: " كنا نمر إلى البغوي والدارقطني صبي يمشي خلفنا بيده رغيف عليه كامخ ".

رحلاته العلمية:

بعد أن سمع الدارقطني شيوخ بلده، ارتحل إلى البصرة، والكوفة، وإلى غير ذلك من مدن العراق، والتي كانت مركزًا من مراكز العلم والعلماء، فقد ارتحل إلى واسط للقاء شيوخها والرواية عنهم، ورحل إلى البصرة في حدود العشرين وثلاثمئة، كما أنه رحل إلى الكوفة للسماع من الحافظ أبي عبد الله محمد بن القاسم بن زكريا الكوفي السوداني، قال الدارقطني : كتبت ببغداد من أحاديث السوداني..، ثم مضيت إلى الكوفة لأسمع منه، ورحل إلى الشام، ومصر، والحجاز،

قال الحاكم : دخل الدارقطني الشام ومصر على كبر السن، وحج واستفاد وأفاد، ومصنفاته يطول ذكرها.

ورحل الدارقطني إلى طبرية في الشام، ورحل إلى خوزستان للسماع من شيوخها.

شيوخه وتلاميذه:

كان توسع الدارقطني في الطلب والرحلة، مع ازدهار عصره بالعلم والعلماء، سببًا في كثرة شيوخه الذين تلقى عنهم، واستفاد منهم وتأثر بهم، لذا سأكتفي في هذا المقام بذكر طائفة من شيوخه وتلاميذه دون الإطالة بتراجمهم.

سمع : أبا القاسم البغوي، وأبا بكر بن أبي داود، ويحيى بن صاعد، وبدر بن الهيثم القاضي، وأحمد بن إسحاق البهلول، وعبد الوهاب بن أبي حية، والفضل بن أحمد الزبيدي، وأبا سعيد العدوي، ويوسف بن يعقوب النيسابوري، وأبا حامد بن هارون الحضرمي، وسعيد بن محمد أخا زبير الحافظ، ومحمد بن نوح الجنديسابوري، وأحمد بن عيسى بن السكين البلدي، وإسماعيل بن العباس الوراق، وإبراهيم بن حماد القاضي، وعبد الله بن محمد بن سعيد الجمال، وأبا طالب أحمد بن نصر الحافظ، وخلقًا كثيرًا من هذه الطبقة، ومن بعدهم.

وحدث عنه : الحافظ أبو عبد الله الحاكم، والحافظ عبد الغني، وتمام ابن محمد الرازي، والفقيه أبو حامد الإسفراييني، وأبو نصر بن الجندي، وأحمد بن الحسن الطيان، وأبو عبد الرحمان السلمي، وأبو مسعود الدمشقي، وأبو نعيم الأصبهاني، وأبو بكر البرقاني، وأبو الحسن العتيقي، وأحمد بن محمد بن الحارث، الأصبهاني النحوي،

والقاضي أبو الطيب الطبري، وعبد العزيز بن علي الأزجي، وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن بشران، وأبو الحسن بن السمسار الدمشقي، وأبو حازم بن الفراء أخو القاضي أبي يعلى، وأبو النعمان تراب بن عمر المصري، وأبو الغنائم عبد الصمد بن المأمون، وأبو الحسين محمد ابن أحمد بن محمد بن حسنون النرسي، وحمزة بن يوسف السهمي، وخلق سواهم من البغاددة، والدماشقة، والمصريين.

أقوال العلماء فيه وثناؤهم عليه:

قال الخطيب البغدادي : كان فريد عصره، وقريع دهره، ونسيج وحده، وإمام وقته، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بعلل الحديث، وأسماء الرجال، وأحوال الرواة، مع الصدق والأمانة، والفقه والعدالة، وقبول الشهادة، وصحة الاعتقاد، وسلامة المذهب، والاضطلاع بعلوم سوى علم الحديث.

وقال الأزهري: كان الدارقطني ذكيًّا إذا ذوكر شيئًا من العلم أي نوع كان وجد عنده منه نصيب وافر.

وقال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري: كان الدارقطني أمير المؤمنين في الحديث، وما رأيت حافظًا ورد بغداد إلا مضى إليه، وسلم له، يعني فسلم له التقدمة في الحفظ وعلو المنزلة في العلم.

وقال عبد الغني الأزدي: أحسن الناس كلامًا على حديث رسول الله ﷺ ثلاثة: علي بن المديني في وقته، وموسى بن هارون في وقته، وعلي بن عمر الدارقطني في وقته.

وقال البرقاني: كنت أسمع عبد الغني بن سعيد الحافظ كثيرًا إذا حكى عن الدارقطني شيئًا، يقول: قال أستاذي، وسمعت أستاذي، فقلت

له في ذلك، فقال : وهل تعلمنا هذين الحرفين من العلم إلا من أبي الحسن الدارقطني؟!

قال البرقاني: وما رأيت بعد الدارقطني أحفظ من عبد الغني ابن سعيد.

وقال الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ - وسئل عن الدارقطني - فقال ما رأى مثل نفسه.

وقال محمد بن أبي الفوارس: وقد سأل أبا الحسن الدارقطني عن علة حديث، أو اسم فيه فأجابه، ثم قال له يا أبا الفتح، ليس بين الشرق والغرب من يعرف هذا غيري.

قال الخطيب البغدادي: قال كنت في مجلس بعض شيوخ الحديث سماه الخلال ونسيت، وقد حضره أبو الحسين بن المظفر، والقاضي أبو الحسن الجراحي، وأبو الحسن الدارقطني، وغيرهم من أهل العلم، فحلت الصلاة، فكان الدارقطني إمام الجماعة، وهناك شيوخ أكبر أسنانًا منه، فلم يقدم أحد غيره.

وقال الحاكم: صار الدارقطني أوحد عصره، في الحفظ والفهم والورع وإمام القراء والنحويين، وفي سنة سبع وستين أقمت ببغداد أربعة أشهر، وكثر اجتماعنا بالليل والنهار، فصادفته فوق ما وصف لي، وسألته عن العلل والشيوخ.

قال الخطيب: قرأت بخط حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق في أبي الحسن الدارقطني ، جعلناك فيما بيننا ورسولنا وسيطًا فلم تظلم ولم تتحوب، فأنت الذي لولاك لم يعرف الورى ولو جهدوا ما صادق من مكذب.

وقال السمعاني: كان أحد الحفاظ المتقنين المكثرين، وكان يضرب به المثل في الحفظ.

وقال الذهبي: الإمام الحافظ المجود شيخ الإسلام، علم الجهابذة.

وقال أيضًا : وكان من بحور العلم، ومن أئمة الدنيا، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، مع التقدم في القراءات وطرقها، وقوة المشاركة في الفقه، والاختلاف، والمغازي، وأيام الناس، وغير ذلك.

وقال أيضًا: الإمام شيخ الإسلام حافظ الزمان.

وقال أيضًا: أحد الأعلام، وصاحب التصانيف.

وقال ابن كثير : الحافظ الكبير أستاذ هذه الصنعة، وقبله وبعده، إلى زماننا هذا، سمع الكثير وصنف وألف وأجاد وأفاد، وأحسن النظر والتعليل، والانتقاد والاعتقاد، وكان فريد عصره، وإمام دهره... وكان من صغره موصوفًا بالحفظ الباهر، والفهم الثاقب، والبحر الزاخر.

وقال السبكي: الإمام الجليل أبو الحسن الدارقطني البغدادي الحافظ المشهور الاسم، صاحب المصنفات، وإمام زمانه، وسيد أهل عصره، وشيخ أهل الحديث.

وقال ابن خلكان الحافظ المشهور: كان عالمًا حافظًا فقيهًا.

أصبح الدارقطني - رحمه الله تعالى - يضرب به المثل في الحفظ والعلم، فإذا أراد العلماء أن يثنوا على حافظ شبهوه بالدارقطني، قال ابن ماكولا يصف شيخه الخطيب البغدادي ولم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن علي بن عمر من يجري مجراه.

وقال محمد بن طاهر المقدسي: وكان - رحمه الله - في زمانه بمنزلة يحيى بن معين في زمانه، أخذ عنه حفاظ عصره معرفة الحديث، وسألوه عن الرجال، ودونوا ذلك... فلا نعلم أحدًا أخذ هذا العلم إلا عنه.

وقال ابن العماد الحنبلي: الإمام الكبير، شيخ الإسلام، إليه النهاية في معرفة الحديث وعلومه، وكان يدعى فيه أمير المؤمنين.

ورعه وتقواه:

إن المتأمل لحياة الدارقطني يتبين له أن الدارقطني كان يكثر من تلاوة كتاب الله تعالى، وكان حسن الصوت حتى تصدر للإقراء في آخر حياته، وقد تقدم قوله كنت أنا والكتاني نسمع الحديث، فكانوا يقولون يخرج الكتاني محدث البلد، ويخرج الدارقطني مقرئ البلد فخرجت أنا محدثًا، والكتاني مقرئًا.

وقال الذهبي تصدر في أواخر أيامه.

ووصفه الحاكم بقوله وإمامًا في القراء.

كما أن العلم الغزير الذي وهبه الله تعالى للإمام الدارقطني يدل على تقوى الله تعالى، ويدل على ورعه وخشيته لله تعالى، قال الله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٢].

لذا وصفه الخطيب بقوله (... مع الصدق والأمانة، والفقه والعدالة، وصحة الاعتقاد، وسلامة المذهب).

وقال الحاكم : صار الدارقطني أوحد عصره في الحفظ والفهم والورع.

وقال ابن خلكان: وقبل القاضي ابن معروف شهادته في سنة ست وسبعين وثلاثمائة، فندم على ذلك، وقال: كان يقبل قولي على رسول الله ﷺ بانفرادي فصار لا يقبل قولي على نقلي إلا مع آخر.

تواضعه:

لم يكن تواضع الدارقطني - رحمه الله تعالى - مقتصرًا على شيوخه، بل كان هذا هو خلقه وطبيعته.. فقد كان يخفض جناحه لطلابه، الأمر الذي حببه إلى طلابه، فأقبلوا عليه يسألونه ويقتبسون من علمه وخلقه، وقد تقدم في قول منصور بن علي الطرطوسي " لما أراد الدارقطني الخروج من عندنا من مصر خرجنا نودعه وبكينا، فقال لنا تبكون وعندكم عبد الغني بن سعيد وفيه الخلف ".

ذكاؤه العجيب:

كان ذكاء الدارقطني آية من آيات الله تعالى، منذ صغره حتى وفاته، لم يتغير ولم يتبدل.. قال ابن كثير : ".. وكان من صغره موصوفًا بالحفظ الباهر، والفهم الثاقب، والبحر الزاخر.. ".

وقال الأزهري: كان الدارقطني ذكيًا إذا ذوكر شيئًا من العلم أي نوع كان وجد عنده منه نصيب وافر.

وقال الخطيب : سألت البرقاني، قلت له : هل كان أبو الحسن الدارقطني يملي عليك " العلل " من حفظه؟ فقال : نعم، ثم شرح لي قصة جمع " العلل "، فقال : كان أبو منصور بن الكرخي يريد أن يصنف مسندًا معللاً، فكان يدفع أصوله إلى الدارقطني فيعلم له على الأحاديث المعللة، ثم يدفعها أبو منصور إلى الوراقين، فينقلون كل حديث منها في رقعة، فإذا أردت تعليق الدارقطني على الأحاديث،

نظر فيها أبو الحسن، ثم أملى علي الكلام من حفظه، فيقول حديث الأعمش عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود الحديث الفلاني، اتفق فلان وفلان على روايته، وخالفهما فلان، ويذكر جميع ما في الحديث فأكتب كلامه في رقعة مفردة، وكنت أقول له لم تنظر قبل إملائك الكلام في الأحاديث؟ فقال: أتذكر ما في حفظي بنظري.

قال الذهبي : قلت : إن كان كتاب " العلل " الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه كما دلت عليه هذه الحكاية، فهذا أمر عظيم، يقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا.

وقال أيضًا: قلت: هنا يخضع للدارقطني ولسعة حفظه الجامع لقوة الحافظة ولقوة الفهم والمعرفة، وإذا شئت أن تبين براعة هذا الإمام الفرد، فطالع " العلل " له فإنك تندهش ويطول تعجبك.

وفاته:

بعد حياة حافلة بخدمة السنة والدفاع عنها، قولاً وعملاً، وتعليمًا وتأليفًا، انتهت حياة الحافظ الدارقطني بلقاء ربه - تبارك وتعالى - ليبقى حيًّا بيننا بما تركه من المصنفات والآثار العلمية.

وتوفي الدارقطني ليلة الأربعاء، ودفن يوم الأربعاء الثامن من ذي الحجة سنة خمس وثمانين، وقد بلغ ثمانين سنة وخمسة أيام.

مؤلفاته:

- كتاب الأجواد.
- الأحاديث التي خولف فيها إمام دار الهجرة مالك بن أنس.
- أحاديث الموطأ، واتفاق الرواة، عن مالك، واختلافهم فيه، وزياداتهم ونقصانهم.

- أحاديث الوضوء من مس الذكر.

- أخبار عمرو بن عبيد، وكلامه في القرآن، وإظهار بدعته.

- اختلاف الموطآت.

- كتاب الإخوة، والأخوات.

- كتاب فيه أربعون حديثًا من مسند بريد بن عبد الله بن أبي بردة.

- أطراف موطأ الإمام مالك.

- أطراف مراسيل موطأ مالك.

- الإلزامات على صحيحي البخاري ومسلم.

- أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته من الثقات عند البخاري ومسلم وذكراه في كتابيهما الصحيحين أو أحدهما على حروف المعجم.

- أسماء الصحابة التي اتفق فيها البخاري ومسلم، وما انفرد به كل منهما.

- أسماء التابعين، ومن بعدهم ممن صحت روايته عند مسلم.

- أسماء المدلسين.

- الأفراد والغرائب من حديث رسول الله ﷺ وهو في مائة جزء.

- كتاب الأمالي.

- التتبع. وهو ما أخرج على الصحيحين وله علة.

- تسمية من روي عنه من أولاد العشرة.

- تصحيف المحدثين.

- تعليق واستدراكات للدارقطني على كتاب المجروحين لابن حبان.

- الجرح والتعديل.

- جزء الجهر بالبسملة في الصلاة.

- جزء فيه من حدث ونسي.

- حديث أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي النيسابوري، عن شيوخه، تخريج الشيخ الحافظ أبي الحسن الدارقطني.

- كتاب خماسيات السنن لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني.

- ذكر قوم أخرج لهم البخاري ومسلم في صحيحيهما وضعفهم النسائي في كتاب الضعفاء.

- ذكر من روى عن الشافعي ويقع في جزئين.

- الذيل على التاريخ الكبير للبخاري.

- رباعيات الإمام محمد بن إدريس الشافعي، تخريج أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، وهي الجزء الرابع والثامن من فوائد أبي بكر محمد بن عبد الله الشافعي، وهو جزء ضخم.

- رسالة من أبي الحسن الدارقطني إلى طاهر بن محمد الخار قي في بيان خطأ أبي حفص عمر بن جعفر بن عبد الله الوراق فيما انتقاه على أبي بكر الشافعي خاصة.

- رسالة في ذكر روايات الصحيحين.

- كتاب الرمي والنضال.

- كتاب رؤية الله تعالى.

- كتاب الرواة عن مالك بن أنس.

- السنن.

- سؤالات حمزة بن يوسف السهمي للدارقطني وغيره من المشايخ في الجرح والتعديل.

- سؤالات السلمي أبي عبد الرحمان محمد بن الحسين بن موسى السلمي للدارقطني في الجرح والتعديل.

- سؤالات البرقاني أبي بكر أحمد بن محمد البرقاني للدارقطني في الجرح والتعديل.

- سؤالات الحاكم أبي عبد الله محمد بن عبد الله الثيسابوري للدارقطني في الجرح والتعديل.

- سؤالات أبي ذر عبد بن أحمد الهروي للدارقطني.

- سؤالات أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني للدارقطني.

- سؤالات الحافظ أبي محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي للدارقطني.

- شيوخ البخاري.

- كتاب الصفات، أو أحاديث الصفات.

- كتاب الضبيين.

- الضعفاء والمتروكين من المحدثين.

- مقدمة كتاب الضعفاء والمتروكين من المحدثين.

- عشرون حديثًا منتقاة من كتاب الصفات.

- كتاب العلل.

- غرائب مالك (أحاديث مالك التي ليست في الموطأ).

- غريب الحديث.

- الغيلانيات (وهي الفوائد الغرائب العوالي) لابن غيلان [1].

- فضائل الصحابة.

- الفوائد لأبي بكر أحمد بن يوسف بن خلاد العطار المتوفي سنة 359 هـ، اختيار أبي الحسن الدارقطني.

- الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي لأبي الحسين محمد بن المظفر بن موسى البزاز المتوفى سنة 379 هـ. منه مختارات للدارقطني.

- الفوائد المنتقاة الحسان لأبي محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف البغدادي المتوفي سنة (381 هـ) انتقاه علي بن عمر الدارقطني.

- الفوائد المنتقاة الغرائب الحسان.

- الفوائد المنتخبة والمنتقاة الغرائب العوالي.

- الفوائد المنتخبة من حديث أبي سليمان الحراني المتوفى سنة 357 هـ، فقد قال الخطيب البغدادي: كتب الناس عنه بانتخاب الدارقطني.

(1) هو أبو طالب محمد بن محمد بن غيلان البزاز (ت 343 هـ)، قال ابن الأثير (وهو راوي الأحاديث المعروفة بالغيلانيات التي خرجها الدارقطني له، وهي من أعلى الحديث وأحسنه...

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي بكر محمد بن الحسن النقاش المتوفى سنة 351هـ، قال الذهبي (وكان الدارقطني يستملي له، وينتقي من حديثه).

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي علي محمد بن أحمد بن الحسن المعروف بابن الصواف المتوفى سنة 359هـ، اختيار أبي الحسن الدارقطني.

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي بحر محمد بن الحسن بن كوثر البربهاري المتوفى سنة (362هـ)، انتخاب أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني.

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي عمرو عثمان بن محمد بن بشر السقطي (ت 356هـ) بانتخاب أبي الحسن الدارقطني.

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي الحسن علي بن إبراهيم بن حماد الأزدي (ت 356هـ) بانتخاب أبي الحسن الدارقطني).

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي الحسين علي بن عبد الله بن الفضل بن العباس بن محمد البغدادي (ت 363هـ).

ـ الفوائد المنتخبة العوالي من الشيوخ الثقات، انتقاء أبي الحسن الدارقطني.

ـ حديث عمر الكتاني، رواية محمد الآبنوسي، وفيه من الأخبار رواية الدارقطني، رواه عنه الآبنوسي.

ـ الفوائد المنتخبة من حديث أبي عمر محمد بن العباس بن زكريا المعروف بابن حيوية المتوفى سنة (381هـ)، بتخريج الدارقطني.

- الفوائد المنتخبة من حديث أبي العباس أحمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق الضرير الرازي. انتقاء الدارقطني.

- الفوائد المنتقاة لأبي بكر محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن الحسين الكاتب الكرخي (ت 388هـ) تخريج أبي الحسن الدارقطني، وقال الخطيب البغدادي وهو يتحدث عن الانتخاب
(.. وكان فيهم جماعة يستفيد الطلبة بانتقائهم، ويكتب الناس بانتخابهم، كأبي بكر بن الجعابي، وعمر بن المظفر، وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم).

وقال أيضًا (وأما أبو الحسن الدارقطني، فكان انتخابه يشمل على النوعين من الصحاح والمشاهير، والغرائب والمناكير، ويرى أن ذلك أجمع للفائدة، وأكثر للمنفعة)، وكان المحدثون يعلمون على ما ينتخبوه في أصول الشيوخ، قال الخطيب (ورأيت علامة أبي الحسن الدارقطني في أصل لبعض الشيوخ في الحاشية اليسرى خطًّا عريضًا بالحمرة).

- كتاب القراءات.

- القضاء باليمين مع الشاهد.

- المدبج.

- كتاب المساجد.

- المستجاد من الحديث.

- مسند أبي حنيفة.

- مسند أبي الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن حنزابة بتخريج الحافظ أبي الحسن الدارقطني.

- المسند الكبير لدعلج بن أحمد السجزي ت 351هـ بتخريج الحافظ أبي الحسن الدارقطني.

- كتاب معرفة مذاهب الفقهاء.

- المؤتلف والمختلف.

- كتاب النزول أو أحاديث النزول.

ولقد انتفع المسلمون من مصنفات أبي الحسن الدارقطني على مر العصور حتى قال ابن الصلاح رحمه الله تعالى: " سبعة من الحفاظ أحسنوا التصنيف وعظم الانتفاع بتصانيفهم في أعصارنا " وبدأ بأبي الحسن الدارقطني رحمه الله تعالى.

مواقف من حياته:

فتعجبت الناس منه:

وقال الأزهري: بلغني أن الدارقطني حضر في حداثته مجلس إسماعيل الصفار، فجلس ينسخ جزءًا كان معه وإسماعيل يملي، فقال له بعض الحاضرين لا يصح سماعك وأنت تنسخ، فقال له الدارقطني: فهمي للإملاء خلاف فهمك، ثم قال: تحفظ كم أملى الشيخ من حديث إلى الآن؟ فقال لا، فقال الدارقطني أملى ثمانية عشر حديثًا، فعدت الأحاديث فوجدت كما قال، ثم قال أبو الحسن الحديث الأول منها عن فلان، عن فلان، ومتنه كذا، والحديث الثاني عن فلان، عن فلان، ومتنه كذا، ولم يزل يذكر أسانيد الأحاديث بمتونها على ترتيبها في الاملاء حتى أتى على آخرها، فتعجبت الناس منه.

ما الذي أخرك عن الحضور؟

قال البرقاني: سمعت أبا الحسن الدارقطني يقول: كتبت ببغداد من أحاديث السوداني أحاديث تفرد بها، ثم مضيت الى الكوفة لأسمع منه، فجئت وعنده أبو العباس بن عقدة، فدفعت إليه الأحاديث في ورقة، فنظر فيها أبو العباس ثم رمى بها واستنكرها، وأبى أن يقرأها، وقال: هؤلاء البغداديون يجيئونا بما لا نعرفه، قال أبو الحسن: ثم قرأ أبو العباس عليه فمضى في جملة ما قرأه حديث منها، فقلت له: هذا الحديث من جملة الأحاديث، ثم مضى آخر، وهذا أيضًا من جملتها، ثم مضى ثالث، فقلت: وهذا أيضًا منها، وانصرفت وانقطعت عن العود إلى المجلس لحمى نالتني، فبينما أنا في الموضع الذي كنت نزلته، إذا بداق يدق على الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: ابن سعيد، فخرجت وإذا بأبي العباس، فوقعت في صدره أقبله، وقلت: يا سيدي لم تجشمت المجيء؟ فقال ما عرفناك إلا بعد انصرافك، وجعل يعتذر إلي، ثم قال: ما الذي أخرك عن الحضور؟ فذكرت له أني حممت، فقال: تحضر المجلس لتقرأ ما أحببت فكنت بعد إذا حضرت أكرمني ورفعني في المجلس.

رأيت شيخًا لم ير مثله:

وقال أبو محمد رجاء بن محمد بن عيسى: سألت أبا الحسن الدارقطني، فقلت له رأى الشيخ مثل نفسه؟ فقال لي: قال الله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ} [النجم: ٣٢]، فقلت له لم أرد هذا، وإنما أردت أن أعلمه لأقول رأيت شيخًا لم ير مثله.

فقال لي: إن كان في فن واحد فقد رأيت من هو أفضل مني، وأما من اجتمع فيه ما اجتمع في فلا.

لو كان أحمد بن حنبل حاضرًا لاستفاد:

وقال القاضي أبو الطيب الطبري حضرت أبا الحسن الدارقطني، وقد قرأت عليه الأحاديث التي جمعها في الوضوء من مس الذكر، فقال: لو كان أحمد بن حنبل حاضرًا لاستفاد من هذه الأحاديث.

لا تظنوا أن أحدًا يقدر يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حي:

وكان رحمه الله تعالى يشعر أنه المدافع عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الحامل لواءها، فقد قال : يا أهل بغداد، لا تظنوا أن أحدًا يقدر يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حي [1].

* * *

(1) مقدمة كتاب " المؤتلف والمختلف " للدارقطني، للدكتور موفق بن عبد الله بن عبد القادر ذاكرين.

أبو بكر الآجري

أعلام الحديث

الحافظ أبو بكر الآجري

هو الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي العابد الزاهد الحافظ ذو التصانيف النافعة.

نشأ بدرب الآجر [1] ببغداد نشأة من يرجون تجارة لن تبور. فبكر إلى مجالس علماء بلدته وهو يتلو: اللهم بارك لي في الغدو والبكور. ولازم الحشمة والوقار والورع المتين. وسلك في الزهد والعبادة سنن السادة السالفين. وجد في القيام في جوف الدياجي قانتا. يتلو بلسان التذلل والاعتذار والرجا:

اتخذ طاعة الإله سبيلا ::: تجد الفوز بالجنان وتنجو
واترك الإثم والفواحش طرا ::: يؤتك الله ما تروم وترجو

وسمع وهو حدث يافع أبا مسلم الكجي الذي فاق محدثي عصره. وأقر له بالإمامة والصدارة أبناء دهره. فحصل في سن مبكرة الحديث بالأسانيد العوالي. وتفرد عن أقرانه وذويه بأوساط المعالي.

ثم صحب بعده أئمة تشد إليهم الرحال ويقصدون. من القوم الذين يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. فلازم أبا بكر جعفر بن محمد الفريابي وزاحم بركبتيه ألوف الحاضرين مجالس أبي محمد يحيى بن صاعد حامي جناب الشرع من

(1) درب الآجر محلة كانت ببغداد من محال نهر طابق بالجانب الغربي، سكنها غير واحد من أهل العلم، وهو الآن خراب. ينسب إليها: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري الفقيه الشافعي.

الحديث المفترى. وما برح يرتحل في الأمصار يطلب المزيد. حتى حوى من الحديث والآثار فوق ما يريد. ولسان حاله يقول:

وما لي حالة أرجو بقاها :: سوى التشمير في طلب المعالي
نظرت فلم أجد شيئا بعيني :: من الدنيا يزيد على خلالي

واشتاقت نفسه إلى المجاورة سنة بحرم الله الأمين. فأمه فحج واعتمر ولما هم بالخروج نودي: أردت سنة وأردنا ثلاثين. فأقام بمكة وصار شيخها ومفيد حجاجها والقاطنين. على خلق أرق من النسيم. ومحيا تعرف فيه نضرة النعيم.

وغدت مجالسه بكبراء أهل العلم صباحا مشرقا. وأمست أوقاته غيثا بالخيرات مغدقا. وأذاع أريج ثناءه مسك الليل وكافور الصباح. وخجل عند ذكره كل مناظر معاند وكبش نطاح. ووضح برهان أهل السنة وتعوذ من الوسواس الخناس. ونادي لسان الحق: مروا أبا بكر فليؤم الناس.

شيوخه:

سمع الحديث من كثير من الأئمة العلماء الأعلام. ممن ذاع صيتهم ببغداد والبصرة والكوفة وواسط ومصر والشام.

إبراهيم بن عبد الله بن مسلم بن ماعز أبو مسلم الكجي البصري (ت 292) وإبراهيم بن محمد بن الهيثم أبو القاسم القطيعي الكرخي (ت 301) وإبراهيم بن موسى بن إسحاق الجوزي أبو إسحاق التوزي (ت 304) وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار بن راشد أبو عبد الله الصوفي (ت 306) وأحمد بن سهل بن الفيرزان أبو العباس الأشناني المقرئ (ت 307) وأحمد بن عبد الرحمن بن مرزوق بن أبى عوف أبو عبد

الله البزوري (ت 297) وأحمد بن عمر بن موسى بن زنجويه المخرمي أبو العباس القطان (ت 304) وأحمد بن عيسى بن السكين بن عيسى بن فيروز أبو العباس البلدي (ت 323) وأحمد بن محمد بن زياد ابن بشر بن درهم أبو سعيد بن الأعرابي (ت 340) وأحمد بن محمد بن يوسف بن شاهين أبو عبد الله الشيباني (ت 301) وأحمد بن محمد بن عبد الكريم بن يزيد بن سعيد الفزاري أبو طلحة البصري وأحمد بن يحيى بن إسحاق الحلواني أبو جعفر البجلي (ت 296) وإسحاق بن إبراهيم بن أبي حسان أبو يعقوب الأنماطي البغدادي (ت 302) وبنان ابن أحمد بن علويه أبو محمد القطان جار الدارقطني (ت 301) وجعفر ابن إدريس القزويني أبو عبد الله المكي إمام الحرم (ت 315) وجعفر بن محمد بن يعقوب أبو الفضل الصندلي (ت 318) وجعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض أبو بكر الفريابي (ت 301) وحامد بن محمد بن شعيب بن زهير أبو العباس البلخي (ت 309) والحسن بن زكريا بن أسد أبو علي السكري والحسن بن علي بن إسماعيل أبو سعيد الجصاص البغدادي (ت 301) وغيرهم الكثير.

ثناء أهل العلم عليه:

- قال الخطيب البغدادي: " كان ثقة صدوقا دينا ".

- وقال ابن البنا: " كان إماما ناصحا، وورعا صالحا، وكلامه نيرا واضحا ".

- وقال السمعاني: " كان ثقة صدوقا دينا ".

- وقال ابن الجوزي: " كان ثقة دينا عالما ".

- وقال ابن الأثير: " حافظ من المحدثين ".

- وقال الذهبي: " الإمام المحدث القدوة، شيخ الحرم الشريف، كان صدوقا خيرا عابدا، صاحب سنة واتباع ".

وقال - أيضا -: " الإمام المحدث القدوة، كان عالما صاحب سنة، دينا ثقة ".

وقال - أيضا -: " كان فقيها محدثا أثريا ".

وقال - أيضا -: " له تصانيف حسنة، كان من الأئمة ".

- وقال ابن كثير: " كان ثقة صادقا دينا ".

- وقال ابن السبكي: " الفقيه المحدث ".

وقال ابن مفلح المؤرخ: " كان من الفقهاء الكبار ".

- وقال ابن العماد: " الإمام المحدث الثقة الضابط ".

- وقال ابن خلكان: " كان صالحا عابدا ".

تصانيف الآجري:

- كتاب (أخبار عمر بن عبد العزيز).
- كتاب (أخلاق حملة القرآن).
- كتاب (أخلاق العلماء).
- كتاب (أدب النفوس).
- كتاب (الأربعين في الحديث).
- كتاب (تحريم النرد والشطرنج والملاهي).
- كتاب (التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة).
- كتاب (تغير الأزمنة).

- كتاب (التفرد والعزلة).
- كتاب (التهجد).
- كتاب (التوبة).
- كتاب (الثمانون في الحديث).
- كتاب (ذم اللواط).
- كتاب (الشبهات).
- كتاب (شرح حديث الأربعين).
- كتاب (الشريعة) وهو أجل وأفخم وأنفع كتبه مطلقا.
- كتاب (صفة قبر النبي).
- كتاب (الغرباء).
- كتاب (فرض العلم).
- كتاب (قيام الليل وفضل قيام رمضان).
- كتاب (ما ورد في ليلة النصف من شعبان).
- كتاب (المختصر في الفروع).
- كتاب (مسألة الطائفين).
- كتاب (النصيحة في الفقه).
- كتاب (وصول المشتاقين).

وفاته:

ولم يزل الآجري مجاورا للحرم ملازما لعبادته. متخليا عن الدهر بعزلته. ناهجا منهاج سؤدده وسعادته. قانعا بقناع الزهد والكفاف. ومكتسيا برداء الصون والعفاف.

قال محمود بن عمر العكبري: " لما وصل أبو بكر الآجري إلى مكة استحسنها واستطابها؛ فتحسن في نفسه أن قال: اللهم! أحيني في هذه البلدة ولو سنة، فسمع هاتفا يقول: لم سنة؟! بل ثلاثين سنة، فلما كان في سنة الثلاثين سمع هاتفا يقول: يا أبا بكر! قد وفينا بالوعد، فمات تلك السنة "[1].

وفي مستهل المحرم سنة ستين وثلاثمائة من الهجرة المصطفوية. أتاه وافد المنية. فنادى روحه الزكية. ودفن بالبلد الحرام. في مقبرة المعلى ذات المقام.

ولما دعاك الله لبيت أمره :: **فأصبحت جار الله والجار يكرم**
وعيشك في الدنيا حميدا مسددا :: **فلقيت عمرا بالسعادة يختم**
تبدلت بالدنيا مقاما مقدسا :: **هنيئا لك الحظ الذي لا يصرم**
سقى الله جدثا حله صوب رحمة :: **وأسكنه الفردوس فيمن ينعم**

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 7 / 55.

أعلى الله في مدارج الرضا مرقاه. وجعل دار الخلد مستقره ومأواه [1].

* * *

(1) الكوكب الدري في ترجمة الإمام أبي بكر الآجري ، البداية والنهاية (270/11)، وتاج العروس (2447/1)، وتاريخ الإسلام (2690/1)، وتاريخ بغداد (243/2)، وتذكرة الحفاظ (936/3)، والرسالة المستطرفة (112/1، 102، 51، 43)، وسير أعلام النبلاء (133/16)، وشذرات الذهب (35/3)، وصفة الصفوة (470/2)، وطبقات الحفاظ (379/1)، وطبقات الشافعية (149/3)، والعبر في خبر من غبر (318/2)، والعقد الثمين في أخبار البلد الأمين (3/2)، والفهرست (301/1)، وكشف الظنون (523/1، 52، 37، 28 و1433/2، 1430، 1255، 1037)، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان، ومعجم البلدان (51/1)، والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب أحمد (389/2)، والنجوم الزاهرة (60/4)، وهداية العارفين (470/1)، والوافي بالوفيات (300/1)، ووفيات الأعيان (419/3).

الحافظ ابن كثير

أعلام الحديث

الحافظ ابن كثير

هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي.

ولد بقرية " مِجْدَل " من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل.

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفى أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأسرة بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة 707 هـ، وخلف والده أخوه عبد الوهاب، فقد بذل جهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فقدها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: " وقد كان لنا شقيقا، وبنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة 750 هـ فاشتغلت على يديه في العلم فيسر الله منه ما تيسر وسهل منه ما تعسر " [1]

شيوخه:

تلقي الحافظ ابن كثير العلم علي يد كثير من الشيوخ منهم

شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله والحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله.

و الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله.

(1) البداية والنهاية، 14/ 32.

و الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ " ابن الشحنة "

والشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري، رحمه الله والحافظ كمال الدين عبد الوهاب الشهير بـ " ابن قاضي شهبة " والإمام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الزملكاني، رحمه الله والإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى الشيباني، رحمه الله والإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي، رحمه الله والشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازي، رحمه الله والشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني، رحمه الله وعفيف الدين إسحاق بن يحيى الآمدي الأصبهاني، رحمه الله والشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر، رحمه الله وأبو محمد عيسى بن المطعم، رحمه الله وجمال الدين سليمان بن الخطيب، قاضي القضاة ومحمد بن جعفر اللباد، شيخ القراءات وجمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسي، رحمه الله. وغيرهم الكثير.

من تلاميذه:

الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي، رحمه الله ومحمد بن محمد ابن خضر القرشي، رحمه الله وشرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي، رحمه الله ، ومحمد بن أبي محمد بن الجزري، شيخ علم القراءات، رحمه الله، وابنه محمد بن إسماعيل بن كثير، رحمه الله، والإمام ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله، والحافظ أبو المحاسن الحسَيني، رحمه الله.

ثناء العلماء عليه:

كان ابن كثير، رحمه الله، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومن بعدهم الثناء الجم:

فقد قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: " وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذى الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم "[1].

وقال عنه أيضًا في المعجم المختص: " الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال "[2].

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: " صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل "[3].

وقال العلامة ابن ناصر الدين: " الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين "[4].

وقال ابن تغري بردي: " لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفى "[5].

(1) طبقات الحفاظ للذهبي، 4/ 29، أحمد شاكر، عمدة التفسير، 1/ 25.
(2) المعجم المختص للذهبي.
(3) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص 58، وعمدة التفسير لأحمد شاكر (1/ 26).
(4) الرد الوافر.
(5) النجوم الزاهرة (11/ 123).

وقال ابن حجر العسقلاني: " كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته " [1].

وقال ابن حبيب: " إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير "[2].

وقال العيني: " كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة " [3].

وقال تلميذه ابن حجي: " أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه " [4].

(1) الدرر الكامنة.
(2) شذرات الذهب لابن العماد (6/ 232).
(3) النجوم الزاهرة (11/ 123).
(4) شذرات الذهب لابن العماد (6/ 232).

وقال الداودي: " أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب " [1].

مؤلفاته:

أ - في علوم القرآن:

1- تفسير القرآن العظيم.

2- فضائل القرآن.

ب - في السنة وعلومها:

3- أحاديث الأصول.

4- شرح صحيح البخاري.

5- التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل.

6- اختصار علوم الحديث.

7- جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن.

8- مسند أبي بكر الصديق، ..

9- مسند عمر بن الخطاب، ..

10- الأحكام الصغرى في الحديث.

11- تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية.

12- تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.

13- مختصر كتاب " المدخل إلى كتاب السنن " للبيهقي.

(1) طبقات المفسرين.

14- جزء في حديث الصور.

15- جزء في الرد على حديث السجل.

16- جزء في الأحاديث الواردة في فضل أيام العشرة من ذي الحجة.

17- جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب.

18- جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس.

جـ - في الفقه وأصوله:

19- الأحكام الكبرى.

20- كتاب الصيام.

21- أحكام التنبيه.

22- جزء في الصلاة الوسطى.

23- جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.

24- جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.

25- جزء في الرد على كتاب الجزية.

26- جزء في فضل يوم عرفة.

27- المقدمات في أصول الفقه.

د - في التاريخ والمناقب:

28- البداية والنهاية.

29- جزء مفرد في فتح القسطنطينية.

30- السيرة النبوية.

31- طبقات الشافعية.

32- الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس.

33- مناقب ابن تيمية.

34- مقدمة في الأنساب.

وفاته ورثاؤه:

في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة توفي الحافظ ابن كثير بدمشق، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، رحمه الله.

وقد ذكر ابن ناصر الدين أنه " كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية ".

وقد قيل في رثائه، رحمه الله:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا :: وجادوا بدمع لا يبير غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما :: لكان قليلا فيك يا بن كثير (1)

(1) مقدمة تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

* * *

الحافظ المنذري

أعـلام الحديـث

الحافظ المنذري

هو الإمام الحافظ المحدِّث الناقد الفقيه المؤرخ اللغوي البارع، الضابط الثبت المتقن، الورع الزاهد، شيخ الإسلام، زكن الدين أبومحمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد بن سعيد، المنذري، المصري. وأصله من بلاد الشام، ووالده مصري المولد والدار.

ولد في غرة شعبان من سنة 581 هـ بفسطاط مصر بكوم الجارح، وبها نشأ وترعرع، وكان لوالده عناية بالعلم ومحبة، فأسمعه الحديث بإفادته في أواخر سنة 591 هـ، أي حين بلغ عشر سنوات من العمر، ثم لم يلبث والده أن مات بعد سنة من هذا التاريخ، في رمضان سنة 592 هـ، فنشأ عبد العظيم يتيما، واستمر على حضور مجالس العلماء والأخذ عنهم.

وكان والده حنبلي المذهب، فنشا هوحنبلي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الشافعي، وغدا من فقهائه وعلمائه والمؤلفين في فقهه.

شيوخ الحافظ المنذري:

تلقى الحديث وغيره من شيوخ بلده ومصره بالسماع منهم، وفيهم كثرة بالغة جدا وكان أول سماعه الحديث من أحد شيوخ الحنابلة بمصر، وهو أبو عبد الله محمد بن حمد بن حامد الأنصاري، الأرتاحى الأصل، المصري المولد والدار، المتوفى بمصر سنة 601 هـ، والشيخ الحنبلي الصالح، أبوالثناء محمود بن عبد الله بن مطروح

المصري المقرىء المؤدب، فقرأ عليه المنذري القرآن مدة.

وحضر في هذا المسجد أيضا على الإمام أبي محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المشهور، المتوفى بالمسجد المذكور سنة 600هـ، وأجازه في رجب من سنة هـ 596.

وتلقى في محيط الجامع العتيق مسجد عمرو بن العاص: القر آن الكريم بالقراءات السبع، وتفقه بفقه الإمام الشافعي .. ودرس علم العروض وغيره من العلوم التي كانت تعمر بها حلق هذا الجامع العتيد وهذه الدوحة المباركة في مدينة الفسطاط.

ثم رحل إلى الإسكندرية عدة مرات، وسمع من كبار شيوخها والقادمين عليها، وكتب بها عن جماعة من العلماء ذكرهم وترجم لهم في كتابه " التكملة ".

وجال في بلاد أخرى من القطر المصري، فدخل ثغر دمياط وسمع به، ومدينة المنصورة وسمع بها، وبلبيس وسمع بها، وكتب عن شيوخها، وبلدة سمنود، ورحل إلى الصعيد المصري، فدخل مدينة قنا وسمع بها وكتب، ومدينة قوص، ودهروط، وغيرها.

وسافر إلى مدينة غزة وبلاد الشام وقراها، وبيت المقدس مرات متعددة. وهذا يدل على كثرة ترحاله إلى بلدان العلم والعلماء، والاهتمام بتلقي الحديث عنهم.

ولاتساع رحلاته وكثرة تطوافه في البلاد كثرت شيوخه كثرة وافرة، ومن أبرز شيوخه في بلده مصر الذين تاثر بهم وانتفع بصحبتهم: الإمام الحافظ المحدث المتقن الضابط، الجامع لفنون من العلم، أبو الحسن علي ابن المفضل المقدسي الإسكندري، المولود سنة

544 هـ، والمتوفى سنة 611 هـ، فقد لازمه المنذري ملازمة تامة، وقرأ عليه، وكتب عنه، وقال: انتفعت به انتفاعا كبيرا.

وكان هذا الشيخ حاذقا لجملة من العلوم، فاقتبسها المنذري منه معرفة وحذاقة وضبطا ودقة؛ فهو من حسنات الإمام الجليل ومن الباقيات الصالحات من آثاره الطيبة.

وشيوخة المصريون فيهم كثرة بالغة، ليسر لقائهم وقرب انتقاله إليهم، ففي تعدادهم طول طويل، وكان ينتقي الشيوخ الماهرين ويتقصدهم ليكسب المهارة منهم، كما يمر بالشيوخ العلماء فيستفيد منهم ويكتب عنهم، فما قصر في جنب الرحلة والاستفادة من شيخ وعالم، وذلك مما يدل على شدة نهمه العلمي واتساع أفقه الذهني، وقوة تمكنه من فرز ما يتلقاه، فيخرج منه ما يرتضيه، ويدع منه ما لا يرتضيه، شأن العالم القدير الناقد الناخب لما يحصله ويسمعه.

وإلى جانب الكثرة البالغة التي لقيها من شيوخ العلم، استجاز ممن لم يتمكن من لقائهم بالمراسلة والمكاتبة، فكانوا في عداد شيوخه ومفيديه، فاستجاز من البغداديين - إذ لم يرحل إلى بغداد -، ومن الدمشقيين زيادة على من لقيهم فيها، ومن علماء البلدان الذين لم يقدر له لقاؤهم ومشافهتهم. وسمع الحديث وكتبة من النساء المحدثات العالمات.

ومن أبرز شيوخه الذين لقيهم وتلقى عنهم في دمشق: المحدث المسند أبوحفص عمر بن محمد بن معمر البغدادي الدارقزي المؤدب، المعروف بابن طبرزذ - وطبرزد -، المولود سنة 516 هـ، والمتوفى سنة 607 هـ، فقد كان هذا الشيخ من المكثرين في التلقي عن الشيوخ،

وتفرد بالرواية عن غير واحد منهم.

قال المنذري: لقيته بدمشق، وسمعت منه كثيرا من الكتب الكبار والأجزاء والفوائد.

ومن أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم في دمشق أيضا: تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندئ، البغدادئ المولد والمنشأ، الدمشقي الدار والقرار الإمام النحوئ العالم الأديب، المولود سنة 520 هـ، والمتوفى سنة 613 هـ، وقد عمر هذا الشيخ طويلا، فانفرد باشياء من القراءات والمسموعات، وتميز بمزايا من العلوم، قال المنذري: وكان أحد البارعين في علم الأدب، وانتهى التقدم فيه إليه.

ومن شيوخه البارزين الذين لقيهم بدمشق أيضا: الحافظ المحدث أبو الحسن علي بن المبارك الواسطي البرجوني، المقرىء الفقيه الشافعي، المعروف بابن باسوية، المولود سنة 556 هـ، والمتوفى سنة 632 هـ، فقد كان من كبار المحدثين وكبارالقراء، وممن شدت إليه الرحال، فتلقى عنه الحديث وغيره مما تميز به من العلوم.

ومن شيوخه البارزين الذين تخرج بهم في دمشق أيضا: الإمام الفقيه البارع الواسع الموفق ابن قدامة الحنبلي، أبومحمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي، المولود سنة 541 هـ، والمتوفى سنة 620 هـ، وقد كان هذا الشيخ خزانة الفقه الإسلامي بمذاهبه واختلافات المجتهدين فيه.

ومن شيوخه البارزين الذين لقيهم في بلاد الشام أيضا: الإمام العالم العلامة الأديب المؤرخ الرحالة النسابة البلداني، أبوعبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، المتفنن المتقن الثقة الضابط

الأمين، المولود سنة 574 هـ، والمتوفى سنة 626 هـ. وهناك شيوخ كبار اخرون كثيرون، لقيهم المنذري في بلاد الشام، لا أطيل بذكرهم روما للاختصار.

ورحل المنذري إلى الحرمين الشريفين، بغية الحج إلى بيت الله تعالى وزيارة منازل الوحي الشريف، وبنية لقاء علماء الحرمين والعلماء الواردين عليهما من بقاع الإسلام، وكان ذلك منه في سنة 656 هـ ، وسمع في هذه الرحلة من علماء الحجاز ، ومن علماء كثيرين من أقطار العالم الإسلامي الذين حجوا في هذا العام، فكان له من ذلك مزيد كثرة في الشيوخ، ومزيد وفرة في العلم وتلقيه عن رجاله، من مختلف الأصقاع، وسمع وكتب وأوعب عن الشيوخ في ذهابه وإيابه وقراره في الحرمين.

وعاد إلى بلده مصر في سنة 657 هـ ، وأمضى معظم حياته في فسطاط مصر والقاهرة، وهناك تولى الإمامة بالمدرسة الصالحية، والتدريس بالجامع الظافري، ثم ولي مشيخة دار الحديث الكاملية، التي انقطع بها قرابة عشرين عاما إلى آخر حياته، ومات فيها.

ولم يقتصر المنذري على السماع من شيوخ الحديث، بل كتب الكثير عن العلماء، وعلق عنهم الفوائد، سواء أكانوا محدثين أم أدباء أم شعراء أم صوفية أم غيرهم من أهل عصره، وقد ذكر من ذلك جملة صالحة في كتابه " التكملة "، وأغلبهم كتب عنهم بمصر والقاهرة والمنصورة، أو البلدان القريبة من هذه المدن الكبرى، أو استجاز منهم.

ولم يقتصر المنذري في تحصيله على السماع واللقاء، بل كاتب العلماء واستجاز منهم من البلدان المختلفة، فكان له شيوخ إجازة كثيرون، كما له شيوخ سماع كثيرون، وكان هناك ناس يقومون بحمل الإجازات من بلد إلى آخر، قال في " التكملة " ص 322 هـ ، في ترجمة أبي الحسن علي بن النفيس البغدادي الإجازاتي، المعروف بابن النفيس، المتوفى بالقاهرة سنة 640 هـ: " وسعى في حمل الإجازات للناس من بغداد إلى الإسكندرية سنين. وقال جمال الدين أبوحامد بن الصابوني فيه أيضا: كان يسافر من بغداد إلى الإسكندرية، مترددا في أخذ خطوط الشيوخ للناس في الإجازات المسيرة على يده، ليس له " حاجة ولا بضاعة إلا ذلك، وما له قصد سوى الإفادة، وبقي على هذا الأمر سنين، فجزاه الله خيرا ".

وكان الزملاء في الطلب والرفاق في الرحلة، يتفقون على أن ياخذ كل واحد منهم الإجازات من شيوخ بلده، ويبعث بها إلى صاحبه وزميله في البلد الاخر، استكثارا من الشيوخ ومن ربط الصلة بينهم وتوسيع المعرفة بهم. وقد كان المستجيز يستجيز الشيخ عدة مرات، ليكون له الحق في رواية أكبر عدد ممكن من روايات الشيخ المجيز، وهكذا كان يفعل المنذري رحمه الله تعالى.

ولم يكتب للمنذري الرحلة إلى بغداد كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فاستجاز من كثير من شيوخها ومحدثيها الكبار والمغمورين، ابتداء من سنة 593، وما زال يستجيز إلى اخر حياته، حتى بلغ عدد شيوخه البغداديين بالإجازة أزيد من 335 شيخ وشيخة، وأكثرهم مذكورون في كتابه " التكملة "، وبلغ عدد شيوخه الدمشقيين الذين استجاز منهم - غير الذين لقيهم وتلقى عنهم - أزيد من 135 شيخ وشيخة، وبينهم

علماء أعلام ومحدثون وفقهاء وشعراء. واستجاز من شيوخ بلدان أخرى، كانوا في مصر أو الإسكندرية أو ما يتصل بهما أو يبعد عنهما، من علماء حران، والرها، وحلب، والموصل، واربل، وخرسان، وهمذان، وأصبهان، ومن علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة، والقادمين عليهما والمجاورين بهما، وغيرها، حتى استجاز من بعض علماء الأندلس، فاستجاز من حافظ بلنسية محدث الأندلس وبليغها أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي البلنسي الخطيب، المولود سنة565 هـ، والمتوفى شهيدا سنة 634 هـ، فبلغوا أزيد من 92 شيخا، فكان عدد شيوخه بالإجازة قرابة 600 شيخ.

توليه مشيخة دار الحديث الكاملية:

حكم الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب: البلاد المصرية قرابة أربعين عاما، كان في النصف الأول منها نائبا عن والده، ثم استقل بها بعد وفاة والده سنة615 هـ حتى وفاته سنة635 هـ.

وكان الملك الكامل ممن عني بالعلم أتم عناية، فقد طلبه لنفسه، وسمع الحديث ورواه، وكان يحب العلماء ويحضرهم مجلسه في كل أسبوع، ويلقي عليهم المشكلات من المسائل، ويتكلم معهم، وتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح ولفظ فصيح، وكان معظما للسنة النبوية وأهلها، راغبا في نشرها والتمسك بها.

ونتيجة لهذا الاهتمام بالعلم وحمت السنة النبوية، أسس " دار الحديث الكاملية " في خط (بين القصرين) من القاهرة سنة 621 هـ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي الشريف، ثم من بعدهم على فقهاء الشافعية، وجعل فيها منازل يسكن فيها الطلبة والمدرسون، وجعل فيها خزانة كتب.

وكان أول من أسس دارا للحديث هو الملك نور الدين الشهيد، المتوفى سنة 569 هـ رحمه الله تعالى، أسسها بدمشق، ثم تلاها تاسيس دور للحديث في بلدان أخرى، فدار الحديث الكاملية ليست هي ثاني دار للحديث اسست كما وهم بعض العلماء في ذلك.

وتولى المنذري مشيخة دار الحديث الكاملية، بعد وفاة شيخها الأول: أبي الخطاب عمر بن الحسن المعروف بابن دحية الكلبي الأندلسي ثم القاهري، المتوفى سنة 634 هـ، وبعد أخيه أبي عمرو عثمان بن الحسن شيخها الثاني، فكان المنذري شيخها الثالث، وكان قد بلغ بين علماء عصره وزاد على الخمسين نحو

ثلاث سنين، فولاه الملك الكامل شياخة هذه الدار الحديثية.

فانقطع بها وسكنها إلى آخر يوم من حياته، نحو العشرين سنة) عاكفا على التصنيف والتحديث والإفادة والتخريج، فما كان يخرج منها إلا لصلاة الجمعة، حتى إنه لما مات أكبر أولاده الحافظ رشيد الدين محمد سنة 643 هـ، صلى عليه فيها، وشيعه إلى باب المدرسة، وقال له: أودعتك يا ولدي الله تعالى، وفارقة.

تلاميذ الحافظ المنذري:

للحافظ المنذري تلاميذ تخرجوا به لا يحصون كثرة، لما كان عليه من الصلاح والورع والفقه في الدين والإمامة في الحديث والإتقان فيه تحديثا وتخريجا، وتعديلا وتجريحا، وضبطا وإتقانا، وفهما وشرحا، ورجالا وشيوخا، وتاريخا وحفظا، فقد غدا في مصره وعصره قبلة أنظار طلاب الحديث وأهله، حتى أخ ذ عنه بعض شيوخه الكبار وأقرانه المشهورين، كما أخذ عنه كل من استطاع

الوصول إليه من طلبة الحديث ورواته، ويحسن أن أذكر بعض من أخذ عنه من أولئك، ليظهر للقارىء علو مرتبته في الحديث وعلومه.

فلخذ عنه من شيوخه: الإمام الفقيه أبو البركات عبد الرحمن بن الحسن الأنصاري الخزرجي الدمياطي، المعروف بابن القص دار، المتوفى سنة 613 هـ. وأخذ عنه من شيوخه: الإمام أبو الغنائم مسافر بن يعمر بن مسافر الجيزي الحنبلي المؤدب الصوفي، المتوفى بمصر سنة 620 هـ. وأخذ عنه من شيوخه: زكي الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب، المعروف بابن وهيب القوصي، المتوفى بحماة سنة 631 هـ وغيرهم.

وروى عنه من أقرانه: الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغني البغدادي الحنبلي، المعروف بابن نقطة الحنبلي، المتوفى 629 هـ، صاحب " إكمال الإكمال ". وذكر أخذه عن المنذري فيه في ترجمة أبي محمد عبد الله بن محمد بن المجتي، المتوفى سنة 613 هـ. كما سمع منه رفيقه: الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الأندلسي، العالم المشهور، المتوفى سنة 636 هـ. وسمع منه أيضا وحضر مجالسه الحديثية الإمام عز الدين بن عبد السلام المجتهد الفقيه.

وتخرج به من أعلام المحدثين تلميذه: الشريف عز الدين أحمد بن محمد الحسيني، المتوفى سنة695 هـ، وهو الذي ذيل على كتاب شيخه بكتابه " صلة التكملة لوفيات النقلة "، وقال فيه: قرأت عليه قطعة حسنة من حديثه، وكتبت عنه جملة صالحة، وانتفعت به انتفاعا كبيرا.

وممن نجب ولمع من تلامذته الذين لازموه: الإمام العالم العظيم الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، المولود

سنة 613 هـ، والمتوفى سنة 705 هـ، فقد لازمه مدة طويلة، وعينه المنذري بعد وفاة ولده رشيد الدين محمد سنة 643 معيدا له في دار الحديث، قال الدمياطي: هوشيخي ومخرجي، أتيته مبتدئا، وفارقته معيدا له في الحديث.

ومن العلماء الأعلام الذين تخرجوا به، وتمثلوا سيرته وورعه وفضائله: الإمام ابن دقيق العيد، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري، المولود سنة625 هـ، والمتوفى سنة 702. كما سمع من المنذري أيضا أخوه تاج الدين أحمد بن علي بن وهب القشيري القوصي، المتوفى سنة 723 هـ، مدرس المدرسة النجيبية بقوص.

ومن العلماء الذين تلقوا عنه واقتبسوا منه: الإمام المؤرخ المحقق الأديب النسابة قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان، التراجمي المشهور، صاحب وفيات الأعيان، المتوفى سنة 681 هـ. ومن المحدثين المشهورين الذين أخذوا عنه ولازموه وتخرجوا به: الإمام الحافظ الفقيه المحدث المتقن الضابط الدقيق شرف الدين أبو الحسين علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني، المتوفى سنة 701 هـ، صاحب النسخة المضبوطة المتقنة من " صحيح البخاري "، المعروفة بالنسخة اليونينية.

وأخذ عنه غيرهم كثير - وكثير ممن سمعوا منه أو أجازهم من رجال ونساء.

مكانة الحافظ المنذري في العلم:

احتل الحافظ المنذري في النصف الأول من القرن السابع الهجري: مكانة عظيمة مرموقة، وعده العلماء حافظ عصره دون منازع، قال الحافظ عز الدين الحسين تلميذه: كان عديم النظير في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه، عالما بصحيحه وسقيمه ومعلوله، متبحرا في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله، قيما بمعرفة غريبه وإعرابه واختلاف ألفاظه، ماهرا في معرفة رواته وجرحهم وتعديلهم، ووفياتهم ومواليدهم وأخبارهم، إماما حجة، ثبتا ورعا، متحريا فيما يقوله وينقله، متثبتا فيما يرويه ويتحمله. انتهى.

وكان مجلسه في الحديث مضرب الأمثال، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: قيل لي: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عزالدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقد أطلق عليه (الحافظ) قبل وفاته بأكثر من ثلاثين عاما. ومرتبة (الحافظ) هذه قال فيها الخطيب البغدادي في " الجامع لأخلاق الراوي واداب السامع " 2: 172 هي أعلى صفات المحدثين، وأسمى درجات الناقلين، من وجدت فيه قبلت أقاويله، وسلم له تصحيح الحديث وتعليله، غير أن المستحقين لها يقل معدودهم، ويعز بل يتعذر وجودهم.

وقد وصفه بالحفظ تلميذه القاضي ابن خلكان، فقال فيه: حافظ مصر، وقال فيه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي: لم يكن في زمانه أحفظ منه، وقال ابن دقماق: حافظ الوقت.

وكان المنذري مفيدا، والمفيد هو الذي يفيد الناس الحديث عن المشايخ، فيكون عارفا بهم وبعلو إسنادهم، حتى إذا جاء الطالب دله على شيوخ ذلك البلد من ذوي الإسناد العالي وما إليهم.

أما كلامه على رجال سنن أبي داود، فكيفيه أنه نال إعجاب الناقد الحافظ الذهبي، وذكره في ترجمته له في " سير أعلام النبلاءا، ويكفي لبيان سمو إمامته في الحديث أن الإمام عز الدين بن عبد السلام الفقيه المجتهد، كان يحضر مجالسه ويسمع الحديث منه.

أما في الفقه فقد شرح المنذري كتاب " التنبيه " لأبي إسحاق الشيرازي في إحدى عشرة مجلدة، وذلك مما يدل على فقاهته الواسعة، وقد وصفه غير واحد ممن ترجموا له بالفقيه. وكان يفتي الناس في الديار المصرية، فلما قدم الإمام عز الدين بن عبد السلام مصر، بالغ الشيخ المنذري في الأدب معه، وامتنع عن الإفتاء لأجله، وقال: كنا نفتي قبل حضوره، وأما بعده فمنصب الفتيا متعين فيه.

وبراعته في علم الرجال تبدو في كتابه " التكملة لوفيات النقلة " و" المعجم المترجم " و" تاريخ من دخل مصر " وغيرها من تواليفه. وكتبه هذه تعد في كثير مما حوته المصادر الأولى، تفردت بكثير من تراجم الرجال وأحوالهم.

ولقي الأدباء والشعراء وأخذ عنهم أو استجاز منهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولهذا تبدو مسحة الأدب وطلاوته في عبارته وكلامه، ولم يحفظ له من النظم سوى هذين البيتين اللطيفين الحكيمين:

اعمل لنفسك صالحا لا تحتفل بظهور قيل في الأنام وقال
فالخلق لايرجى اجتماع قلوبهم لابد من مثن عليك وقالي

وأما زهده وورعه وتدينه:

فقد كان مشهورا مذكورا، قال التاج السبكي: سمعت أبي يحكي عن الحافظ الدمياطي - تلميذ المنذري -، أن الشيخ خرج مرة من الحمام، وقد أخذ منه حرها، فما أمكنه المشي، فاستلقى على الطريق إلى جانب حانوت، فقال له الدمياطي: يا سيدي أنا أقعدك على مسطبة الحانوت، وكان مغلقا، فقال له، وهو في تلك الشدة: بغير إذن صاحبه كيف يكون؟! وما رضي.

ويكفي شهادة على ورعه وشدة تقواه قول تلميذه الإمام ابن دقيق العيد، الذي كان يضرب به المثل في الزهد والتحري والخوف من الله تعالى، إذ قال فيه: كان أدين مني، وأنا أعلم منه. وقول الحافظ الذهبي فيه: كان الإمام الثبت، وكان شيخ الإسلام متين الديانة، ذا نسك وتوزع وسمت وجلالة.

وقال تاج الدين السبكي فيه في " طبقات الشافعية الكبرى ": الحافظ الكبير، الورع الزاهد، زكي الدين أبو محمد المصري، ولي الله، والمحدث عن رسول الله ﷺ، والفقيه على مذهب ابن عم رسول الله ﷺ، ترتجى الرحمة بذكره، ويستنزل رضا الرحمن بدعائه.

كان رحمه الله تعالى قد أؤتي بالمكيال الأوفى من الورع والتقوى، والنصيب الوافر من الفقه، وأما الحديث فلا مراء في أنه كان أحفظ أهل زمانه، وفارس أقرانه، له القدم الراسخ في معرفة صحيح الحديث من سقيمه، وحفظ أسماء الرجال حفظ مفرط الذكاء عظيمه،

والخبرة باحكامه، والدراية بغريبه وإعرابه واختلاف كلامه.

وفاته:

توفي الإمام المنذري رحمه الله تعالى في داخل دار الحديث الكاملية بالقاهرة، يوم السبت رابع ذي القعدة من سنة 656، وصلي عليه يوم الأحد بعد الظهر في موضع تدريسه بدار الحديث الكاملية، ثم صلي عليه مرة أخرى تحت القلعة، ودفن بسفح جبل المقطم، وقد رثاه غيرواحد من الشعراء بقصائد حسنة، رحمات الله تعالى عليه ورضوانه العظيم.

مؤلفاته وآثارة العلمية:

أولا - في الحديث وعلومه:

قام المنذري باختصار مجموعة من كتب الحديث الأصول، مثل صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الخطيب البغدادي. وكان عمله في مثل هذه الكتب يقوم على حذف الأسانيد والأحاديث المكررة، والتعليق على بعض الأحاديث تعليقات مفيدة مهمة، تدل على غزارة علمه في هذا الفن وتبحره فيه، وعلى شفوف ذوقه العلمي. وجمع (أربعينيات) في الحديث، وكان هذا النمط في التأليف قد شاع قبله فتابع فيه، فمن تاليفه:

1 - أربعون حديثًا في الأحكام، وتسمى أيضا: (الأربعون الأحكامية).

2- أربعون حديثًا في اصطناع المعروف بين المسلمين وقضاء حوائجهم.

3- أربعون حديثاًفي فضل العلم والقران والذكر والكلام والسلام والمصافحة.

4- أربعون حديثًا في قضاء الحوائج. وربما كان هذا هو الكتاب الثاني المذكور هنا، اختصر اسمه، فيكون الاسمان لمسمى واحد.

5- أربعون حديثًا في هداية الإنسان لفضل طاعة الإمام والندى والإحسان.

6- الأمالي في الحديث.

7- الترغيب والترهيب. الكتاب الفذ في موضوعه.

8- جزء المنذري. جمع فيه ما ورد فيمن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كما في " كشف الظنون ".

9- جزء فيه حديث الطهور شطر الإيمان.

10- الجمع بين الصحيحين.

11- زوال الظما في ذكر من استغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم من الشدة والعمى.

12- صحيح المنذري.

13- عمل اليوم والليلة.

14- كفاية المتعبد وتحفة المتزهد.

15- مجالس في صوم يوم عاشوراء.

16- مختصر سنن أبي داود.

17- مختصر سنن الخطيب البغدادي.

18 - مختصرصحيح مسلم.

19- الموافقات. وهو قسم من أقسام الإسناد العالي في الحديث.

20- تخريج بعض أحاديث " المهذب " لأبي إسحاق الشيرازي، الى قبيل البيوع.

21- تخريج فوائد شيخه صدر الدين أبي الحسن محمد بن عمر بن حمويه الحقوئي الجويني، المتوفى بالموصل سنة 617.

22- جزء خرج فيه عن جماعة من شيوخ شيخته أم محمد خديجة بنت الفضل المقدسية الإسكندرية، المتوفاة سنة 618.

23- جزء خرج فيه حديث قاضي القضاة تاج الدين أبي محمد عبد السلام بن علي الكتاني الدمياطي، المتوفى سنة 619.

ثانيا - في الفقه:

24- الخلافيات ومذاهب السلف.

25- شرح التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي.

ثالثا - في التاريخ:

تدورالكتب التي ألفها المنذري في التاريخ حول علم الرجال، وهو علم مساعد لعلوم الحديث، وكتب المنذري في هذا الموضوع بين كتاب يضم ترجمة لشخص واحد، وكتاب يشتمل على آلاف التراجم، وإليك أسماءها:

26- الإعلام بأخبار شيخ البخاري محمد بن سلام.

27- تاريخ من دخل مصر.

28- ترجمة أبي بكر الطرطوشي.

29- التكملة لوفيات النقلة. وكتاب (وفيات النقلة) هو لشيخه الحافظ أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي الإسكندراني المالكي، المتقدم ذكره في شيوخه البارزين، وكان قد انته ى فيه إلى سنة 581 هـ، فذيل الحافظ المنذري على

كتاب شيخه المذكور، من حيث انتهى فيه من سنة 581 هـ إلى سنة 642 هـ.

30- المعجم المترجم، بكسر الجيم. ذكر فيه شيوخه وأوسع في تراجمهم.

هذه جل آثاره التي عرفت وذكرت عند من ترجم له أو تعرض لتأليفه، ولم تذكر فيها رسالته أو فتواه في مسائل الجرح والتعديل تحديدا فتكون الأثر 31 من آثاره، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأغدق
عليه دائم رضوانه وإحسانه، وجزاه عن السنة وعلومها وأهلها خير الجزاء[1].

* * *

(1) مقدمة كتاب جواب الحافظ ابى محمدعبد العظيم المنذري المصري عن أسئلة في الجرح والتعديل للحافظ أبى محمد عبد العظيم المنذري المصري، من تحقيق عبد الفتاح ابو غدة، نشر مكتب المطبوعات الاسلامية بحلب.

الألبانـي

أعـلام الحديـث

المحدث محمد ناصر الدين الألباني

إنه الساعي الحثيث في إعلاء شأن الحديث ، العالم الرباني، والعلامة الجهبذ، والمحدث الكبير، ناصر السنة، وقامع البدعة الشيخ الفاضل: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

العلامة الشيخ ناصر الألباني أحد أبرز العلماء المسلمين في العصر الحديث، ويعتبر الشيخ الألباني من علماء الحديث البارزين المتفردين في علم الجرح والتعديل، والشيخ الألباني حجة في مصطلح الحديث وقال عنه العلماء المحدثون: إنه أعاد عصر ابن حجر العسقلاني والحافظ ابن كثير وغيرهم من علماء الجرح والتعديل.

ولد شيخ الإسلام الألباني في مدينة أشقدورة، عاصمة ألبانيا، عام 1914، في أسرة فقيرة متدينة، فقد تخرج أبوه نوح نجاتي من المعاهد الشرعية في إستنبول، وبعد أن تولى الملك أحمد زوغو الحكم هاجر أبوه إلى دمشق، بدأ شيخ الإسلام المهاجر دراسته في مدرسة الإسعاف الخيرية الابتدائية بدمشق، استمر على ذلك حتى أشرف على نهاية المرحلة الابتدائية، وفي هذه الأثناء هبت أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين الغزاة، وأصاب المدرسة حريق أتى عليها، ونظرا لسوء رأي والده في الدراسة النظامية أخرجه من المدرسة ووضع له برنامجا علميا مركزا ، فقام بتعليمه القرآن والتجويد والصرف والفقه الحنفي، كما أنه تلقى بعض العلوم الدينية والعربية على بعض الشيوخ من أصدقاء والده مثل الشيخ سعيد البرهاني إذ قرأ

عليه كتاب (مراقي الفلاح) وبعض الكتب الحديثة في علوم البلاغة.

تعلمه الحديث:

أخذ الشيخ إجازة في الحديث من الشيخ راغب الطباخ، علامة حلب في زمانه، وذلك إثر مقابلة له بواسطة الأستاذ محمد المبارك الذي ذكر للشيخ الطباخ ما يعرفه من إقبال الفتى على علوم الحديث وتفوقه فيها، فلما استوثق من ذلك خصه بإجازته.

وكان قد توجه للحديث وهو في العشرين من عمره متأثرا بالأبحاث التي كان يكتبها محمد رشيد رضا في مجلة المنار. يقول شيخ الإسلام الألباني: (أول ما ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربية كالظاهر وعنترة والملك سيف وما إليها. ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها، وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءا من مجلة المنار فاطلعت عليه ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد رضا يصف فيه كتاب الإحياء للغزالي، ويشير إلى محاسنة ومآخذه.. ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله ثم أمضي لأتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على الإحياء ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه. ومن ثم أقبلت على قراءة الكتب، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه) أخذ الشيخ عن والده صناعة إصلاح الساعات حتى صار من أهل الشهرة فيها، وأخذ يكسب رزقه منها، ثم ترك يومين فقط لهذا العمل أما باقي الأيام فكان في المكتبة الظاهرية يدرس وينهمك في المطالعة طوال اليوم، لقد كان لحديث رسول الله ﷺ الأثر الكبير في توجيه الألباني علما وعملا، فتوجه نحو المنهج الصحيح، وهو التلقي عن الله ورسوله

فقط، مستعينا بفهم الأئمة الأعلام من السلف الصالح دون تعصب لأحد منهم أو عليه. وإنما كان رائده الحق حيث كان، ولذلك بدأ يخالف مذهبه الحنفي الذي نشأ عليه، وكان والده رحمه الله يعارضه في مسائل كثيرة في المذهب، فبين له الشيخ أنه لا يجوز لمسلم أن يترك العمل بحديث رسول الله ﷺ بعد ما ثبت عنه وعمل به بعض الأئمة لقول أحد من الناس، كائنا من كان، ويذكر له أن هذا هو منهج أبي حنيفة وغيره من الأئمة الكرام رحمهم الله.

علو الهمة:

كما هو حال كل علماء الأمة العظام، كان الصبر على العلم والهمة والنهمة في طلبه، والمحافظة على الوقت لأقصى درجة، وإمضاؤه في القراءة والبحث والتنقيب، أو في التأليف والتقييد.

كذلك كان شيخنا - رحمه الله - يكتفي بعمل ساعة في اليوم أو ساعتين فيحصل قوته وأولاده ثم ينطلق إلى المكتبة الظاهرية لينكب على الكتب والمخطوطات دراسة وبحثاً وتنقيباً، فربما قضى فيها خمس عشرة ساعة كل يوم، وربما بقي بعد انتهاء الدوام فيطلب منه الموظفون أن يغلق الأبواب خلفه، ومن جميل ما يذكر أنه كان أحياناً يصعد على السلم ليلتقط كتاباً من على الرف فيبقى على السلم ساعة يقرأ وقد نسي نفسه من شغفه بالقراءة.

مدرسة جديدة:

استطاع الشيخ بتوفيق الله له أن يؤسس مدرسة جديدة في علم الحديث، كان أهم معالمها تنقية السنة الشريفة مما يعرف عن العلماء بالحديث المردود (الموضوع والضعيف بأقسامه)، وألف رحمه الله كتبا خصصها للأحاديث الصحيحة وأخرى للضعيفة، وعمل على

عزل الصحيح عن الضعيف في كتب السنة - كما فعل في الكتب الستة وغيرها، وخرج أحاديث بعض الكتب، ونقد نصوصا حديثة في الثقافة الإسلامية، ودافع عن الحديث النبوي والسيرة بالرد على من تجرؤا عليهما .. إلى غير ذلك من جهوده المميزة التي جعلته بحق مدرسة في علم الحديث تذكر بجهود الأولين في حفظ سنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ومما لا ينبغي إغفاله أنه قد تخرج على يدي الشيخ رحمه الله أعداد غفيرة من طلبة العلم الذين اشتغلوا بهذا العلم الشريف على منهجه في كل البلاد، فكانوا بإذن الله صدقة جارية تبقى في صحائف الشيخ مع مؤلفاته إلى يوم الدين.

مؤلفاته:

وقد بارك الله في حياة الشيخ ووقته وعلمه فألف التآليف الماتعة، وألقى المحاضرات والدروس النافعة، وانتشرت كتبه في كل مكان حتى انتفع بها القاصي والداني، وصارت دواوين للسنة يرجع إليها المبتدؤون والمتخصصون ، ويعزو إليها الكاتبون والمؤلفون والمحققون، وجمع الله كلمة الناس على فضله في هذا العلم، واقر له الكثير بطول الباع فيه، فأقر الله عينه بهذه المؤلفات، كما نفع بها جموع المسلمين.

ومن مؤلفاته النافعة الماتعة: -

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها.

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة.

تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد.

حجة النبي كما رواها جابر.

جلباب المرأة المسلمة وحجابها.

نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق.

منزلة السنة في الإسلام.

وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة.

فهرس المخطوطات بعلم الحديث بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

صحيح الجامع الصغير وزياداته بترتيب الشيخ زهير الشاويش.

ضعيف الجامع الصغير وزياداته.

مشكاة المصابيح، بمساعدة الشيخ محمد الصباغ والشيخ عبد القادر أرناؤوط.

شرح العقيدة الطحاوية " تخريج أحاديثها ".

مختصر صحيح مسلم للمنذري.

صحيح ابن خزيمة " بالاشتراك مع الأعظمي ".

مختصر صحيح البخاري.

الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب.

الروض النضير في ترتيب معجم الطبراني الصغير.

آداب الزفاف في السنة المطهرة.

الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة الجامعة السورية.

أحاديث الإسراء والمعراج.

تخريج أحاديث " مشكلة الفقر " للقرضاوي.

أحكام الجنائز.

إرواء الغليل في تخريج أحاديث " منار السبيل ".

تحريم آلات الطرب.

خطبة الحاجة.

قيام رمضان.

صحيح سنن ابن ماجه، بترتيب الشيخ زهير الشاويش وطبع مكتب التربية لدول الخليج.

صحيح سنن أبي داود.

صحيح سنن الترمذي.

صحيح سنن النسائي.

صحيح الكلم الطيب.

صلاة التراويح.

صلاة العيدين في المصلى خارج البلد هي السنة.

ضعيف الأدب المفرد.

ضعيف الترغيب والترهيب.

ضعيف سنن ابن ماجه.. بترتيب الشيخ زهير الشاويش.

مساجلة علمية.. مع أخيه الشيخ زهير الشاويش.

تحقيق معنى السنة مع مجموعة.

كلمة الإخلاص، مع الشيخ زهير الشاويش.

إزالة الدهش عن ماء زمزم، مع الشيخ زهير الشاويش.

وهو - رحمه الله - من المكثرين تأليفاً وتحقيقاً رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

درّس الشيخ في الجامعة الإسلامية لمدة ثلاث سنوات بداية من 1383هـ، وبترشيح من الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة، ثم عاد إلى سوريا ومنها إلى الأردن.

وفي سنة 1419هـ حصل على جائزة الملك فيصل العالمية، فرع الدراسات الإسلامية، نظير جهده واجتهاده وتفانيه في خدمة الإسلام، والعناية بسنة رسول الله ﷺ.

رحلاته:

هاجر شيخ الإسلام حفظه الله من دمشق إلى عمان في رمضان عام 1400هـ، ثم اضطر للخروج منها عائدا إلى دمشق ومن هناك إلى بيروت، ثم هاجر إلى الإمارات حيث استقبله محبيه من أهل السنة والجماعة وحل ضيفا على جمعية دار البر، فكانت أيامهم معه أيام علم ونصح وإرشاد وإنهاك في العلم، وإبان إقامة الشيخ في الإمارات تمكن من السفر إلى الدول الخليجية المجاورة والتقى في قطر الشيخ محمد الغزالي والشيخ يوسف القرضاوي، ثم عاد إلى دمشق، وكانت آخر زيارة له لدولة الإمارات في عام 1989، وحين نزل ضيفا على جمعية دار البر ألقى الدروس في مزرعة رئيس الجمعية، وسمي المسجد التابع للمزرعة مسجد الإمام الألباني، تخليدا لذكرى زيارته، وفي رمضان عام 1419هـ فرح المسلمون بإعطاء شيخ الإسلام

جائزة الملك فيصل وهذا تقدير وعرفان من المملكة العربية السعودية لما قام به الشيخ من خدمة للإسلام والمسلمين.

مناقبه وفضائله:

كان الشيخ رحمه الله متبعا لمنهج السلف متخلقاً بأخلاقهم وجعل نصب عينيه قول الله ورسوله في كل شيئ، فكان لا يستحي من الحق، يعلنها في كتبه ومحاضراته، وهذه خصلة حميدة طيبة، كقول أبي حنيفة رحمه الله: (نحن قوم نقول القول اليوم ونرجع فيه غدا، ونقوله غدا ونرجع فيه بعد غد كلنا خطاء إلا صاحب هذا القبر). وهذا مما جعل لشيخ الإسلام الألباني محبين في كل مكان من عالمنا الإسلامي الكبير، وحسده كثير من جانب آخر.

ثناء العلماء عليه:

يقول الشيخ محمد المجذوب مادحاً إياه:

قالوا ألا كلمة في الشيخ تنصفه ::: فقد طغى الجور حتى في الموازين
شُنت عليه حروب لا يسوغها ::: عقل يرى الحق في ظل البراهين
فقلت : فوق ثنائي ما يبلغه ::: محمد الشام عن خير النبيين
ورده الجيل للوحي الجليل يد ::: ما إن يكابر فيها غير مفتون
وحسبه أنه هز العقول وقد ::: باتت من الحَجر والتقليد في هون
فأصبح ذات وعي ليس يعجزه ::: التمييز ما بين مفروض ومسنون
والدين سر من الرحمن بيَّنه ::: رسوله وسواه محض تخمين
والجامدون حيارى ليس في يدهم ::: إلا رواية مجروح لموهون
فما عسى أن يقول الشعر في رجل ::: يدعوه حتى عداه ناصر الدين
وأي ضير إذا فرد تجاهله ::: وقد فشى فضله بين الملايين؟

::
:
::
:

ويقول عنه الشيخ محمد صالح المنجد : " إذا أردنا أن نلخص حياة الألباني بكلمة أو أن نصفه بكلمة فإنك تعرف مع الألباني الجلد، فالجلَد هو خلاصة حياته، وللشيخ الألباني شيء من الحدة، وبعض الشباب مع الأسف يقرؤون للألباني ويأخذون شيئاً من حدته وليس لديهم علم الشيخ ".

ويقول عنه الشيخ محمد إبراهيم شقرة: " وأجاء الله قدره إلى الروح القوية التي ظلت زهاء ستة عقود تحتضن لواء السنة في عزيمة لا تعرف التردد، وصبر لا يعرف الضجر وإقدام لا يعرف النكوص ودأب موصول لا يعرف الوهن وسهر عميت الطرائق على الاجتهاد إليه ودقة صبور تقاصر عنها الهمم وأمانة واعية أذكرت أهل العلم بما يجب عليهم من حقوقها، واستقصاء أحاط علماً بكل ما ند من قواعدها وخفي من أصولها وشغف ظل مشبوباً به قلبه حتى سقط القلم من بين أصابعه، واستحضار للنصوص والآثار والسنن والبلاغات بأحكامها وعزوها إلى مظانها والتآليف بينها والناسخ والمنسوخ منها والاستنباطات الفقهية الحسنة .. إلى غير ذلك من علوم السنة التي وضع لها خده وعشقها قلبه وأناخ على صدره منه همها واستوى عليها سوقها وأصاب كل طالب علم محب للسنة ما قدر عليه من ثمرها ".

ويقول المؤرخ الرحالة السعودي والنسابة الشهير حمد الجاسر : " ولقد عرفت في دمشق عدداً من أجلة المعنيين بتحقيق التراث كما عرفت الشيخ ناصر الدين الألباني بكثرة ترددي على " دار الكتب الظاهرية " إذ كان يعد من أحلاسها، وقد كتب كثيراً من فهارسها ونقب عن نوادر مخطوطاتها وفي الوقت نفسه كان يعمل في إصلاح الساعات ".

وقال عنه الشيخ العلامة عبدالعزيز بن باز : " الألباني مجدد هذا العصر في علوم الحديث ".

وقال عنه الشيخ محمد صالح العثيمين: " إن الألباني ذو علم جم في الحديث دراية ورواية وهو محدث العصر ".

وقال العلامة المحقق محب الدين الخطيب: " إن الألباني من دعاة السنة الذين وقفوا حياتهم على العمل لإحيائها ".

وقال عنه الأديب العلامة علي الطنطاوي: " الشيخ ناصر الدين الألباني أعلم مني بعلوم الحديث، وأنا أحترمه لجده ونشاطه وكثرة تصانيفه التي يطبعها له أخي وولدي النابغة زهير الشاويش، وأنا أرجع إلى الشيخ ناصر في مسائل الحديث ولا أستنكف أن أسأله عنها معترفاً بفضله، وأنكر عليه إذا تفقه فخالف ما عليه الجمهور لأنه ليس بفقيه ".

وقال عنه الدكتور محمد لطفي الصباغ: " ثم ظهر في كل قطر من يسير على طريقة الألباني، وكان بعضهم أهلاً لهذا وكثير منهم لم يكن كذلك، بل تسرع وتعجل قبل أن يستكمل الآلة ".

وقال عنه الشيخ إبراهيم محمد العلي : " يؤخذ على الشيخ الحدة الشديدة التي كان يواجه بها المخالفين له من العلماء القدامى والمحدثين، مما زاد من خصومه، ولذلك يحتاج القارئ في أخذ المسائل التي رد فيها على أهل العلم وردوا عليه إلى الوعي والبصيرة والحذر لأن الشيخ يخطئ ويصيب كسائر أهل العلم، كما أن تعامله مع التيار الحركي الإسلامي " الجماعات الإسلامية " كان فيه الكثير من الجفاء والغلظة الأحكام القاسية بحقها ".

ومن الشعر الذي قيل فيه:

إن الذي ينصر شريعة ربنا	**ينصر كما قاله الوحيان**
ولقد رأينا من محقق عصرنا	**أعني المحدث ناصر الألباني**
ذاك الذي تسعى حثيثا ضده	**ياظالما فارجع عن العصيان**
قام الألى يتعصبون لمذهب	**وطريقة وعقيدة الكهان**
قام الألى يتعصبون لمذهب	**ووظيفة فيها الحطام الفاني**
قام الجميع وأعلنوها ثورة	**بالسب والتشنيع في البلدان**
قامت قيامتهم وقام جميعهم	**والشيخ ناصر ثابت الأركان**
نشر العلوم بعصرنا يا حبذا	**من ناشر لشريعة الرحمن**
ترك التعصب للمذاهب كلها	**مدح الأئمة شيعة الرحمن**
نفع الإله بعلمه رغم الذي	**قد قاله ذو الحقد والأضغان**
قالوا قريض الشعر قلت أحبه	**لا سيما في ناصر الألباني**
علم الزمان فلست أزري حقه	**شيخ المشايخ ذو النهي الرباني**
فهو المجدد للزمان وقد أتى	**خبر صحيح ينتهي للداني**
في كل آونة يقوم معلم	**يدعو لشرعة ربنا الرحمن**
فهو الإمام إذا الأئمة عددوا	**لا شك عندي والذي سواني**
وهو الذي أضحى فريد زمانه	**بالفقه والتحديث والقرآن**
كم ذب عن سنن النبي محمد	**المصطفى المختار من عدنان**
كم حارب البدع التي شوهت	**وجه الشريعة بالأذى الفتان**
يدعو إلى التوحيد والتقوى وكم	**قال اتبع نبينا العدنان**
فرض وحتم لازم لا نهتدي	**في غيره إن صح في الميزان**

:: : :: : :: : :: : :: : :: : :: : :: : :: :

وقد عرف قدره المشرفون على المراكز العلمية , مما دفع المشرفين على الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حين تأسيسها - وعلى رأسهم الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم بن آل الشيخ رئيس الجامعة الإسلامية والمفتي العام للمملكة العربية السعودية آنذاك - أن يقع اختيارهم على الشيخ ليتولى تدريس الحديث وعلومه وفقهه في الجامعة واختارته كلية الشريعة في جامعة دمشق ليقوم بتخريج أحاديث البيوع الخاصة بموسوعة الفقه الإسلامي التي عزمت الجامعة على إصدارها نحو عام 1955 واختير عضوا في لجنة الحديث التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسورية للإشراف على نشر كتب السنة وتحقيقها.

وطلبت منه الجامعة السلفية في بنارس (الهند) أن يتولى مشيخة الحديث فيها , فاعتذر عن ذلك.

وطلب منه وزير المعارف في المملكة العربية السعودية الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ 1388هجرية أن يتولى الإشراف على قسم الدراسات العليا للحديث في جامعة مكة المكرمة , وقد حالت بعض الظروف دون تحقيق ذلك.

روايات:

يروى أن الشيخ الألباني دخل على واحد يزعم أنه يحضر الأرواح، وطلب منه أن يحضر روح الإمام البخاري ليسأله بعض الأسئلة. فقال المشعوذ الدجال: اليوم انتهيت من الأرواح، تعال لي يوم الإثنين. ولما ذهب إليه الألباني لم يجده، بل هرب إلى مكان مجهول!

ويروى أنه صام عن الطعام أربعين يوماً مقتصراً على الماء فقط، وذلك لعلاج أمراض كان يشكو منها وقد شفاه الله من بعضها.

من أقواله:

قال الألباني: " لو لم يكن للشيخ حسن البنا رحمه الله من الفضل على الشباب المسلم سوى أنه أخرجهم من دور الملاهي والسينما والمقاهي وجمعهم على دعوة الإخوان المسلمين لكفاه فضلاً وشرفاً ".

ومن أقواله: " أنا أعلّم ولا أربّي ".

ومن أقواله: " إن نعم الله عليَّ كثيرة لا أحصي لها عداً، ولعل من أهمها اثنتين: هجرة والدي إلى الشام ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح

الساعات، أما الأولى فقد يسَّرت لي تعلم العربية، ولو ظللنا في ألبانيا لما توقعت أن أتعلم منها حرفاً، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله، إلا عن طريق العربية. وأما الثانية وهي تعلم مهنة الساعات فقد قيضت لي فراغاً من الوقت أملؤه بطلب العلم، وأتاحت لي فرصة التردد على المكتبة الظاهرية وغيرها ساعات طويلة كل يوم.

وأول ما ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربية، كالظاهر، وعنترة، والملك سيف، وما إليها، ثم القصص البوليسية المترجمة كـ " آرسن لوبين " وغيرها، ثم وجدت نزوعاً إلى القراءات التاريخية، وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى الباعة جزءاً من مجلة المنار فاشتريته ووقعت فيه على بحث بقلم السيد محمد رشيد رضا، يصف فيه كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، ويشير إلى محاسنه ومآخذه، ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله، ثم أمضي لاتباع موضوع " الإحياء في الأحياء " وفي الطبعة التي تحتوي على تخريج الحافظ العراقي ورأيتني أسعى لاستئجاره لأنني لا أملك ثمنه، ومن ثم أقبلت على قراءة الكتاب، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه أو تلخيصه بعدما خططت في ذهني صوراً لنسخ التخريج الذي هو مطبوع على هامش " الإحياء ". بدأت أنسخ الأحاديث ووضعت خطة هذه منها قائلاً :"**إن العبد لينشر له من الثناء من بين المشرق المغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة**ـ. هكذا ورد في " الإحياء " يقول الحافظ العراقي. وقد نقلته منه ولكني لم أجده هكذا، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة :"**إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**ـ انتهى كلام العراقي.

ولكن أنا ماذا فعلت؟ وضعت شرطة وأتممت الحديث من الصحيحين، واصطلحت على هذا، حتى ما أنسب إلى الحافظ العراقي شيئاً ليس له، اصطلحت الزيادة التي أنقلها من الأصل الذي عزا الحديث إليه أضعه بين شرطتين، وهكذا وأحسب أن هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحببب إلي المضي في الطريق ".

ومن أقواله: " قدَّر عليَّ أن أسجن سنة 1389هـ / 1969م مع عدد من العلماء من غير جريرة اقترفناها سوى الدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس، فأُساق إلى سجن القلعة وغيره في دمشق ثم أُفرج عني بعد مدة لأساق مرة ثانية وأُنفى إلى الجزيرة لأقضي في سجنها بضعة أشهر أحتسبها في سبيل الله عز وجل ".

وقد هاجرت بنفسي وأهلي من دمشق الشام إلى عمان بالأردن أول شهر رمضان سنة 1400هـ، ثم في 19 شوال سنة 1401هـ، اضطررت اضطراراً لا خيار لي فيه مطلقاً للسفر إلى دمشق ثم إلى بيروت فوصلت إلى بيروت في الثلث الأول من الليل قاصداً دار أخ قديم وصديق وفي حميم هو زهير الشاويش، فاستقبلني بلطفه وأدبه وكرمه المعروف، وأنزلني عنده ضيفاً معززاً مكرماً جزاه الله خيراً، فاهتبلت فرصة هذه الغربة الطارئة بالدراسة والمطالعة في مكتبته العامرة الزاخرة بالكتب المطبوعة منها والمخطوطة النادرة وفيها أكثر المصادر التي تلزمني وكثير مما ليس في مكتبتي بدمشق ".

من تلاميذه:

إن تلامذة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في العالم العربي والإسلامي كثير عددهم لا أستطيع ذكرهم في هذه العجالة ولكني أذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر ومنهم: ناصر الترماني، نافع الشامي، عبدالرحمن ألباني، زهير الشاويش، عبدالرحمن النحلاوي، محمد نسيب الرفاعي، محمد عيد العباسي، خير الدين وانلي، راتب حموش، محمود مهدي الاستانبولي، محمد إبراهيم شقرة، علي خشان، محمود الجزائري، عبدالله السبت، حسين العوايشة، علي الحلبي، مشهور حسن، محمد موسى نصر، صفوت نور الدين، عصام موسى هادي، محمد إبراهيم الشيباني، عبدالرحمن عبدالخالق، عمر الأشقر، محمد هاشم الهدية، حمدي السلفي، وغيرهم كثير في العالم العربي والإسلامي الذين استفادوا من الشيخ الألباني مثل الشيخ محمد المجذوب ورضا نعسان الحموي، وعبدالقادر أرناؤوط، وشعيب أرناؤوط، وعصام العطار، وغيرهم.

وفاته:

كانت وفاة الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخر لسنة 1420ه - الموافق 1999/10/1م بعد صلاة العصر عن عمر يناهز الثامنة والثمانين في مدينة عمان بالأردن، وقد صلى عليه الشيخ محمد إبراهيم شقرة ودفن في مقبرة حي هملان في ماركا الجنوبية بعمّان، وكان عدد المشيعين قريباً من الألفين رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.. والحمد لله رب العالمين.

وصيته:

أوصي بمكتبتي كلها سواء ما كان منها مطبوعاً أو تصويراً أو مخطوطاً بخطي أو بخط غيري لمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، لأن لي فيها ذكريات حسنة في الدعوة للكتاب والسنة على منهج السلف الصالح يوم كنت مدرساً فيها، راجياً من الله أن ينفع بها روادها كما نفع بصاحبها يومئذ طلابها، وأن ينفعني بهم وبإخلاصي ودعواتهم رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى: {وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: ١٥].

الفقير إلى رحمة ربه: محمد ناصر الدين الألباني[1].

* * *

(1) انظر كتاب الإعلام بآخر أحكام الألباني الإمام لمحمد كمال السيوطي، راجعه وقدم له: محمد عبد الحكيم القاضي، من نشر دار ابن رجب، وكتاب ردع الجاني المتعدي على الألباني للشيخ طارق عوض..

الحافظ العراقي

أعـلام الحديـث

الحافظ العراقي

هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم الكردي الرازياني العراقي الأصل المهراني المصري المولد الشافعي المذهب. كنيته: أبو الفضل، ويلقّب بـ زين الدين. وُلِدَ في اليوم الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة 725 هـ.

أسرته:

أقام أسلاف الحافظ العراقي في قرية رازيان - من أعمال إربل - إلى أن انتقل والده وهو صغير مع بعض أقربائه إلى مصر، إذ استقر فيها وتزوج من امرأة مصرية ولدت له الحافظ العراقي. وكانت أسرته ممن عُرفوا بالزهد والصلاح والتقوى، وقد كان لأسلافه مناقب ومفاخر، وكانت والدته ممن اشتهرن بالاجتهاد في العبادات والقربات مع الصبر والقناعة.

أمّا والدُه فقد اختصَّ - منذ قدومه مصر - بخدمة الصالحين، ولعلَّ من أبرز الذين اختصَّ والده بخدمتهم الشيخ القناوي. ومن ثَمَّ ولد للمتَرجَمِ ابنٌ أسماه: أحمد وكنَّاه: أبا زرعة، ولقَّبه: بولي الدين، وكذلك بنت تدعى: خديجة، صاهره عليها: الحافظ نور الدين الهيثمي ورزق منها بأولاد، وأشارت بعض المصادر أنَّ له ابنتين أخريين: جويرية وزينب.

نشأته:

وُلِد الحافظ العراقي - كما سبق - في مصر، وحمله والده صغيراً إلى الشيخ القناوي؛ ليباركه، إذ كان الشيخ هو البشير بولادة الحافظ، وهو الذي سمَّاه أيضاً؛ ولكنَّ الوالد لَمْ يقم طويلاً مَعَ ولده، إذ إنَّ يدَ المنونِ تخطَّفته والطفل لَمْ يزل بَعْد طريَّ العود، غضَّ البنية لَمْ يُكمل الثالثة من عمره، وَلَمْ نقف عَلَى ذكر لِمَن كفله بَعْدَ رحيل والده، والذي يغلب عَلَى ظننا أنّ الشَّيْخ القناوي هُوَ الَّذِي كفله وأسمعه؛ وذلك لأن أقدم سماع وجد له كان سنة 737 هـ بمعرفة القناوي وكان يُتَوقّعُ أن يكون له حضور أو سماع من الشيخ، إذ كان كثير التردد إليه سواء في حياة والده أو بعده، وأصحاب الحديث عند الشيخ يسمعون منه؛ لعلوِّ إسناده.

وحفظ الزينُ القرآنَ الكريمَ والتنبيه وأكثر الحاوي مَعَ بلوغه الثامنة من عمره، واشتغل في بدء طلبه بدرس وتحصيل علم القراءات، وَلَمْ يثنِ عزمه عَنْهَا إلا نصيحة شيخه العزّ بن جَمَاعَة، إذ قَالَ لَهُ: (إنَّهُ علم كَثِير التعب، قليل الجدوى، وأنت متوقد الذهن فاصرف همَّتك إِلَى الْحَدِيْث). وكان قد سبق له أن حضر دروس الفقه على ابن عدلان ولازم العماد محمد بن إسحاق البلبيسي، وأخذ عن الشمس بن اللبان، وجمال الدين الإسنوي الأصولَ وكان الأخير كثير الثناء على فهمه، ويقول: (إنَّ ذهنه صحيح لا يقبل الخطأ)، وكان الشيخ القناوي في سنة سبع وثلاثين - وهي السنة التي مات فيها - قد أسمعه على الأمير سنجر الجاولي، والقاضي تقي الدين بن الأخنائي المالكي، وغيرهما ممّن لم يكونوا من أصحاب العلوِّ.

ثمَّ ابتدأ الطلب بنفسه، وكان قد سمع على عبد الرحيم بن شاهد

الجيش وابن عبد الهادي وقرأ بنفسه على الشيخ شهاب الدين بن البابا، وصرف همَّته إلى التخريج وكان كثير اللهج بتخريج أحاديث " الإحياء " وله من العمر - آنذاك - عشرون سنة وقد فاته إدراك العوالي مما يمكن لأترابه ومَن هو في مثل سنّه إدراكه، ففاته يحيى بن المصري - آخر مَن روى حديث السِّلَفي عالياً بالإجازة - والكثير من أصحاب ابن عبد الدائم والنجيب بن العلاّق، وكان أوّل مَن طلب عليه الحافظ علاء الدين بن التركماني في القاهرة وبه تخرّج وانتفع، وأدرك بالقاهرة أبا الفتح الميدومي فأكثر عنه وهو من أعلى مشايخه إسناداً، ولم يلقَ من أصحاب النجيب غيره، ومن ناصر الدين محمد بن إسماعيل الأيوبي، ومن ثَمَّ شدَّ رحاله - على عادة أهل الحديث - إلى الشام قاصداً دمشق فدخلها سنة 754 هـ، ثُمَّ عادَ إليها بعد ذلك سنة 758 هـ، وثالثة في سنة 759 هـ، ولم تقتصر رحلته الأخيرة على دمشق بل رحل إلى غالب مدن بلاد الشام، ومنذ أول رحلة له سنة 754 هـ لم تخلُ سنة بعدها من الرحلة إمّا في الحديث وإمّا في الحجّ، فسمع بمصر ابن عبد الهادي، ومحمد بن علي القطرواني، وبمكة أحمد بن قاسم الحرازي، والفقيه خليل إمام المالكية بها، وبالمدينة العفيف المطري، وببيت المقدس العلائي، وبالخليل خليل بن عيسى القيمري، وبدمشق ابن الخباز، وبصالحيتها ابن قيم الضيائية، والشهاب المرداوي، وبحلب سليمان بن إبراهيم بن المطوع، والجمال إبراهيم بن الشهاب محمود في آخرين بهذه البلاد وغيرها كالإسكندرية، وبعلبك، وحماة، وحمص، وصفد، وطرابلس، وغزّة، ونابلس... تمام ستة وثلاثين مدينة. وهكذا أصبح الحديث ديدنه وأقبل عليه بكليته، وتضلّع فيه رواية ودراية وصار المعول عليه في إيضاح مشكلاته

وحلّ معضلاته، واستقامت له الرئاسة فيه، والتفرد بفنونه، حتّى إنّ كثيراً من أشياخه كانوا يرجعون إليه، وينقلون عنه - كما سيأتي - حتَّى قال ابن حجر: (صار المنظور إليه في هذا الفن من زمن الشيخ جمال الدين الأسنائي... وهلمَّ جرّاً، ولم نرَ في هذا الفنّ أتقن منه، وعليه تخرج غالب أهل عصره).

مكانته العلمية وأقوال العلماء فيه:

مما تقدّم تبيّنت المكانة العلمية التي تبوّأها الحافظ العراقي، والتي كانت من توفيق الله تعالى له، إذ أعانه بسعة الاطلاع، وجودة القريحة وصفاء الذهن وقوة الحفظ وسرعة الاستحضار، فلم يكن أمام مَن عاصره إلاّ أن يخضع له سواء من شيوخه أو تلامذته. ولعلّ ما يزيد هذا الأمر وضوحاً عرض جملة من أقوال العلماء فيه، من ذلك:

1- قال شيخه العزُّ بن جماعة: (كلّ مَن يدّعي الحديث في الديار المصرية سواه فهو مدَّعٍ).

2- قال التقي بن رافع السلامي: (ما في القاهرة مُحَدِّثٌ إلاّ هذا، والقاضي عزّ الدين ابن جماعة)، فلمَّا بلغته وفاة العزّ قال: (ما بقي الآن بالقاهرة مُحَدِّثٌ إلاّ الشيخ زين الدين العراقي).

3- قال ابن الجزري: (حافظ الديار المصرية ومُحَدِّثُها وشيخها).

4- قال ابن ناصر الدين: (الشيخ الإمام العلاّمة الأوحد، شيخ العصر حافظ الوقت... شيخ الْمُحَدِّثِيْن عَلَم الناقدين عُمْدَة المخرِّجِين).

6 -قال ابن قاضي شهبة: (الحافظ الكبير المفيد المتقن المحرّر الناقد، محَدِّث الديار المصرية، ذو التصانيف المفيدة).

6- قال التقي الفاسي : (الحافظ المعتمد ،...، وكان حافظاً متقناً عارفاً بفنون الحديث وبالفقه والعربية وغير ذلك ،...، وكان كثير الفضائل والمحاسن).

7- وقال ابن حجر : حافظ العصر ، وقال : (الحافظ الكبير شيخنا الشهير).

8- وقال ابن تغري بردي : (الحافظ ،... شيخ الحديث بالديار المصرية،... وانتهت إليه رئاسة علم الحديث في زمانه).

9- وقال ابن فهد : (الإمام الأوحد ، العلاّمة الحجة الحبر الناقد ، عمدة الأنام حافظ الإسلام ، فريد دهره ، ووحيد عصره ، من فاق بالحفظ والإتقان في زمانه، وشهد له في التفرّد في فنه أئمة عصره وأوانه). وأطال النفس في الثناء عليه.

10- وقال السيوطي: (الحافظ الإمام الكبير الشهير، حافظ العصر).

ويبدو أنّ الأمر الأكثر إيضاحاً لمكانة الحافظ العراقي ، نقولات شيوخه عنه وعودتهم إليه ، والصدور عن رأيه ، وكانوا يكثرون من الثناء عليه ، ويصفونه بالمعرفة ، من أمثال السبكي والعلائي وابن جماعة وابن كثير والإسنوي.

ونقل الإسنوي عنه في " المهمات " وغيرها ، وترجم له في طبقاته ولم يترجم لأحد من الأحياء سواه ، وصرّح ابن كثير بالإفادة منه في تخريج بعض الشيء.

ومن بين الأمور التي توضّح مكانة الحافظ العراقي العلمية تلك المناصب التي تولاها ، والتي لا يمكن أن تسند إليه لولا اتفاق عصرييه على أولويته لها، ومن بين ذلك:

تدريسه في العديد من مدارس مصر والقاهرة مثل: دار الحديث الكاملية ، والظاهرية القديمة ، والقراسنقرية ، وجامع ابن طولون والفاضلية، وجاور مدةً بالحرمين.

كما أنّه تولّى قضاء المدينة المنورة، والخطابة والإمامة فيها ، منذ الثاني عشر من جُمَادَى الأولى سنة 788 هـ، حتى الثالثعشر من شوال سنة 791 هـ، فكانت المدة ثلاث سنين وخمسة أشهر.

وفي سبيل جعل شخصية الحافظ العراقي بينة للعيان من جميع جوانبها ، ننقل ما زَبَّره قلم تلميذه وخِصِّيصه الحافظ ابن حجر في وصفه شيخه ، إذ قال في مجمعه : (كان الشيخ منور الشيبة ، جميل الصورة ، كثير الوقار ، نزر الكلام ، طارحاً للتكلف ، ضيق العيش ، شديد التوقي في الطهارة، لطيف المزاج، سليم الصدر ، كثير الحياء ، قلَّما يواجه أحداً بما يكرهه ولو آذاه، متواضعاً منجمعاً ، حسن النادرة والفكاهة ، وقد لازمته مدّة فلم أره ترك قيام الليل ، بل صار له كالمألوف، وإذا صلَّى الصبح استمر غالباً في مجلسه ، مستقبل القبلة ، تالياً ذاكراً إلى أن تطلع الشمس ، ويتطوع بصيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر وستة شوال ، كثير التلاوة إذا ركب ...)، ثُمَّ ختم كلامه قائلاً : (وليس العيان في ذلك كالخبر).

شيوخه:

عرفنا فيما مضى أنَّ الحافظ العراقي منذ أن أكبَّ على علم الحديث؛ كان حريصاً على التلقي عن مشايخه، وقد وفّرت له رحلاته المتواصلة سواء إلى الحج أو إلى بلاد الشام فرصة التنويع في فنون مشايخه والإكثار منهم.

والباحث في ترجمته وترجمة شيوخه يجد نفسه أمام حقيقة لا مناص عنها ، وهي أنَّ سمة الحديث كانت الطابع المميز لأولئك المشايخ، مما أدَّى بالنتيجة إلى تنّوع معارف الحافظ العراقي وتضلّعه في فنون علوم الحديث، فمنهم من كان ضليعاً بأسماء الرجال، ومنهم من كان التخريج صناعته، ومنهم من كان عارفاً بوفيات الرواة، ومنهم من كانت في لغة الحديث براعته... وهكذا. وهذا شيء نلمسه جلياً في شرحه هذا بجميع مباحثه ، وذلك من خلال استدراكاته وتعقباته وإيضاحاته والفوائد التي كان يطالعنا بها على مرِّ صفحات شرحه الحافل.

ومسألة استقصاء جميع مشايخه - هي من نافلة القول - فضلاً عن كونها شبه متعذرة سلفاً، لاسيّما أنه لم يؤلف معجماً بأسماء مشايخه على غير عادة المحدّثين، خلافاً لقول البرهان الحلبي من أنه خرّج لنفسه معجماً.

لذا نقتصر على أبرزهم، مع التزامنا بعدم إطالة تراجمهم:

1- الإمام الحافظ قاضي القضاة علي بن عثمان بن إبراهيم المارديني، المشهور بـ ابن التركماني الحنفي، مولده سنة 683 هـ، وتوفي سنة 750 هـ، له من التآليف: " الجوهر النقي في الرد على البيهقي،

وغيره.

2- الشيخ المُسْنِد المعمر صدر الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومي المصري، ولد سنة 664 هـ، وهو آخر من روى عن النجيب الحراني، وابن العلاق، وابن عزون، وتوفي سنة 754 هـ.

3- الإمام الحافظ العلاّمة علاء الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي ثم المقدسي، ولد سنة 694 هـ، وتوفي سنة 761 هـ، له من التصانيف: " جامع التحصيل "، و " الوشي المعلم "، و " نظم الفرائد " وغيرها.

4- الإمام الحافظ العلاّمة علاء الدين أبو عبد الله مغلطاي بن قُليج ابن عبد الله البكجري الحكري الحنفي، مولده سنة 689 هـ، وقيل غيرها، برع في فنون الحديث، وتوفي سنة 762 هـ، من تصانيفه: ترتيب كتاب بيان الوهم والإيهام وسمّاه: " منارة الإسلام "، ورتّب المبهمات على أبواب الفقه، وله شرح على صحيح البخاري، وتعقّبات على المزي، وغيرها.

5- الإمام العلاّمة جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي، شيخ الشافعية، ولد سنة 704 هـ، وتوفي سنة 777 هـ، له من التصانيف: طبقات الشافعية، والمهمات، والتنقيح وغيرها.

تلامذته:

تبين مما تقدّم أنّ الحافظ العراقي بعد أن تبوأ مكان الصدارة في الحديث وعلومه وأصبح المعوّل عليه في فنونه بدأت أفواج طلاب الحديث تتقاطر نحوه، ووفود الناهلين من معينه تتجه صوبه، لاسيّما وقد أقرَّ له الجميع بالتفرد بالمعرفة في هذا الباب، لذا كانت فرصة التتلمذ له شيئاً يعدّه الناس من المفاخر، والطلبة من الحسنات التي لا تجود بها الأيام دوماً.

والأمر الآخر الذي يستدعي كثرة طلبة الحافظ العراقي كثرة مفرطة، أنه أحيا سنة إملاء الحديث - على عادة المحدّثين - بعد أن كان درس عهدها منذ عهد ابن الصلاح فأملى مجالس أربت على الأربعمائة مجلس، أتى فيها بفوائد ومستجدات (وكان يمليها من حفظه متقنة مهذّبة محرّرة كثيرة الفوائد الحديثية) على حد تعبير ابن حجر.

لذا فليس من المستغرب أن يبلغوا كثرة كاثرة يكاد يستعصي على الباحث سردها، إن لم نقل أنها استعصت فعلاً، فضلاً عن ذكر تراجمهم، ولكن القاعدة تقول: (ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه) وانسجاماً معها نعرّف تعريفاً موجزاً بخمسة من تلامذته كانوا بحقّ مفخرة أيامهم وهم:

1 - الإمام برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن أيوب الأبناسي، مولده سنة 725 هـ، وهو من أقران العراقي، برع في الفقه، وله مشاركة في باقي الفنون، توفي سنة 802 هـ، من تصانيفه: الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح، وغيره.

2- الإمام الحافظ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي القاهري ، ولد سنة 735 ه، وهو في عداد أقرانه أيضاً، ولكنه اختص به وسمع معه، وتخرّج به، وهو الذي كان يعلّمه كيفية التخريج ، ويقترح عليه مواضيعها ، ولازم الهيثمي خدمته ومصاحبته، وصاهره فتزوج ابنة الحافظ العراقي ، توفي سنة 807 ه، من تصانيفه : مجمع الزوائد ، وبغية الباحث ، والمقصد العلي ، وكشف الأستار ، ومجمع البحرين، وموارد الظمآن، وغيرها.

3- ولده: الإمام العلاّمة الحافظ ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي الأصل المصري الشافعي المذهب ، ولد سنة 762 ه، وبكّر به والده بالسماع فأدرك العوالي، وانتفع بأبيه غاية الانتفاع ، ودرّس في حياته ، توفي سنة 826 ه، من تصانيفه : " الإطراف بأوهام الأطراف " و " تكملة طرح التثريب " و " تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل "، وغيرها.

4- الإمام الحافظ برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن محمد بن خليل الحلبي المشهور بسبط ابن العجمي، مولده سنة 753 ه، رحل وطلب وحصّل ، وله كلام لطيف على الرجال ، توفي سنة 841 ه، من تصانيفه : " حاشية على الكاشف " للذهبي و " نثل الهميان " و " التبيين في أسماء المدلّسين " و " الاغتباط فيمن رمي بالاختلاط " وغيرها.

5- الإمام العلاّمة الحافظ الأوحد شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن علي بن محمد الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر ، ولد سنة 773 ه، طلبورحل، وألقي إليه الحديث والعلم بمقاليده ، والتفرد بفنونه، توفي سنة 852 ه، من تصانيفه: " فتح الباري " و " تهذيب

التهذيب " وتقريبه و" نزهة الألباب "، وغيرها.

آثاره العلمية:

لقد عرف الحافظ العراقي أهمية الوقت في حياة المسلم، لذا فقد عمل جاهداً على توظيف الوقت بما يخدم السنة العزيزة، بحثاً منه أو مباحثة مع غيره فكانت (غالب أوقاته في تصنيف أو إسماع) كما يقول السخاوي، لذا كثرت تصانيفه وتنوعت:

مؤلفاته فيما عدا الحديث وعلومه:

تنوعت طبيعة هذه المؤلفات ما بين الفقه وأصوله وعلوم القرآن، غير أنَّ أغلبها كان ذا طابع فقهي، يمتاز الحافظ فيه بالتحقيق، وبروز شخصيته مدافعاً مرجّحاً موازناً بين الآراء.

على أنَّ الأمر الذي نأسف عليه هو أنَّ أكثر مصنفاته فُقدت، ولسنا نعلم سبب ذلك، وقد حفظ لنا مَنْ ترجم له بعض أسماء كتبه، تعين الباحث على امتلاك رؤية أكثر وضوحاً لشخص هذا الحافظ الجليل، وإلماماً بجوانب ثقافته المتنوعة المواضيع.

ومن بين تلك الكتب:

1- أجوبة ابن العربي.

2- إحياء القلب الميت بدخول البيت.

3- الاستعاذة بالواحد من إقامة جمعتين في مكان واحد.

4- أسماء الله الحسنى.

5- ألفية في غريب القرآن.

6- تتمات المهمات.

7- تاريخ تحريم الربا.

8- التحرير في أصول الفقه.

9- ترجمة الإسنوي.

10- تفضيل زمزم على كلّ ماء قليل زمزم.

11- الرد على من انتقد أبياتاً للصرصري في المدح النبوي.

12- العدد المعتبر في الأوجه التي بين السور.

13- فضل غار حراء.

14- القرب في محبة العرب.

15- قرة العين بوفاء الدين.

16- الكلام على مسألة السجود لترك الصلاة.

17- مسألة الشرب قائماً.

18- مسألة قصّ الشارب.

19- منظومة في الضوء المستحب.

20- المورد الهني في المولد السني.

21- النجم الوهاج في نظم المنهاج.

22- نظم السيرة النبوية.

23- النكت على منهاج البيضاوي.

24- هل يوزن في الميزان أعمال الأولياء والأنبياء أم لا؟.

مؤلفاته في الحديث وعلومه:

هذه الناحية من التصنيف كانت المجال الرحب أمام الحافظ العراقي ليظهر إمكاناته وبراعته في علوم الحديث ظهوراً بارزاً ، يَتَجلَّى لنا ذلك من تنوع هذه التصانيف، التي بلغت 42 مصنفاً تتراوح حجماً ما بين مجلدات إلى أوراق معدودة، وهذه التصانيف هي:

1- الأحاديث المخرّجة في الصحيحين التي تُكُلِّمَ فيها بضعف أو انقطاع.

2- الأربعون البلدانية.

3- أطراف صحيح ابن حبان.

4- الأمالي.

5- الباعث على الخلاص من حوادث القصاص.

6- بيان ما ليس بموضوع من الأحاديث.

7- تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي.

8- ترتيب من له ذكر أو تجريح أو تعديل في بيان الوهم والإيهام.

9- تخريج أحاديث منهاج البيضاوي.

10- تساعيات الميدومي.

11- تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد.

12- التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح.

13- تكملة شرح الترمذي لابن سيد الناس.

14- جامع التحصيل في معرفة رواة المراسيل.

15- ذيل على ذيل العبر للذهبي.

16- ذيل على كتاب أُسد الغابة.

17- ذيل مشيخة البياني.

18- ذيل مشيخة القلانسي.

19- ذيل ميزان الاعتدال للذهبي.

20- ذيل على وفيات ابن أيبك.

21- رجال سنن الدارقطني.

22- رجال صحيح ابن حبان.

23- شرح التبصرة والتذكرة.

24- شرح تقريب النووي.

25- طرح التثريب في شرح التقريب.

26- عوالي ابن الشيخة.

27- عشاريات العراقي.

28- فهرست مرويات البياني.

29- الكلام على الأحاديث التي تُكُلِّمَ فيها بالوضع، وهي في مسند الإمام أحمد.

30- الكلام على حديث: التوسعة على العيال يوم عاشوراء.

31- الكلام على حديث: صوم ستٍّ من شوال.

32- الكلام على حديث: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه.

33- الكلام على حديث: الموت كفّارة لكل مسلم.

34- الكلام على الحديث الوارد في أقل الحيض وأكثره.

35- المستخرج على مستدرك الحاكم.

36- معجم مشتمل على تراجم جماعة من القرن الثامن.

37- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بتخريج ما في الإحياء من الأحاديث والآثار.

38- مشيخة عبد الرحمن بن علي المصري المشهور بابن القارئ.

39- مشيخة محمد بن محمد المربعي التونسي وذيلها.

40- من روى عن عمرو بن شعيب من التابعين.

41- من لم يروِ عنهم إلا واحد.

42- نظم الاقتراح.

وفاته:

تتفق المصادر على أنَّه في يوم الأربعاء الثامن من شعبان سنة 806 هـ فاضت روح الحافظ العراقي عقيب خروجه من الحمام عن عمر ناهز الإحدى وثمانين سنة، وكانت جنازته مشهودة، صلّى عليه الشيخ شهاب الدين الذهبي ودفن خارج القاهرة رحمه الله.

ولما تمتع به الحافظ العراقي في نفوس الناس، فقد توجع لفقده الجميع، ومن صور ذلك التوجع أن العديد من محبيه قد رثاه بغرر

القصائد، ومنها قول ابن الجزري:

رحمة الله للعراقي تترى	:	**حافظ الأرض حبرها باتفاق**
إنني مقسم أليَّة صدق لم	::	**يكن في البلاد مثل العراقي**

ومنها قصيدة ابن حجر ومطلعها:

مصاب لم ينفس للخناق	::	**أصار الدمع جاراً للمآقي**

ومن غرر شعر ابن حجر في رثاء شيخه العراقي قوله في رائيته التي رثا بها شيخه البلقيني:

ننعم ويا طول حزني ما حييت على	::	**عبد الرحيم فخري غير مقتصر**
لَهْفِيْ على حافظ العصر الذي اشتهرت	::	**أعلامه كاشتهار الشمس في الظهر**
علم الحديث انقضى لَمَّا قضى ومضى	::	**والدهر يفجع بعد العين بالأثر**
	:	**عنديَ من سمعي ومن بصري**
لَهْفِيْ على فَقْد شيخَيَّ اللذان هما أعز	::	**يحيي الرميم ويلهي الحي عن سمر**
لَهْفِيْ على من حديثي عن كمالهما	::	**السما إن يلح والأرض إن يطر**
	:	**وذا جهينة إن يسأل عن الخبر**
اثنانِ لم يرتقِ النسران ما ارتقيا نسر	::	**العام كالعام حتى الشهر كالشهر**
ذا شبه فرخ عقاب حجة صدقت	::	**وربع عام سوى نقص لمعتبر**
	:	**رزية لم تهن يوما على بشر**
لا ينقضي عجبي من وفق عمرهما	::	**بدر الدياجي زين الدين في الأثر** (1)

(1) انظر مقدمة كتاب شرح التبصرة والتذكرة، للحافظ العراقي، من تحقيق د. ماهر ياسين الفحل. مقدمة كتاب النكت على كتاب ابن الصلاح لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني من تحقيق ربيع بن هادي عمير المدخلي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

عاشا ثمانين عاما بعدها سنة ::
الدين تتبعه الدنيا مضت بهما :
بالشمس وهو سراج الدين ::
يتبعه :
::
:

* * *

بدر الدين الحسني

أعلام الحديث

الحافظ المحدث الكبير بدر الدين الحسني

أصله من مراكش، من ذرية الشيخ الجرولي صاحب دلائل الخيرات. انتقل أحد أسلافه إلى الديار المصرية، فولد فيها أبوه بقرية بيبان من قري محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية ورحل إلى تونس فقرأ في جامع الزيتونة وعاد إلى الشرق فأقام بدمشق واشتهر بالمغربي. وولد صاحب الترجمة في دمشق، فحفظ الصحيحين غيبا بأسانيدهما ونحو 20 ألف بيت من متون العلوم المختلفة، وانقطع للعبادة والتدريس.

وكان ورعا صواما بعيدا عن الدنيا، ارتفعت مكانته عند الحكام وأهل الشام، حتى أن بعض العامة من أهل دمشق حين اشتد بغي (الاتحاديين) من رجال الترك، في خلال الحرب العامة الاولى، عرضوا عليه البيعة بالخلافة، والثورة معه، فزجرهم، وزاد في انزوائه واعتكافه، وكان يأبى الافتاء ولا يرغب في التصنيف.

ولد الشيخ بدر الدين الحسني في وقت ضرب فيه الوهن الخلافة العثمانية، وانتشر الفساد في إدارتها، وعمت الفتن في جميع أجزائها، وتداعت الأمم على المسلمين كتداعي الأكلة إلى قصعتها، وشهدت ولادة الشيخ تنامي الاتجاه في بلاد الشام والعالم العربي إلى الانفصال عن الخلافة العثمانية، ولا سيما بعدما حكمها الاتحاديون الطورانيون (الدونمة). وشاهد الشيخ فيما بعد بأم عينه أكبر الأحداث ثقلاً على المسلمين، حيث جاء عليه اليوم الذي أصبح فيه الاستقلال عن الخلافة العثمانية حقيقة ماثلة أمامه بكامل بؤسها، ثم كان إلغاء الخلافة

برمتها، وقامت ما سمي بـ «الثورة العربية الكبرى» على يد الشريف حسين بن علي في مكة المكرمة. وعى التحالف الغربي الأوروبي للعرب، وتقسيم بلادهم، ثم احتلالها، حيث كان نصيب بلاده (بلاد الشام) من حصة فرنسا.

الناس كانت تترقب من يجدد لهم أمر دينهم، يلتفون حوله في أعتى ظروف تجتاح الأمة الإسلامية، وكان ذاك الرجل هو الشيخ بدر الدين الحسني، الذي لم يأت مثله منذ وفاة العلامة محمد أمين بن عابدين والذي أصبح كتابه «الحاشية» مرجع الفقه الحنفي في بلدان العالم الإسلامي.

ينتهي نسب الشيخ بدر الدين إلى حفيد رسول الله الحسن .، كان لوالده الشيخ يوسف الفضل في إعادة دار الحديث، بعد أن تحولت حانة خمر لأحد نصارى الشام، إلى عهدة العلم، وهي الدار التي درس فيها علماء الأمة الكبار من أمثال ابن الصلاح والنووي والسبكي والمزّي.

بعد وفاة والده وهو ابن اثني عشر عاماً، درس في المدرسة القلبقجية بدمشق، وحفظ القرآن فيها ودرس العلوم على يد الشيخ أبو الخير الخطيب أبرز علماء دمشق آنذاك، اشتهر بحفظ نادر في الحديث النبوي وأسانيده، وعندما بدأ التدريس في جامع السادات ذاع صيته، كمحدّث، وكثر عليه الطلاب، فعينت له الدولة العثمانية راتباً إلزامياً.

عرف عنه الذكاء النادر، والفراسة الكبيرة، وحسن الخلق والتلطف، والزهد، والإيثار، والمواظبة على العلم ونشره؛ فقد أمضى حياته في الدرس والمطالعة والتدريس ما بين داره في حي النقاشات بجوار الجامع الأموي وما بين دار الحديث الأشرفية، وما بين قبة النسر في الجامع الأموي الكبير في دمشق.

قليل الكلام لا يتكلم إلاّ لضرورة، كثير العبادة، شهد له أبناء عصره بالتقوى والورع، مطبوع على مكارم الأخلاق، متمسك بما عليه السلف الصالح، كان لا يحب أن يخرج في غير هيئتهم، ويرى الإفراط في التأنق في الملبس من سفساف الأمور، وكان يراه الرجل حتى ليخال أنه واحدٌ من الصحابة أو التابعين، اقتطع من ذلك الزمان وجيء به إلينا، وهو أمر زرع له الهيبة العظيمة في النفوس، وبتواضعه الجم في غير ذل، وتعظيمه للعلماء واحترامه للناس عامتهم وخاصتهم جعله عظيم الإكبار والإجلال في قلوبهم.

الاهتمام بالشباب:

كان يجد في الشباب مصير الأمة ومستقبلها، فقد كان حريصاً على التقرب إليهم والاهتمام الفائق بهم، حتى ليشار إلى خصاله بتقربه من الشباب.

التقرب إلى السلطان أو العمل في دواوينه يعني له أنه لن يستطيع أن يقول كل الحق، فما كان - لذلك - يدخل ديوان الحكومة قط إلاّ لشفاعة أو مصلحة عامة، بل كان يرسل خواص تلاميذه لينوب عنه مما يريده الشيخ ويقضي حاجته.

وهو لذلك عفَّ عن الألقاب الكبيرة، والتفاخر بها، ذلك أنه لا يجد نفسه في العباد، وإنما في علاقته برب العباد، ولذلك عندما أرسلوا إليه عريضة يقرؤونها ليقدموها إلى الحكومة وذكر فيها تلامذته عبارة : (إن سيدنا ومولانا المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني يريد كذا وكذا ...) غضب الشيخ، ومزّق الورق، فأعيدت كتابتها من غير ألقاب، فسرّ بذلك الشيخ.

وعندما شاع خبر أنه سيُخطب باسم الخليفة الأعظم على المنابر باسم الشيخ محمد بدر الدين الحسني خليفةً للمسلمين، وذلك عندما أعلن الدستور في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، واشرأبت قلوب الناس لأن يكون الشيخ يومئذٍ خليفة للمسلمين، اتصل الخبر بالدولة العثمانية والجمعيات السياسية، فاهتمت الحكومة له، ولم يكن الشيخ على علم بذلك، وخشيت الحكومة مغبّة ذلك الأمر، فأبرق وزير الخارجية في مصر إلى والي دمشق ناظم باشا، بإجراء التحقيقات، والاحتياط لهذه القضية المهمة، ولما وصل الوالي إلى الشيخ، قال له الشيخ بدر الدين: يابا إنني لست متفرغاً إلاّ للدرس!.

صيته الذائع عن علمه وشخصيته، أحضر العلماء من كل مكان للالتقاء به، فاستمع الشيخ بخيت المطيعي إلى درسه، وقال له: لو جئتمونا إلى مصر لافتخرت بكم مصر كلها، ولدرس عليكم علماؤها في الأزهر الشريف. وعندما زاره الشيخ محمد عبده أعجب به غاية الإعجاب..

وكان الشيخ يرى أن عزة الإسلام يجب التمسُّك بها، ولهذا عندما كان يأتيه سلطان أو والي أو ضابط جنرال لا يقوم له، فقد جاء إليه الجنرال الفرنسي غورو المندوب السامي الأول، لم يقم له الشيخ،

وزاره جمال باشا فلم يقم له أيضاً، وحاول آنئذٍ أن يأخذ فتوى منه في إعدام من سموّا لاحقاً بـ «شهداء السادس من أيار» فرفض الشيخ ووعظه.

وعندما أرسل السلطان عبد الحميد الثاني باخرةً للشيخ بدر يدعوه مع من أراد لمجتمع عنده ودعى له العلماء، لما سَمع عنه من علمٍ وخلق، وزهدٍ وعبادة، فلما قرأ الكتاب المرسل إليه، قال للرسول: «يابا.. ما في إذن» وعادت الباخرة من حيث أتت فارغة.

الجهاد المقدس:

عندما تغلب الفرنسيون على البلاد، واحتلوها، أعلن الشيخ الجهاد المقدس، حتى جلاء آخر جندي فرنسي عن البلاد، وسافر في حملة «جهادية ضد المستعمر الفرنسي للأمة المسلمة في بلاد الشام»، وجاب الولايات الشامية من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق، برفقة تلميذيه العالمين القديرين الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، داعياً إلى الثورة على الاحتلال والاضطهاد الذي وقع على المسلمين، ومحرضاً على الجهاد والقتال بحماس منقطع النظير، فما لبث أن اندلعت الثورة السورية الكبرى، والتي اعتبر منذ ذلك الوقت أباها.

كان الشيخ يجتمع بوجهاء دمشق وشجعانها، فيأتون إلى دار الحديث بكامل أسلحتهم فرساناً وركباناً، يودُّون أن يسلموا على الشيخ، ويتبركوا بدعائه، فيقفون قريباً من دار الحديث ينتظرون قدوم الشيخ عليهم، فينزل من غرفته ـ وكان لا ينزل إلاّ لأمر مهم ـ فيمرُّ بينهم، وهم مصطفّون أقساماً، على الخيول المطهّمة، ومشاةً مسلحين، يوجههم إلى تقوى الله عز وجل، ويدعوهم إلى طلب الفرج منه،

والنصر على الأعداء، ولا يزال يمشي ويسلم عليهم وهم يتبركون به، ثم يودعهم ويرجع إلى دار الحديث فيذهبون وقد أذكى الشيخ فيهم نار الحماس، وهم يطلقون الرصاص، وتعلو أصواتهم بالأهازيج الحماسية.

أثارت دعوة الشيخ للجهاد نقمة الفرنسيين، فجاؤوا إلى دار الحديث ممثلين بالمندوب السامي الفرنسي ليثنوه عن دعوته، فقال الشيخ له: لا تهدأ هذه الثورة إلاّ بخروجكم، فغضب المندوب السامي وخرج.

كان الشيخ كثير الاهتمام بالثورة والمجاهدين، ودائم الاتصال بزعمائهم، إذ كان المجاهدان حسن الخرَّاط، والشيخ محمد الأشمر (من أشهر قادة المجاهدين) يأتيان كل صباح قبيل الفجر ليقابلا الشيخ بدار الحديث فيوجههما التوجيه المفيد، ويربط قلبيهما بالله، فيزدادان ثقة بالله واتكالاً عليه. وكان الشيخ يمدهما بالذخيرة والمؤن، وما يحتاجان إليه بطريق بعض طلابه المخلصين، وقد جعل الشيخ من يكون همزة وصل بينه وبين الثوار فيقدم له بياناً يومياً عن الثورة ومعارك الثوار.

كانت رمزية الشيخ بدر الدين وحضوره عند الثوار عظيماً، ولهذا مثلاً كانا المحكمة العسكرية التي يقيمها حسن الخراط من علماء مجاهدين لكي يقضي بالشريعة يُصدِّر حكمها باسم إمام المسلمين المحدِّث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني.

مؤلفاته:

كان – رحمه الله - يأبى الافتاء ولا يرغب في التصنيف، فلم نعرف له غير رسالتين مطبوعتين : إحداهما في سنده لصحيح البخاري والثانية في شرح قصيدة (غرامي صحيح) في مصطلح الحديث. وله ثالثة مخطوطة سماها (الدرر البهية في شرح المنظومة البيقونية -) جاء اسمه عليها (محمد بدر الدين بن يوسف بن بدر الدين). ويقول من قرأوا عليه مدة طويلة إنه ألف نحو (أربعين) كتابا قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، ولا أعلم أين ذهبت. وجمع السيد محمد سعيد الحمزاوى، نقيب الأشراف بدمشق، تآليف الشيخ بدر الدين، في قصيدة من نظم طاهر الأتاسى يمدح بها الشيخ، ويذكر كتبه، منها:

له تآليف في نهج الهداية :: قد آضحت من الفضل تتلو آبلغ السور

على الجلالين في التفسير حاشية :: أرق من دمع صب لج في السحر

ومعرب جاء للقرآن، تبيينة :: عليك فيه، وليس الخبر كالخبر

ثم يعدد من تآليفه:

(شرح البخاري) و(شرح الشمائل) و(شرح الشفا) و(شرح البيقونية) في المصطلح، و(حاشية على شرح مختصر ابن الحاجب) في الاصول، و(حاشية على عقائد النسفي) و(شرح نظم السنوسية) و(شرح الخلاصة) في الحساب، وحواشي على شروح الشذور والقطر والجامي، وفي النحو (شرح مغني اللبيب) و(شرح لامية الافعال) و(شرح السلم) في المنطق، و(حاشية على المطول) وكتبا أخرى. وذكر الحمزاوى أنه انتهى، بعد طول البحث، إلى رؤية اثنتى عشرة رسالة، مما بقي لصاحب الترجمة، في الحديث والتوحيد والتفسير.

وصية قبل الوفاة:

توفي الشيخ قبل أن يتم طرد آخر جندي فرنسي محتل من سوريا. توفي الشيخ مريضاً قبل أن يكحل عينه بيوم الجلاء، وترك وصيةً لم تخلف درهماً ولا ديناراً، ولكن موعظة بتقوى الله وخوفاً على الأمة، وحثاً على طلب العلم واحترام العلماء، فقد حضر علماء الشام ومحبوه في بيته قبيل وفاته، فأوصاهم قائلاً:

السلام على أمة النبي محمد ﷺ ونستغفر الله مما صدر منا حال وجودنا في الدنيا مع الأمة الإسلامية من التقصير في حقهم والإساءة إليهم، بل في حق عموم الخلق، ونسأل الله أن يستعملهم فيما يرضيه ويصرف عنهم كيد الأشرار والفجار، ونستودعهم الله عز وجل في دينهم ودنياهم، ونسأل الله تعالى أن يعينهم على أمر دينهم ودنياهم، ونسأل الله تعالى أن يعينهم على أمر دينهم الذي فيه صلاحهم وعلى دنياهم التي فيها معاشهم وعلى آخرتهم التي فيها معاهدتهم ومصيرهم.

... وأوصيهم بالانكباب على طلب العلم لصيانته من الضياع، واحترام العلماء، والسلام على أهل السلام وكافة الناس من أولهم إلى آخرهم.

توفي الشيخ يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة 1354هـ، وخرجت جنازته فخرجت فيها الشام كلها، ودفن في مقبرة الباب الصغير، جنوبي دمشق، حيث قبر العلامة ابن قيم الجوزية [1].

* * *

(1) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م، 7 / 158.

الحافظ ابن الصلاح

أعـلام الحديـث

الحافظ المحدث ابن الصلاح

يُعد الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله (ت 643) واحدًا من أئمة الإسلام العظام الذين كان لهم باع كبير في خدمة الإسلام والمسلمين؛ لا سيما في علوم مصطلح الحديث؛ فكل من أتى بعده قد استفاد من مقدمته في المصطلح إما بالإضافة أو الشرح أو الاختصار أو النظم [(1)].

هو الإمام الحافظ المفتي شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتي عبد الرحمن صلاح الدين بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي أحد أئمة المسلمين علما ودينا.

ولد سنة 557 هـ في شرخان قرية قريبة من شهرزور التابع لإربل شمالي العراق فنسب إليها لكن اشتهرت نسبته إلى شهرزور. وكان والده عبد الرحمن يلقب صلاح الدين فنسب إليه وعرف بابن الصلاح.

ونشأ في بيت علم ورئاسة فكان أبوه صلاح الدين من العلماء الأجلاء فقيها متبحرا في فقه الإمام الشافعي تولى الإفتاء وعرف بالعلم والنبل والفضل.

(1) له ترجمة في الكتب الآتية: - وفيات الأعيان 3/ 243- 244. - تذكرة الحفاظ / 1430- 1431. - طبقات الشافعية للسبكي 8/ 326. - شذرات الذهب 5/ 221- 222. الأعلام للزركلي 4/ 369. - معجم المؤلفين 6/ 257.

في عهد الملوك الأيوبيين عاش ابن الصلاح، وهو عهد لقي من الملوك والأمراء تشجيعا على العلم بإنشاء المدارس والمكتبات ورصد الأوقاف على المؤسسات العلمية وعلى طلاب العلم والعلماء كما أنها تهيئ للعلماء الجو وتفسح أمامهم المجال ليتبوؤوا أرقى المناصب فتنافس العلماء في تحصيل العلوم، في هذا الوسط عاش ابن الصلاح فشمر عن ساعد الجد لا يألوا جهدا في تحصيل العلوم.

ولقي عناية فائقة وتشجيعا من أبيه الفاضل العالم يعلمه ويربيه ويوجهه ويدفعه لأن يرتحل في طلب العلم بعد أن درس عليه المهذب مرتين. أرسله في ريعان شبابه إلى الموصل فحصل العلوم بأنواعها الفقه والحديث والتفسير والأصول.

ثم واصل رحلته العلمية إلى بلدان العالم الإسلامي فارتحل إلى بغداد فسمع من أبي أحمد بن سكينة وعمر بن طبرزد، وإلى همذان ونيسابور ومرو فتلقى من العلوم الكثير خاصة علوم الحديث على أيدي كثير من العلماء ثم رجع أدراجه إلى البلاد العربية حلب وحران ودمشق فأخذ عن علمائها ما يروي ظمأه ويصل به إلى مرحلة التكامل والنضج وما يبلغ درجة الأستاذ العالم الموجه.

وانتهى به المطاف إلى أن استقر في بلاد الشام مع أبيه وأسرته ويستقبل عهدا جديدا؛ عهد المسؤولية ونشر العلم فتولى التدريس بالمدرسة الأسدية (نسبة إلى أسد الدين شيركوه) بحلب ودرس بالمدرسة الناصرية (نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) بالقدس وأقام بها مدة. واشتغل عليه الناس وانتفعوا به.

ثم انتقل إلى دمشق وتولى التدريس بالمدرسة الرواحية التي أنشأها أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد بن رواحة الحموي.

ولما بنى الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب دار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه.

ثم تولى التدريس بمدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب فكان يقوم بوظائفه في هذه المدارس من غير إخلال أو تقصير.

شيوخه:

رأينا أن الإمام ابن الصلاح قام برحلات واسعة ولم تنص المصادر التي وقفت عليها إلا على عدد يسير من شيوخه فمنهم:

1- والده صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري أخذ عليه المهذب مرتين. توفي صلاح الدين سنة 618هـ.

2- ومنهم عماد الدين أبو حامد ابن يونس الفقيه الأصولي (ت 608هـ).

3- ومنهم عبيد الله السمين. 4- ونصر الله بن سلامة.

5- ومحمد بن علي الموصلي. 6- وعبد المحسن بن الطوسي.

7- وأبو أحمد عبد الوهاب بن عبد الله البغدادي كان حجة علما فقيها محدثا ت607هـ.

8- وأبو المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني4 (ت 618 هـ).

9- ومنهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت 620).

تلاميذه:

1- فخر الدين عمر الكرخي. 2- ومجد الدين ابن المهتار.

3- والشيخ تاج الدين عبد الرحمن.

4- وزين الدين أبو محمد عبد الله بن مروان الفارقي ت 703هـ.

5- والقاضي شهاب الدين الجوري.

6- والخطيب شرف الدين الفراوي.

7- والشهاب محمد بن شرف الدين.

8- والصدر محمد بن حسن الأرموي.

مزاياه وثناء العلماء عليه:

قال الذهبي: " كان سلفيا حسن الاعتقاد كافا عن تأويل المتكلمين مؤمنا بما ثبت من النصوص غير خائض ولا متعمق. وكان وافر الجلالة حسن البزة كثير الهيبة موقرا عند السلطان والأمراء تفقه به الأئمة ".

وقال ابن خلكان: " وكان من العلم والدين على قدم حسن. ولم يزل أمره جاريا على سداد وصلاح حال واجتهاد في الاشتغال والنفع ".

وقال السخاوي: " وكان إماما بارعا حجة متبحرا في العلوم الدينية بصيرا بالمذهب ووجوهه خبيرا بأصوله عارفا بالمذاهب جيد المادة في اللغة العربية حافظا للحديث متفننا حسن الضبط وافر الحرمة عديم النظير في زمانه مع الدين والعبادة والنسك والصيانة والورع والتقوى. انتفع به خلق وعولوا على تصانيفه ".

وفاته:

توفي رحمه الله في الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة بدمشق وكثر التأسف لفقده وحمل نعشه على الرؤوس وكان على جنازته هيبة وخشوع ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله وغفر له.

مؤلفاته:

له رحمه الله مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم استفاد منها العلماء بعده فكانت من أهم مراجعهم ومصادرهم التي يعتمدون عليها.

فمنها:

1- أدب المفتي والمستفتي. 2- الأمالي. مخطوط.

3- شرح الوسيط في الفقه الشافعي، أبدى فيه انتقادات علمية واجتهادات فقهية دقيقة.

4- صلة الناسك في صفة المناسك. جمع فيه جملة من المسائل النافعة التي يحتاج إليها الناس في مناسك الحج. مخطوط.

5- طبقات الشافعية.

6- علوم الحديث. أجمع الكتب في هذا الفن، ولقي حظا كبيرا من العلماء.

7- الفتاوى. جمعه بعض أصحابه وطبع في مجلد فيه له اجتهادات.

8- فوائد الرحلة. كتاب ممتع جمع فيه فوائد في علوم متنوعة قيدها في رحلته إلى خراسان. مخطوط.

9- مشكل الوسيط. في مجلد كبير.

10- المؤتلف والمختلف في أسماء الرجال.

11- النكت على المهذب.

هذا من آثاره النافعة تغمده الله برحمته [1].

* * *

(1) انظر مقدمة كتاب شرح التبصرة والتذكرة، للحافظ العراقي، من تحقيق د. ماهر ياسين الفحل. مقدمة كتاب النكت على كتاب ابن الصلاح لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني من تحقيق ربيع بن هادي عمير المدخلي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفِّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدَّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: ": اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال : " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا : ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه

من الأسباب " [1].

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنقصُ في أصلِ الطبيعةِ كامنٌ :: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجْحَدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص378.

الفهرس

* * *

المؤلف في سطور

الدكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

- ولد في محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية عام (1393هـ / 1973م).

- حصل علي ليسانس الآداب من جامعة طنطا (تخصص تاريخ) في عام 1996 م.

- حصل علي دبلوم الدراسات العليا (تخصص تاريخ وحضارة إسلامية) عام 1997م.

- نال درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطي والقوقاز) من جامعة طنطا - كلية الآداب - عام 2001 م.

- نال درجة الدكتوراة في التاريخ والحضارة الإسلامية (تخصص آسيا الوسطي والقوقاز) من جامعة عين شمس - كلية الآداب - عام 2006 م.

* * *

أهم أعمال المؤلف

م	عنوان الكتاب	دار النشر
1	تاريخ دولة المماليك	دار الإيمان بالمنصورة
2	تاريخ الدولة الأيوبية	دار الإيمان بالمنصورة
3	الشيعة... التاريخ الكامل	دار الإيمان بالمنصورة
4	تاريخ المغول	دار الإيمان بالمنصورة
5	تاريخ الإسلام في الأندلس	دار الإيمان بالمنصورة
6	الفتح الإسلامي لبلاد القوقاز	دار العلم والإيمان
7	الفتح الإسلامي لأذربيجان	دار العلم والإيمان
8	معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي	دار الإيمان بالمنصورة
9	سلاح المؤمن (الذكر والدعاء)	دار الإيمان بالمنصورة
10	شهداء العلماء	دار الإيمان بالمنصورة
11	فاعتبروا يا أولي الأبصار	دار الإيمان بالمنصورة
12	الظالمون في الدنيا وكيف كان نهايتهم	دار الإيمان بالمنصورة
13	ماذا يعني حب النبي ﷺ؟	دار العلم والإيمان
14	مطالب الظالمين في الآخرة	دار الإيمان بالإسكندرية
15	مختصر سير أعلام النبلاء	دار الإيمان بالمنصورة
16	مختصر تاريخ الإسلام للذهبي	دار الإيمان بالمنصورة
17	مختصر المنتظم لابن الجوزي	دار الإيمان بالمنصورة
18	مختصر الطبقات الكبري لابن سعد	دار الإيمان بالمنصورة
19	مختصر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	دار الإيمان بالمنصورة
20	مختصر السلوك في معرفة دول الملوك	دار الإيمان بالمنصورة
21	مختصر نفح الطيب للمقري	دار الإيمان بالمنصورة

22	ألف حكمة وحكمة من حكم الحكماء ومواعظ الصالحين	دار الإيمان بالمنصورة
23	1000 قصة من حياة الأئمة الأربعة	دار الإيمان بالإسكندرية
24	قصص ونوادر الأنام في الرؤي والأحلام	دار الإيمان بالمنصورة
25	قصص ونوادر من حياة الطفيليين والبلاغيين والنحاة	دار الإيمان بالمنصورة
26	قصص ونوادر من حياة البخلاء	دار الإيمان بالإسكندرية (تحت الطبع)
27	مختصر تاريخ الطبري	دار الإيمان بالمنصورة
28	مختصر وفيات الأعيات لابن خلكان	دار الإيمان بالمنصورة
29	من مشاهير أعلام المسلمين	دار الإيمان بالمنصورة
30	أعلام التابعين	دار الإيمان بالمنصورة
31	أعلام الفقهاء	دار الإيمان بالمنصورة
32	أعلام الحديث	دار الإيمان بالمنصورة

* * *